

obeikandi.com

يهود شرق أوربا

يهود شرق اوروبا

ترجمة / أماني عبد اللطيف
الغلاف / هانيبال – هيبو

سلسلة من كل بلد كتاب
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٤

ISBN: 978 – 977 – 6299 – 09 – 12



وكالة سفنكس

٧ شارع معروف الدور السابع

وسط البلد – القاهرة

ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروعة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2014

ہاڀو ھاومان

تاریخ یهود شرق اوربا



وڪالۃ سفنكس

مقدمة المؤلف

"أنا يهودي شرق أوروبي [أوست يودي]، ووطننا حيث يرقد موتانا. " هكذا قال المليونير هنري بلومفيلد، في رواية "فندق السافوا" لجوزيف روث، قالها حين كان يزور قبر أبيه جيشيل بلومفيلد. تجمع هذه العبارة بين جنباتها التاريخ الكامل "ليهود شرق أوروبا" (الذين يشار إليهم أحيانا باسم "أوستيودن"). لا يشير مصطلح "أوست يودن" ببساطة إلى "اليهود الموجودين في شرق أوروبا" لأنه رغم تشكلهم كعمط مميز هناك فإنهم موزعون في جميع أنحاء العالم. لقد تركوا وراءهم موتاهم في كثير من البلاد، وغالبا ما ظلت الذاكرة وطنهم الوحيد.

يضرِب أحد جذور الذاكرة في المنطقة التي شهدت نشأة يهود شرق أوروبا في القرن الثامن عشر وتشكلهم في القرن التاسع عشر: بولندا القديمة. من ثم، يقع تاريخ يهود شرق أوروبا البولنديين - في ظل أنظمة الحكم المختلفة التي تباعت عليهم بعد تقسيمات بولندا ما بين عامي ١٧٧٢ و ١٨١٥- في صلب موضوع هذا الكتاب. من هذا المنطلق، يأتي التصوير الدقيق لتاريخ اليهود في أوروبا الشرقية بأكملها مثل تاريخ يهود شرق أوروبا وانتشارهم في المنطقة ومواجهاتهم مع يهود غرب أوروبا. بهذه الطريقة، تظهر سماتهم المميزة وتراكيب الحياة اليومية بشكل أكثر وضوحا. إن استعراض الظروف المحيطة بعملية هجرة اليهود إلى بولندا يتجاوز نطاق هذا المؤلف. بالمثل، لم يزد الكتاب عن الإشارة الموجزة إلى مصير يهود شرق أوروبا في القرن العشرين. للقارئ أن يستزيد من المعلومات في هذا الصدد من مصادر أخرى. نهدف أن يكون هذا الكتاب مقدمة تعيد إلى الإذهان تاريخ يهود شرق أوروبا وأسلوب حياتهم - وهو ما يمثل جزءا من تاريخنا. إن قارئ اللغة الإنجليزية تتوافر بين

أيديهم الكثير من الدراسات - التي تفاوتت في درجة تخصصها - حول تاريخ اليهود؛ خاصة هؤلاء الذين عاشوا في وسط وشرق أوروبا. بيد أنه لا يوجد مؤلف يتسم بشمولية هذا الكتاب. إضافة إلى ذلك، تركت دراساتي على دور اليهود في المنطقة كوسطاء بين طبقات المجتمع المختلفة والبنى الاقتصادية المتباينة. أقدم في هذا الكتاب كيفية تطور هذا الدور وتغيره عبر القرون، وإن كنت أقدمه بشكل مجمل. واضعاً كل هذا نصب عيني، أقدم هنا وصفاً للقضايا الدينية والثقافية بالتواز مع القضايا الاجتماعية والاقتصادية دون أن أزعج أنني أزيد على تلخيص النتائج التي توصل إليها من سبقوني في دراساتهم. كان هدفي هو استثارة فضول القاريء وتشجيعه على الانشغال بتفاصيل هذا الموضوع. وكحي أجعل هذا العالم "المستغرب" غالباً أكثر وضوحاً، استخدمت أيضاً مصادر أدبية حتى حين تعني الرخصة الشعرية في تأليفها أنها انعكاسات غير مباشرة للواقع. قد تبدو بعض أجزاء هذا الكتاب في رأي كثير من القراء أولية أو حتى غير ضرورية. لكن الخصائص الرئيسة للديانة اليهودية والحياة الأسرية اليهودية (مثل البار ميتسفا [شعائر بلوغ سن التكليف الديني]، وشعائر السبت وما إلى ذلك) غير معروفة لمعظم الجيل الحالي من الألمان. في الوقت ذاته، في بريطانيا وأمريكا خاصة في المناطق الحضرية، تنتشر المعرفة بهذه الخصائص بل وقد يحضر الكثير من غير اليهود إحدى هذه المناسبات. على الأرجح يحظى المؤلفون الذين يكتبون عن حياة اليهودية في الماضي - مثل إسحاق باشيفيس سينجر - بشهرة أكبر لدى القاريء الإنجليزي عنها لدى القاريء الألماني. إن تواجد يهود أورثوذكس في نيويورك ولندن أو تورنتو يتحدثون اللغة اليديشية ويحتفظون بالكثير من أنماط الحياة الخاصة بأماكن نشأتهم - أي أوروبا الشرقية - يجعل من موضوع هذا الكتاب أقل "غربة" هناك عنه بالنسبة للقراء في ألمانيا والنمسا ما

بعد الشؤاة (الهولوكوست باللغة العبرية) . يعتذر المؤلف إلى هؤلاء الذين يشعرون أن في هذه التفسيرات "استعراضا للمعرفة" وأدعواهم لإغفال قراءتها .

أود تفسير الكلمة الألمانية (أوست يودن) التي اخترت الإبقاء عليها كما هي: إنه مفهوم لا يعكس معانيه بالكامل المصطلح الجغرافي المحض "يهود أوروبا الشرقية" . (علاوة على ذلك، فإن مصطلح أوروبا الشرقية يفهمه البريطانيون والأمريكيون مثلاً فهم مختلفاً عن غيرهم) . يوجد تفسير أدق لهذا المفهوم في الجزء الثاني من هذا الكتاب . أخيراً، أود إبداء ملحوظة على أسماء الأشخاص والأماكن - خاصة في منطقة الكومنولث التاريخي الليتواني - البولندي . من الطبيعي أن نجد في الكتب الألمانية إشارة إلى عاصمة سيليسيا - بالبولندية وروكلو - باسمها الألماني بيرسلاو، كما اعتاد المواطنون الألمان بالمناطق المستقلة أن يفعلوا لقرون . غير أن القاريء في العصر الحديث لن ينجح في العثور على مدينة بيرسلاو في الأطلس المعاصر . ولتقادي شبهة نية الانتقام سياسي في هذا الشأن - وهو الأمر الذي يثير حفيظة أهل المنطقة لأسباب مفهومة - في هذا الكتاب وردت أسماء الأماكن (وأحياناً الأسماء السلافية وغيرها من أسماء الأشخاص) في شكلها المتداول حالياً والموجود في الخرائط الحديثة أو في المؤلفات الأكاديمية . لمزيد من الإيضاح، حين يرد الاسم لأول مرة في الكتاب أضيف إلى جانبه البدائل المعروفة بين أقواس .

أود أن أتوجه بالشكر إلى عدد من المؤسسات التي ساندت بعض المشاريع البحثية التي استطعت التعويل على نتائجها مثل مؤسسة فولكس فاجن والمجلس الألماني للبحوث والصندوق الوطني السويسري لتطوير الأبحاث العلمية والهيئة الألمانية للتبادل الأكاديمي وأكاديميات العلوم البولندية والتشييكوسلافية . أود أيضاً أن أشكر العاملين بالأرشفيف والمكتبات بمدينة وارسو ولودز وبراغ وفرايبورج

براسجاو وبازل لتعاونهم. لقد تمكنا من إدراج الخرائط التوضيحية بهذا الكتاب بفضل جونا برانكا وقد ساعدتها كاترين شوت في الحصول عليها والانتقاء من بينها. سعدت بتلقي نصائح غالية من زملائي بما فيهم د. جيرجين هينسيل والبروفيسور جيرزي توماسيفسكي وبروفيسور فيليكس تيش إلى جانب زملائي في حلقة البحث التاريخية بجامعة بازل. هذا الكتاب مهدى إلى جوتفريد شرام التي حفرتني تساؤلاتها حول تاريخ الأوست يودن بشكل كبير والتي تابعت عملي بإظهار التعاطف وإسداء النصح وتوجيه النقد. صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الألمانية عام ١٩٩٠. قبلت بترحاب شديد حتى أن الطبعة الخامسة صدرت عام ١٩٩٩. صدرت لهذا الكتاب ترجمات باللغة الإيطالية واليابانية والتشيكية والبولندية. يسعدني أنه - بعد بعض التأخير - صدرت الآن طبعة باللغة الإنجليزية للقراء المهتمين بهذا الموضوع. كانت فكرة التوجه إلى دار نشر سنترال يوروبيان برس فكرة لاري وواف. قدم يانوس باك الدعم السخي ليظهر هذا الكتاب إلى الوجود. علاوة على ذلك، أسدى لي النصح مثله في ذلك مثل هايديماري بيترسون فيما يتصل بتنقيح النص. قام جيمس باترسون بترجمة الكتاب بنزاهة. أتوجه إليهم بعميق شكري ولاي شخص آخر مد لي يد العون.

مدينة بازل، يناير ٢٠٠٢

الجزء الأول

بولندا ملاذ لليهود

الأمراء البولنديون يعرضون

حماية اليهود من الاضطهاد

رأي بنو إسرائيل كيف تجددت معاناتهم باطراد، وازدادت أعباؤهم، وتفاقم الظلم الذي يتعرضون له، وناؤوا بثقل العبودية وأدى حكم الشر إلى كارثة تلو الأخرى وتعاقب بسببه الطرد تلو الآخر حتى إنهم لم يعودوا يستطيعون تحمل هؤلاء الذين يكرهونهم. لذا، فقد ارتحلوا وسعوا وتلمسوا سبل العالم لاكتشاف أي السبل عليهم أن يسلكوا لينعموا بالسلام. ثم جاءت رسالة من السماء أن اذهبوا إلى بولندا! هكذا ذهبوا إلى بولندا، وأهدوا للملك جيلًا من الذهب واستقبلهم الملك بحفاوة شديدة. وتبناهم الرب كأبنائه ومنحهم الرحمة في أعين الملك والأمراء... غير أن هناك أيضًا من الأسباب ما يؤيد فرضية أن بني إسرائيل كانوا قد عاشوا في بولندا منذ عصور سحيقة، نعموا فيها بالرخاء في ظل الحكمة وتحت سيادة القانون. بمقدم اليهود من مملكة الفرانكيين، وجدوا في بولندا غابة حفرت على جذوعها كتابات - على كل شجرة نقشَت رسالة من التلمود. هذه هي غابة كاوزين التي تؤدي إلى لوبلن. وهناك من يعتقد أن اسم البلد يرجع إلى مصدر مقدس: لغة بني إسرائيل. لأن بني إسرائيل حين وصلوا إليها قالوا "بو- لين" أي "أفضوا ليلتكم هنا!" وقصدوا بذلك "نريد قضاء ليلنا هنا حتى يعيد الرب جمع شتات شعب إسرائيل." هذا ما أخبرنا به أباؤنا!

تعبّر هذه الأسطورة عن الأمل الذي علقه اليهود على بولندا، وهو الهدف الذي بدا لوقت طويل أنه قد تحقق. كما تشتمل أيضًا على سبب هجرة اليهود إلى الشرق؛ ألا وهو الاضطهاد الذي عانوا منه في وسط أوروبا. كما توضح سبب اهتمام الأمراء البولنديين

¹ [بولندا- أسطورة الوصول (وصول اليهود)] ، و[كتاب اليهود البولنديين]، المحررون س. ج. أجنون وأهرون إلياسبرج (برلين ١٩١٦)

باليهود: أموالهم. منذ أعمال العنف التي اندلعت بسبب الحملة الشعواء الأولى عليهم، بحث اليهود من بعض مدن ألمانيا وبوهيميا عن ملجأ في بولندا. أصدر بوليسلاف الورع (١٢٢١-١٢٧٩) ميثاق كاليبسكي الذي أصبح فيما بعد أساسا لكل القرارات الحماية التي صدرت في أوقات لاحقة لصالح اليهود.

قام هذا القانون على الامتياز الذي منحه الإمبراطور فريدرىك الثاني لليهود عام ١٢٣٦ وما تلاه من امتيازات. أعلن هذا الامتياز اليهود "أقنان بلاط" الأمير (انظر الصفحة ٩) الذي فرض عليهم دفع مبالغ مالية له والذي وعدهم في المقابل بحمايتهم وكفل لهم الحرية فيما يتصل بأنشطتهم الاقتصادية. علاوة على ذلك منحهم بوليسلاف حق تشكيل جماعات تتمتع بالحكم الذاتي. كانت أية هجمات ضد اليهود- أو حتى توجيه اتهامات القتل الطقسي لهم- تلقى أشد عقوبة من جانب الأمير. أعاد الملك كاسمير الثالث- كاسمير العظيم (١٣١٠-١٣٧٠)- أعاد التصديق على هذا الميثاق مرة أخرى عام ١٣٣٤، ومدد نطاقه ليتجاوز بولندا العظمى ليشمل كل الأراضي الخاضعة لسلطته. قام كاسمير بتشجيع توافد المهاجرين اليهود الذين فروا من وسط أوروبا- وأيضا من سيليسيا التي كانت قد أصبحت في ذلك الوقت إقطاعية ببوهيميا. ربما كان كاسمير يرى أن هناك فرصة لاستغلال اليهود - الذين سيشعرون بالضرورة أنهم مدينون له - في موازنة قوة المواطنين الألمان ذوي السيادة المستقلة في المدن. كان للملك أيضا "مصري بلط" يهودي يدعى لوكو كانت توكل إليه جباية الضرائب وإدارة استخراج الملح. في ذاك الوقت، كانت جباية الضرائب وقطع القوالب وسك العملة أعمال يمارسها اليهود في بولندا على نطاق واسع. في عام ١٣٦٤ و١٣٦٧، أصدر كاسمير قرارات جديدة لضبط المزيد من المجالات المتعلقة بالحياة اليهودية. بهذه الطريقة، لم يعد اليهود خاضعين للقانون الألماني وخضعوا لسلطان

الفويغود - ممثل الملك في تلك المناطق. في الحالات التي تنطوي على اتهامات خطيرة، كان اليهود يخضعون لسلطان الملك. كان هذا الإجراء متسقاً مع وضع اليهود كأقنان البلاط الملكي. حاز اليهود أيضاً امتيازات اقتصادية، منها الحق في تملك الأراضي والمنازل في كل من المدن والقرى. أكد على كل هذه الامتيازات الملوك الذين خلفوا كاسمير. شكلت هذه الوثائق أساس الوضع القانوني لليهود حتى تقسيمات بولندا بنهاية القرن الثامن عشر.

في ليتوانيا - التي ارتبطت منذ عام ١٣٨٦ ببولندا باتحاد شخصي - لعبت الامتيازات التي منحها فيتاوتاس فيتولد (ابن عمومة الملك فلاديسلاف جاجيلو وكبير الأمراء منذ عام ١٣٩٢ وحتى ١٤٣٠) دوراً مشابهاً وقد منحت هذه الامتيازات للجماعات اليهودية الثلاثة الموجودة في تراكاي وبرست وجروندو.

بموجب هذه الوثيقة نسمح لهم [اليهود - ه. ه.] بشراء البضائع بجميع أنواعها وبيع المشروبات الكحولية بجميع أنواعها - سواء صنعوها بأنفسهم أو قاموا بشرائها - في منازلهم إذا قاموا بدفع ضريبة سنوية. يسمح لهم - مثلهم مثل المواطنين في المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي - بممارسة عمليات البيع والشراء في كل من الأسواق والحوانيت وفي جميع مجالات التجارة. يجوز لهم - مثلهم مثل مواطني المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي - حيازة الحقول والأراضي طالما قاموا بدفع المبالغ اللازمة لخزائنا.

بصفة أساسية، استتبع هذا المساواة في الحقوق بين اليهود وغير اليهود، على الأقل في المجال الاقتصادي. لم يدل المعارضون لهذه السياسات بداوهم لفترة طويلة. بيد أن الظروف التي عاش فيها اليهود في الكومنولث البولندي-الليتواني لا يمكن على الإطلاق وصفها بأنها مثالية. في الواقع، يعود تاريخ يهود شرق أوروبا إلى تاريخ

^٢ (ميثاق جروندو)

طردهم من إسرائيل، وتجوالهم في الكثير من الدول، وتعرضهم للاضطهاد مرة أخرى. اتجهت أضخم هجرات اليهود من جهة إلى شبه جزيرة أيبيريا (بالعبرية: السيفاراد) ومن جهة أخرى إلى وسط أوروبا خاصة ما أصبح لاحقا المانيا (بالعبرية: أشكيناز). قدر لليهود الأشكيناز والسفاردة أن يلعبوا دورا هاما في أوروبا الشرقية. هناك دلائل على وجود تجار يهود من الغرب في أوروبا الشرقية منذ القرن الثامن. كما توافد إليها تجار آخرون من الإمبراطورية البيزنطية. قبيل نهاية القرن الثامن، تحول الخاقان العظيم للخزر، أوبديا، والمقربون له من الطبقة العليا لمجتمع الخزر إلى الديانة اليهودية، الحدث الذي أثار ضجة في أنحاء أوروبا.

أدخل فكرة إقامة المناظرات بين ممثلي الديانات المختلفة، الفكرة التي يعتقد أنها أدت إلى قرار الخاقان العظيم الذي جاء لصالح اليهودية، على يد فيلسوف الدين الشهير يودا هاليفي (تقريبا ١٠٧٥ - ١١٤١) في كتابه "سفر الخزر". لا بد وأن اعتبارات السياسة الخارجية كانت حاسمة في هذا الصدد. أراد أوبديا التأكيد على استقلال الخانات ونديتهم فيما يتصل بالإمبراطورية البيزنطية المسيحية والخلافة الإسلامية. ما بين القرنين السابع والعاشر، أقام الخزر إمبراطورية شاسعة امتدت من بحر أرال إلى الشمال الغربي للبحر الأسود ومن بحر القوقاز إلى الشمال. لم يعن اعتناق الجزء الأكبر من الدوائر الحاكمة للديانة اليهودية أن القبائل المختلفة للإمبراطورية تخلوا عن دياناتهم. في الواقع، يبدو أن الاختلافات الداخلية ازدادت حدة. عند إقامة كيف الروسية - أول دولة روسية - بعد عام ٨٦٠، سرعان ما دخلت الدولتان في صراع. بين عامي ٩٦٤ و٩٦٨، قام أمير كيف سفيا توسلاف أخيرا بهزيمة الخزر الذين أصابهم الوهن من جراء الحروب الأهلية وهجمات البشكنس. يبدو أن جزءا من يهود الخزر بقوا في مناطق

الاستيطان الخاصة بهم لأن هناك دلائل على ظهور حركة مشيحية بين يهود الخزر بشيه جزيرة القرم. عاد آخرون إلى بلاد القوقاز وزادوا من عدد اليهود الذين كانوا قد هاجروا إلى هناك من فارس في وقت سابق. شكلوا أساس "يهود الجبل" الذين يعيشون حتي في يومنا هذا في جماعات متمسكة بالتقاليد. استقر يهود الخزر أيضا في كييف ومدن أخرى بكييف الروسية وبولندا. في كييف بدايات العصور الوسطى كان هناك "بوابة يهودية" وعندما اندلعت الاضطرابات في عام ١١١٣ بعد وفاة الأمير غير المحبوب سفيا تويولك الثاني، وقع اليهود أيضا ضحايا للغضب الشعبي. فقد مثلوا الأمير في المعاملات التجارية كما حازوا حق احتكار الملح؛ الأمر الذي أثار ضدهم مقت الشعب. يمكن تمييز طقطقة الصراع هنا. كان التدفق الهائل للمهاجرين اليهود إلى أوروبا الشرقية مرتبطا بالتغيرات التي اعترت وضعهم بأوروبا الغربية. في البداية، قام المسيحيون - الذين انتشرت بينهم مفاهيم معادية لليهود في وقت مبكر نسبيا نتيجة للتنافس الديني - بإجبار اليهود على العمل بالأنشطة الاقتصادية - على وجه الخصوص جباية الضرائب وإقراض الأموال بالفائدة - وهي المجالات التي كانوا لا يستطيعون الاشتغال بها لأسباب دينية. بيد أنه بعد ذلك أصبح من الواضح كم الأرباح الذي يمكن جنيته من الاشتغال بهذه المجالات وبعد ..

ان اكتسب اليهود المهارات الأساسية اللازمة للعمل بها، سعى المسيحيون للحد من الفرص السانحة أمام اليهود. منذ القرن الحادي عشر فصاعدا تراكمت أشكال الحظورات على اليهود، حتى وصل الأمر في النهاية إلى اضطهاد اليهود وطردهم. فلم يعد هناك حاجة إلى اليهود. اجتاحت موجة عاتية من الاضطهاد ألمانيا ووسط أوروبا نتيجة للحرب الأولى الشعواء على اليهود في عام ١٠٩٦ ومرة ثانية أثناء الحرب الثانية في ١١٤٦ - ١١٤٧. في وقت لاحق وصلت

أعمال العنف ضد اليهود إلى أوجها عام ١٣٤٨ - ١٣٤٩ حينما اجتاحت الموت الأسود البلاد . سعيًا لمعرفة أسباب هذا الوباء ، جعل الناس من اليهود "كبش فداء" . سرى الاعتقاد بأن اليهود سُمِّموا مجاري المياه والآبار . هنا أيضًا نجد نمطًا جديدًا ينتشر في التاريخ المتأخر أيضًا وي طرح إشكالية أساسية في مسألة تحليل الأقليات: الأفعال والأحداث التي لا يمكن فهمها بوضوح يميل الناس إلى إرجاعها للأشخاص الذين يتسمون بالغرابة والذين تحوم الشكوك حول عقائدهم ولا تلق أفعالهم القبول الشعبي .

استفاد كل من دائني اليهود ومنافسيهم الاقتصاديين في عام ١٣٨٩ حين ثار أهل براغ المسيحيون عند اتهام اليهود بأنهم دنسوا حرمة عيد الفصح بقيامهم بمهاجمة بعض القساوسة فأُحرق أهل براغ الجيتو اليهودي في المدينة القديمة وقتلوا جزءًا كبيرًا من السكان ونهبوا ممتلكاتهم . لم يكن هذا هو الهجوم الوحيد على اليهود بالمدينة . كانت الجماعة اليهودية في براغ في ذلك الوقت إحدى أكبر الجماعات اليهودية في أوروبا وأكثرها ازدهارًا . في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، تم توجيه اتهامات القتل الطقسي إلى اليهود كمبرر لاضطهادهم . في عيد الفصح اليهودي ، سرت مزاعم بأن اليهود ذبحوا أطفالًا مسيحيين للحصول على الدماء الضرورية لإقامة بعض الشعائر . وقد دحض التحقيق الذي أجراه الإمبراطور فريدريك الثاني في عام ١٢٣٥ في أعقاب جريمة قتل طقسي مزعومة هذا الاتهام . بيد أن هذا الدحض لم يكن له الأثر المرغوب مثله مثل البيانات البابوية التي كانت تصدر من آن لآخر ضد توجيه مثل هذه الاتهامات لليهود أو ضد إثارة الشكوك بأنهم سيممون المجاري المائية . فقد ظل الاعتقاد في هذه الأساطير قائمًا حتى الماضي القريب . فريدريك الثاني الذي كان مهتمًا باليهود بصفة أساسية لأسباب اقتصادية أعلنهم "أقنانًا للبلاط" في عام ١٢٣٦ . كان هذا

الإجراء يهدف إلى حمايتهم - وفي ذات الوقت زيادة خدماتهم المقدمة للإمبراطور - الأمر الذي ضاعف من الأموال المكسدة بنجزاته. نتيجة لذلك، خضع اليهود لقوانين خاصة وهو التطور الذي كان متوقعا منذ فترة. بإخضاع اليهود لحالة قانونية خاصة، ازداد احتمال إصدار عدد متزايد من القرارات غير العادية. نتيجة لذلك، عاش اليهود في ظروف تتسم بالريبة الشديدة والاعتماد على الآخرين. فقد قام الإمبراطور برهن أو إقراض أو بيع الحقوق السيادية للكثير من اليهود. من الواضح أن "المكانة الأدنى" لليهود أجبرت على الانزواء إلى هامش المجتمع. أصبح اليهود أقلية تحتقرها أغلبية المجتمع. من أبرز القوانين الخاصة التي خضع لها اليهود فرض ضرائب خاصة عليهم والقوانين المتعلقة بالملابس التي تشمل كل شيء بدءا من القبعات المستدقة وحتى ما يطلق عليه "الشارة اليهودية" وهي حلقة ذهبية تعلق على رداء للرجال وحجاب بخطوط زرقاء للنساء. بهذه الطرق كان من الواضح أن اليهود أبقوا خارج النظام الاجتماعي. الأمر الذي يعد ذي أهمية خاصة في هذا الصدد هو المجمع اللاتراني المنعقد عام ١٢١٥ ومجلس بازل عام ١٤٣١، وبالنسبة لبوهيميا المجمع الكنسي في براغ عام ١٤٤٩. كانت قوانين الملابس لليهود تقوم على حقيقة أن ارتداء اليهود والمسيحيين لنفس الملابس قد أدى إلى ذلك الوقت إلى إقامة علاقات جنسية بين التابعين للديانتين عن طريق الخطأ. صاحب هذه الإجراءات إلزام اليهود بالتقيد بشوارع ومناطق معينة. في الأساس كان هذا التقيد يحدث تلقائيا لأسباب تجارية - وبالمثل في الشوارع التي يقطنها الحرفيون المسيحيون - لتيسير الحياة الدينية وللحفاظ على هويتهم. بعد سن هذه القوانين، أصبح الوصول إلى المناطق التي يسكنها المسيحيون أصعب عن ذي قبل نظرا لأنه كان ينبغي إغلاق

"شوارع اليهود" في المساء. منذ القرن السادس عشر - على نسق نموذج فينيسيا لعام ١٥١٦- تم قبول مصطلح "الجيتو".
في معظم الدول الأوروبية لم تقصر الشعوب أنفسهم على الاضطهاد والقوانين الخاصة. شكلت عمليات الطرد الشاملة والترحيل لليهود النتيجة المؤقتة- لهذه التطورات. بدأت إنجلترا وجنوب إيطاليا (باستثناء صقلية) هذه العملية في عام ١٢٩٠ و- بعد عدد من المحاولات المختلفة- تبعها فرنسا (١٣٩٤) وإسبانيا (١٤٩٢) والبرتغال (١٤٩٦-١٤٩٧) وناپلس (١٥٠٣) ومع بعض الاستثناءات حذت حذوها الولايات البابوية (١٥٩٣) وتلتها بعض الولايات الإيطالية. تناثر اليهود المطرودون في أنحاء مختلفة مرة أخرى. كانت أوروبا الشرقية- واليشيا والمجر على سبيل المثال- مقصد اليهود السفاردة.

لم يتعرض اليهود الألمان إلى عمليات الطرد الشاملة التي عانى منها اليهود في بلاد أخرى. ساعد على هذا التقسيم السياسي لألمانيا إلى مقاطعات صغيرة لا حصر لها. كان باستطاعة اليهود إذا ما تعرضوا للاضطهاد في مكان ما العثور على مأوى في منطقة مجاورة. حتى هذا كان سيئاً للغاية. علاوة على ذلك، لم يعد بوسع اليهود منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر الحصول على حقوق المواطنة في الكثير من المدن. كل هذا كان يعني- من قبيل المصادفة- أن تجارة التجزئة بين القرى والمدن ظلت أهم الأنشطة الاقتصادية التي يقوم بها اليهود وأنهم حصلوا لأنفسهم على دور مركزي كوسطاء. رغم أن تاريخ اليهود في العصور الوسطى بأوروبا لا يتسم كله على الإطلاق بالتمييز والاضطهاد - فقد كانت هناك فترات عديدة للتعايش السلمي بعلاقات متبادلة وحتى علاقات ثقافية طيبة - غير أن وضع اليهود كان مخفواً بالمخاطر. في حالة نشوب صراع اجتماعي أو انتشار الجماعات أو الأوبئة كان من

الممكن توجيه الاتهامات لليهود بتهم الدم أو القيام بأعمال العنف الدموية في أي وقت. بين عامة الناس كان الاعتقاد السائد بأنه قد يكون لليهود يد في هذه الأحداث وكقاعدة عامة ترسخ هذا الاعتقاد على يد الكنيسة. نتيجة لذلك، فليس مثيرا للدهشة أن المزيد من اليهود - الأشكيناز من ألمانيا والمناطق المجاورة - استجابوا لنداء حكام بولندا الذين قدموا لهم وعودا بتقديم الحماية الفعالة والامتيازات. خصوم اليهود. كانت الكنيسة الكاثوليكية في الطليعة فيما يتصل بالإجراءات المضادة لليهود. بناء على نسق التجمع اللاتراني المنعقد عام ١٢١٥، مجلس وروكلو- تحت سيطرة أحد فروع أسرة بياست الحاكمة - قرروا في عام ١٢٦٧ أنه يتعين على اليهود الإقامة في مناطق منفصلة عن المسيحيين وأن يقوموا بارتداء شارة مميزة على زبهم. لم يسمح لليهود بأن يتولوا أي مناصب عامة أو تولي أية مراكز يكون فيها المسيحيون مرؤوسيهـم. كان يُفضل منع اليهود من جباية الضرائب والرسوم المالية وسك العملات؛ الأمر الذي كان من شأنه حرمانهم من أهم مصادر الدخل. رغم أن المجالس المنعقدة بعد ذلك أعادت التأكيد على هذا القرار، لم تلق هذه الإجراءات نجاحا عمليا كبيرا. كان اليهود ذوي أهمية كبيرة عند الحكام البولنديين - بصفة رئيسية من أجل أموالهم - تمنعهم من القيام بأي محجيم لأنشطتهم. من ثم، لا عجب في أن الهجرة اليهودية إلى بولندا استمرت. في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، نجد المزيد من الدلائل على وجود مناطق خاصة باليهود في المدن البولندية: ١٣٥٦ في لفيف (المبرج)، في عام ١٣٦٧ في ساندوميرز وزفي عام ١٣٨٦ في كاسمير بالقرب من كراكو وغيرها من المدن في بولندا العظمى وكجافيا وبوميرينيا وجاليشيا الحمراء. تنامت المعارضة لليهود بما تناسب مع استيطانهم ونجاحاتهم الاقتصادية. شارك الكنيسة الكاثوليكية عداءها لليهود التجار المسيحيون الذين شعروا

بالتهديد من المنافسة اليهودية. طالبوا بمنع اليهود من إقراض الأموال بضمانات عقارية، أو خطابات ضمان التصرف الأمن وبوجه عام وضع قيود على أنشطتهم المختلفة. ليس من قبيل الصدفة أن هذا الوقت شهد توجيه سلسلة من الاتهامات بجرمة الدم وارتكاب بعض الجرائم في حق الشعب المضيف. في عام ١٤٠٧ حين قام أحد القساوسة بإلقاء موعظة من فوق منبر كنيسة القديسة باربرا في كراكوف مفادها أن اليهود قد قاموا بقتل طفل مسيحي واستخدموا دماءه في القيام ببعض الطقوس الدينية، قام الحشد ألتائر باجتياح منازل اليهود ونهبها وإحراقها وقتل الكثير من سكانها وقاموا بتعميد عدد لا حصر له من الأطفال اليهود قسرا.

وصلت هذه الحملات إلى أوجها حين وصل الراهب الفرنسي سكي جون كابستران- الذي تمتع بسلطات محاكم التفتيش- إلى بولندا عام ١٤٥٣. سمعة هذا الواعظ- الذي كان من الواضح أنه تمتع بمواهب بلاغية عظيمة- بوصفه "السوط المسلط على اليهود" كانت قد سبقته إلى بولندا: فقد أثار هذا الراهب الخراب في إيطاليا والنمسا وبافاريا وسيليسيا وكان لدعايته المثيرة للجماهير أثر مدمر حتى في بوهيميا ومورافيا. نجح كابستران في كسب تأييد الكاردينال البولندي زيجنيف أوليسينكي وتوحيد مطالب رجال الدين والمواطنين المسيحيين إلى جانب حليف آخر وهو الأعضاء الذين أصابهم الفقر من صغار النبلاء الذين كانوا دائنين لليهود. تعرض الملك كاسمير الرابع (١٤٢٧- ١٤٩٢) الذي أعاد التأكيد على امتيازات اليهود لضغط هائل- خاصة حين وعظه كابستران قائلا: "اتبه إلى أن إهمالك لتحذيراتي لا تجلب عليك عقاب السماء!" فتنازل كاسمير وفي عام ١٤٥٤ أعلن أن الامتيازات لا تتعارض مع القانون السماوي والدستور.

شعر خصوم اليهود بأن كل هذه الأحداث عززت من موقفهم. في عام ١٤٦٣، قام البولنديون، الذين أرادوا الاستجابة لنداء بيوس الثاني لشن حرب شعواء على اليهود مرة أخرى، بنهب منطقة كراكو اليهودية. في عام ١٤٦٩ تم نقل المنطقة اليهودية ليحل محلها مبنى الجامعة. في عام ١٥٦٤ في بوزنان جرت أعمال عنف في أعقاب اندلاع حريق. في كلتا الحالتين، بعد إندلاع أحداث العنف كان على السلطات المحليات اليهودية دفع غرامة. كان لمحاولات المدن الحصول على امتيازات بالأيتساحوا مع اليهود أثر على المدى الطويل. حدث هذا بالفعل في كثير من المدن، غير أن اليهود كثيرا ما تحايّلوا على هذا الحظر. واصلت برومبيرج هذا النهج في بداية القرن الرابع عشر. في عام ١٤٨٣ أخرج اليهود من وارسو وفي عام ١٤٤٩ رضح يهود كراكو تحت وطأة الضغوط المطردة وانتقلوا إلى ضاحية كاسمير. ظلت أبواب كراكو مغلقة أمام اليهود كمناطق سكنية مع بعض الاستثناءات القليلة حتى عام ١٨٦٧. بنهاية القرن الخامس عشر كان جميع اليهود قد طردوا من ليتوانيا رغم أنه سمح لهم بالعودة مقابل دفع رسوم باهظة؛ يبدو أنهم كانوا لا يزالون ذوي نفع. كان الوضع غاية في الصعوبة بالنسبة لليهود مملكة بروسيا - التي أصبحت فيما بعد غرب بروسيا حول تورن وجدانسك (دانزج) والبلاج (إيلبينج) - تقليد كان يستمر إبان عصر الإصلاح بين اللوثرين البروسيين. المزايا التي منحت لعشرين مدينة في القرن السادس عشر كانت التطور الطبيعي لعمليات الطرد الفردية. مما يثير الاهتمام أنه في بعض المناطق أو الضواحي أو حتى في مدن بأكملها، نجح اليهود في الحصول على امتياز عدم التسامح مع المسيحيين. استطاعوا هذا على سبيل المثال في عام ١٥٦٨ في مدينة كاسمير وفي عام ١٦٣٣ الجماعة اليهودية في مدينة بوزنان وفي عام ١٦٤٥ في جميع الجماعات

اليهودية في ليتوانيا . هناك شك في أن تكون هذه الإجراءات وفرت ظروفا مواتية للتعايش السلمي بين اليهود والمسيحيين أم لا .

في ١٥٣٨ ، فرض المجلس التشريعي البولندي في بيوتركوف - تحت ضغط من بعض أفراد طبقة صغار النبلاء الغارقين في الدين - حظرا يمنع اليهود من جباية الإيرادات العامة للدولة . قامت أعلى هيئة يهودية تتمتع بالإدارة الذاتية بالتصديق على هذا الإجراء في لوبلن عام ١٥٨١ ومنع جباية الضرائب عن مصانع الملح وسك النقود وجمع الرسوم المفروضة على الجمعة الحاضرة والرسوم الجمركية والمكوس في بولندا الصغرى وبولندا العظمى وفي مازوفيا - وإلا تعرض المخالف للحرمان الكنسي . " أثار الناس التلهف على جنى الربح والثراء من المخاطر - لا قدر الله- التي تعرض لها العقارات المؤجرة الضخمة مما أطلق العنان لخطر كبير على الجميع [اليهود] .^٣

لقد تعلموا من التجربة وأرادوا أن يسبقوا خصومهم . في ذلك الوقت ، بسبب عملية مكثفة مناهضة الإصلاح قام بها الجيزويت (اليسوعيون) ، ثار مناخ معاد لليهود مرة أخرى . من أسباب هذا بعض الحالات الفردية التي تحول فيها مسيحيون إلى الدين اليهودي وتوجيه الاتهام إلى اليهود بأنهم حرضوا الهوسيتين (أتباع يان هس المفكر الديني والفيلسوف والمصلح التشيكي) على النطق بالهرطقة وحركات المتهودين . حدث هذا في القرن الخامس عشر كمزيج من العقلانية اليهودية والمسيحية في موسكو ونوفجورود وانتشر هذا المد في القرن السادس عشر إلى الاتحاد البولندي- اللیتواني . وجهت المزيد من الاتهامات إلى اليهود بارتكاب جرائم الدم أو سرقة رقاقت خبز القربان المقدس من أجل الحصول على الدماء البشرية . كانت هذه التهمة تعني لليهود المتهمين الموت بالخازوق .

^٣ ماريان فوكس وزيجمونت هوفمان وموري سي هورن وجيرزي توماس تسيفيسكي [اليهود البولنديون ، تاريخ وثقافة] (وارسو ، بلا تاريخ [حوالي ١٩٨٣])

نجاح اقتصادي

رغم كل هذه الإجراءات المناهضة لليهود، نجح غالبية اليهود في مملكة بولندا العظمى في التطور بحرية إلى حد ما . في عام ١٥٦٥ صرح ممثل بابوي من بولندا بالتالي:

"في هذه الأراضي توجد أعداد هائلة من اليهود لا يتم ازدرائهم كما يحدث في مناطق أخرى. إنهم لا يعيشون حياة المذلة والهوان، كما لا يتم قصرهم على الوظائف المهينة. فهم يمتلكون الأراضي ويعملون بالتجارة ويدرسون الطب والفلك. يملكون ثروة كبيرة ولا يعتبرون فقط أناسا محترمين بل غالبا ما يتمتعون بالسلطة أيضا. إنهم لا يرتدون أية شارات مميزة ويسمح لهم حتى بحمل السلاح. بإيجاز، إنهم يتمتعون بجميع الحقوق المدنية."

حتى وإن كان هذا التصريح مغالياً بعض الشيء في الصورة الإيجابية التي يرسمها، فإنه رغم ذلك يوضح بعض النقاط الهامة. في الواقع، في بولندا كان من بين اليهود ملاك أراضي ومزارعون - في ذلك الوقت لم يكونوا يتعرضون للقيود المألوفة في أوروبا الغربية. تصرف بعض أغنياء اليهود كمنظمين لمناطق الاستيطان، مؤسسين بذلك قرى بأكملها. في حين قام آخرون بتأجير الأراضي والقرى. إضافة إلى ذلك، مارس الكثير من اليهود الزراعة كعمل إضافي خاصة في المدن الصغيرة مثلهم مثل أهل المدن المسيحيين الذين كانوا يزرعون قطعة أرض صغيرة. عملت مجموعة أكبر من اليهود بالتجارة لتوريد البضائع إلى إخوانهم في الدين. كان هذا ضروريا بسبب التعاليم الدينية اليهودية الحاسمة، التي تجعل من الضروري وجود قصابين ومصرفين وخياطين خاصين باليهود. تطرقت مصادر مختلفة إلى تعامل المسيحيين مع حرفيين من اليهود. مما لا بد وأنه أثار

٤ ماريان فوكس وزيجمونت هوفمان وموريستي هورن وجيرزي توماس تسيفيسكي [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة] (وارسو، بلا تاريخ [حوالي ١٩٨٣])

الاحتجاجات وخاصة من أعضاء النقابات العمالية الذين كانوا يغارون من احتكار اليهود لهذه الأعمال. في كثير من المدن، استطاعت النقابات العمالية أن تجبر الحرفيين اليهود على الحد من أنشطتهم أو على الأقل على دفع رسوم أعلى مما يدفعها المسيحيون. غير أنه لا يجب علينا المبالغة في تقدير حجم عواقب كل هذا. فغالبا ما استطاع اليهود التحايل على قوانين النقابات العمالية. نتيجة لذلك، مثلهم مثل الحرفيين المسيحيين، تم تصويرهم كعمال غير بارعين؛ الأمر الذي لا يمكن اعتباره على الإطلاق مؤشرا على جودة أعمالهم. بينما لم يتمتع اليهود الذين أقاموا بالمدن التابعة للكنيسة بآية حقوق، كان الملك يوليهم بالحماية في المدن التابعة له كما فعلت أيضا طبقة النبلاء العليا. سعى الملك بهذه الطريقة لتطوير المدن التابعة له على حساب رعاياه الآخرين. حتى منتصف القرن السادس عشر، اشتغل اليهود تقريبا بجميع الأعمال التي تحتاج إلى مهارة. في كراكو ولفيف وبرزيميسل وغيرها من المدن كان لليهود النقابات العمالية الخاصة بهم.

في ذاك الوقت، كانت محاولات التجار المسيحيين لوضع قيود على الأنشطة التجارية لليهود لا تلق نجاحا. في تجارة الجملة، كان يفترض باليهود الاقتصار على سلع معينة بينما أراد التجار المسيحيون إخراجهم من مجال تجارة التجزئة تماما. نظرا لأن الملك والكثير من الطبقة العليا للنبلاء منحوا تأييدهم لليهود، كان اليهود على الدوام قادرين على التأكيد على حقوقهم. على رأس القائمة كان هناك تجار الجملة بصلاتهم التي أقاموها عبر المسافات الطويلة مع أوروبا الغربية وأيضا مع اليهود الشرقيين من بولندا بصفة عامة. شارك تجار الجملة من اليهود في الأسواق الكبيرة التي كانت تقام في تلك الفترة في فينيسيا وفلورنسا ولبينج وهامبورج وفرانكفورت وجدانسك. منذ القرن السادس عشر، أسس اليهود شركات

للمعاملات التجارية من أجل الحصول على رأس المال الكافي. أحيانا كان اليهود والمسيحيون يجتمعون لإنشاء شركة واحدة. بيد أن غالبية التجار اليهود عملوا كأصحاب حوانيت صغار أو متوسطة الحجم أو كبتالين أو باعة متجولين. غالبا ما عاش هؤلاء عيشة الكفاف. ارتبط نظام البيع الآجل بالتجارة من أجل تأمين التمويل. حين ازدادت التعاملات المالية، اكتسبت هذه التجارة أهمية أكبر. تركز المقرضون اليهود في البؤرة الاقتصادية لمدينة كراكو وبوزنان وكاليسز، وتدرجيا اخترقوا المناطق الأقل تطورا من الناحية الاقتصادية. لم يكن الملك والنبلاء المستفيدين الوحيدين من مهارات المصرفيين اليهود، بل كان صغار التجار والحرفيين بحاجة إلى الاقتراض كي يفتحوا محال وورش بينما اضطر الفلاحون غالبا إلى سد الهوة بالاقتراض إلى أن يحين موعد الحصاد. من اليقيني أن الديون لم تكن تسدد على الدوام. يفسر انعدام الأمان هذا ارتفاع سعر الفائدة المسموح به لليهود بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر - ليس فقط في بولندا - كي يصل أحيانا إلى ١٠٠% سنويا أو حتى أكثر من هذا. في وقت لاحق فقط تم تخفيض سعر الفائدة بشكل كبير. تأثرت طبقة صغار النبلاء والبرجوازيين الصغار المقيمين في المدن بشكل جسيم بعبء الديون. غني عن القول - أنه نتيجة لذلك أصبح اليهود غير محبوبين. في كثير من الأحيان استثمر اليهود أرباحهم - بقدر الإمكان - في جباية الضرائب والرسوم الجمركية ومكوس الطرق وتاجير مناجم الملح والطواحين ومعامل التقطير ومصانع الجعة والحانات والعقارات التي قاموا آنذاك بتأجير جزء منها لأعضاء الأسرة الفقراء. غير أنهم بهذه الطريقة دخلوا في صراع مع الفلاحين.

البنية الاجتماعية والإدارة الذاتية لليهود إلى جانب طبقة عليا صغيرة من التجار الأثرياء، والرأسماليين وأصحاب العقارات، ظهرت

إلى حيز الوجود أيضاً طبقة متوسطة تضم أعداد كبيرة من صغار التجار ومقرضي الأموال والسماسرة والحرفيين وموظفي الحكومة. كانت الطبقة الأدنى تتمتع بتنوع كبير، فقد تراوح أعضاؤها ما بين رحالة وأصحاب المحال الصغيرة ومساعدین بالحال متضمنة سائقي العربات الكارة والحمالين والخدم والباعة الجائلين. كانت الحركة أكبر بين المجتمع اليهودي عن نظيره المسيحي. رغم كل هذا، كانت العوائق التي كانت تقف أمام ارتقاء اليهود للسلم الاجتماعي لينضموا إلى طبقة المواطنين المتمتعين بالحكم الذاتي أو لطبقة النبلاء لا يمكن تجاوزها. بعد حركة مناهضة الإصلاح أصبح من المستحيل تقريباً التغلب على هذا "الفصل العنصري" دون التحول إلى الكاثوليكية. في ليتوانيا كان بإمكان المرتدين عن اليهودية أن ينضموا إلى طبقة النبلاء دون أية إجراءات أخرى، مما مثل إغراء للارتداد عن اليهودية. من حين لآخر كانت تظهر بعض الاستثناءات. على سبيل المثال في عام ١٥٢٥، حصل جابي الضرائب الليتواني ميشيل إيزوففيتش على لقب نبيل دون الحاجة إلى التخلي عن اليهودية. فقط في القرن الثامن عشر، استطاعت طبقة النبلاء الليتوانية أن تعيد توحيد صفوفها.

رغم هذا الحراك الكبير، كانت هناك أيضاً توترات اجتماعية بين اليهود. هناك تقارير تعود إلى فترة منتصف القرن السادس عشر فما بعدها بخصوص الصراعات بين الحرفيين اليهود من جهة واليهود الذين استثمروا أموالهم في تجارة الجلود والأنسجة والملابس وبذلك لم يمثلوا فقط تهديداً لاستقلال الحرفيين بل أيضاً لنمط حياتهم. وجه الحاخامات المحبوبون انتقادات لأذعة للأثرياء لاستغلالهم للفقراء وهاجموا الحاخامات الذين تزلفوا للأثرياء.

في بعض الأحيان، وجد المسيحيون واليهود غير الأعضاء بالنقابات العمالية أنفسهم يقومون بعمل مشترك ضد كبار أعضاء

التقابات. كما قام مواطنو المدن ذات الحكم الذاتي من اليهود والمسيحيين بتبني نفس القضية ضد النبلاء. على سبيل المثال في عام ١٥٨٩ توصل اليهود إلى اتفاق مع السلطات المحلية في منطقة تدعى كاميونكا ستروميلا وهو الأمر الذي يبين أيضا أن التعايش المتناغم كان ممكنا للغاية بين اليهود والمسيحيين. وفقا لهذا الاتفاق، قام القضاة "بالسمّاح لليهود بالتمتع بجميع الحقوق والحريات الكاملة واعتبروهم جميعا مواطنين بمدن تتمتع بالحكم الذاتي." تعهد اليهود بالمشاركة في العمل لصالح المدينة والقيام ببعض نوبات الحراسة وتادية نصيبهم من الواجبات إلى جانب المسيحيين أثناء الفيشوانات وما يماثلها من أحداث. في المقابل، تعهد المسيحيون "بأن نحمي اليهود كجيراننا من اضطهاد وعنف النبلاء والجنود كذلك، وأن نحميهم وألا نسمح بأن يتعرضوا للظلم ... بما أنهم جيراننا."^٥

بيد أنه لم تتأسس تلك المنظمات التي لم تضبطها قوانين صارمة أو ترتيبات حاسمة على يد المسيحيين فقط. منذ صدور الميثاق الأول للامتيازات، حظى اليهود بحق فض خلافاتهم الداخلية وفقا لمبادئهم الخاصة وإدارة شؤونهم بأنفسهم. حتى القرن السادس عشر، تطورت الإدارة الذاتية هذه بطريقة لا مثيل لها في أي مكان آخر بأوروبا. كان لكل جماعة يهودية القهال الخاص بها، وهو جهازها الإداري الذي جمع ما بين السلطة السياسية والدينية في أن واحد. كان يتم اختيار كبار أعضاء القهال من أكثر أفراد الجماعة اليهودية وقارا - وعادة أيضا أكثرهم ثراء. كانت مهمتهم الإشراف على السلام والأمن والنظافة والالتزام بالتعاليم الدينية. لذا كان عليهم الإشراف على الحمامات العامة واستهلاك اللحوم ومراسم الدفن والنظام التعليمي. إضافة إلى ذلك، كانوا يضطلعون بمسؤولية إدارة الأعمال الخيرية. أخيرا وليس آخرا، كان عليهم تحديد نصيب كل

^٥ فوكس وآخرون [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة]

فرد من الضرائب الذي يتعين على الجماعة اليهودية أن تدفعها ثم جباية هذه المبالغ.

أغرت الحاجة إلى ملء خزائن الدولة حكومات الكثير من البلاد مثل رومانيا وبولندا وألمانيا - بأن تسمح بقيام أجهزة للإدارة الذاتية اليهودية. حتى في بواكير الفترة الحديثة حين تزايد التدخل في الحياة اليومية للمواطنين ، شكلت هذه الأجهزة ممثلين أكثر فاعلية لجباية الضرائب عن السلطات الحكومية.

لهذا السبب قرر الملك سيجيسموند الأول "الكبير" (١٤٦٧-١٥٤٨) توسيع نطاق الإدارة الذاتية لليهود ليتجاوز نطاق جماعاتهم. بين عامي ١٥١٨ و ١٥٢٢ قام سيجيسموند الأول بتأسيس أربع "مقاطعات" يهودية بوسعها اختيار رؤسائها وجباة ضرائبها. من أجل حل النزاعات بين اليهود من المقاطعات الفردية ، في عام ١٥٣٠ أمر الملك بتأسيس محكمة مؤقتة للتحكيم مقرها في لوبلن. بعد فرض ضريبة الرؤوس على اليهود في عام ١٥٤٩ ، قام ستيفن باثوري (١٥٣٣-١٥٨٦) الذي كان قد توج ملكا على بولندا قبل هذا بثلاث سنوات بتعيين مجلس نيابي للسكان اليهود في المملكة البولندية الليتوانية كلها. اجتمع هذا المجلس الذي أطلق عليه اسم "مجلس البلاد الأربعة" أو "البرلمان اليهودي" للمرة الأولى في لوبلن عام ١٥٨١. كان من المزمع أن ينعقد هذا المجلس على الأقل مرة سنويا لانتخاب أعضاء من بين صفوفه، "عامة اليهود": كبير المارشالات وكبير الخاخامات وكبير الكتبة وكبير أمناء الخزانة.

أصبح لليهود الآن مؤسسة غير مسبقة تحت إمرتهم. تم السماح بإقامة "برلمانات يهودية" أخرى وأجهزة مشابهة، بيد أنها لم تحقق نفس الأهمية التي تحققت للبرلمان الذي تأسس في الاتحاد البولندي-الليتواني. في عام ١٦٢٣ ، تأسست برلمانات يهودية منفصلة لتسمي

المملكة لتيسير عملية جباية الضرائب. ظلت هذه البرلمانات قائمة حتى عام ١٧٦٤ وتم إحيائها قبيل تدمير الدولة البولندية. لم يقتصر الفاد بأي شكل من الأشكال على تولي أمور الضرائب، رغم أن هذه كانت مهمته الأساسية في عين الدولة. فقد كان ينظم التبرعات الخيرية وقام كذلك بتنظيم عمليات الإيجار وأصدر توصيات خاصة بالنشاط الاقتصادي. علاوة على ذلك، استجاب الفاد كما ذكرنا آنفاً للحقد والآراء المعادية لليهود. على سبيل المثال أصدر الفاد الليتواني أمراً يجبر اليهود ارتداء ملابس متواضعة وحتى في حفلات الزفاف يمنع تقديم الهدايا بشكل واضح. كان يتعين أيضاً خفض عدد الخدم المسيحيين عند اليهود لمواجهة الانتقادات. كان بوسع الفتيات الصغار - اللاتي تعدين الخامسة عشر من عمرهم ولم يتزوجن بعد - الحصول على الدعم لتحسين فرص زواجهن. توزعت مسؤولية رعاية الأيتام - بما في ذلك إطعامهم وكسوتهم - على أفراد الجماعة اليهودية.

كان يتم إرسال الأولاد الذين - برحمة الرب - يتمتعون بموهبة الفهم والذي يجب أن يكون تعليمهم مميزاً إلى المدرسة لغرض درس التوراة. أما هؤلاء الأولاد الذين لا يتمتعون بالقدرة على درس التوراة فكانوا يعينون خدماً أو يتعلمون حرفة. يجب بذل كل الجهد لضمان أنهم لن يكرسوا أنفسهم لحياة الدعة. قدمت نفس هذه الرعاية للاجئين من بلاد أخرى. بعبارة أخرى، شملت قرارات الفاد جميع مناحي الحياة اليهودية. علاوة على ذلك، تفاوض الفاد مع السلطات الحكومية و البرلمانات الإقليمية والبرلمان الحكومي ببولندا. كان يدعمه "المؤيد" أو الشادلان الذي يتعين أن يقيم في مقر البرلمان البولندي (السييم) وأن يمثل مصالح اليهود من خلال جماعات الضغط وتقديم الهدايا. كانت هذه طريقة تقليدية شائعة - غير

^٦ فوكس وآخرون [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة]

قاصرة على بولندا - لحماية الذات ضد الاضطهاد أو فرض المزيد من القيود. إلى جانب فرض الضرائب، كان يتعين ضمان مساهمة اليهود في أعمال الإعمار أو الدفاع المدني. تضمن هذا اتفاقيات لبناء معابد يهودية محصنة. عندما كانت المدن تتعرض لهجمات من أعداء المملكة، غالبا ما كان اليهود يقفون جنبا إلى جنب مع المسيحيين على الأسوار في المعركة المشتركة. منذ بداية القرن السادس عشر اضطر اليهود لتشكيل وحدات الميليشيا الخاصة بهم، رغم أنهم كان يوسعهم الإفلات من هذا الالتزام بسهولة بمجرد دفع مبلغ من المال. فقط بعد عام ١٦٤٨، تعرض اليهود لضغوط أكبر في ها الصدد. فقد جعلت التعاليم الدينية من الخدمة العسكرية المشتركة بين اليهود والمسيحيين صعبة. بيد أن هناك بعض الحالات الفردية التي وردتنا أبناء عنها من القرنين السادس عشر والسابع عشر.

التعلم والثقافة

عملت الظروف المواتية نسبياً لليهود في بولندا على ازدهار المنجزات الثقافية والتعليمية أيضا. وصلت هذه المنجزات إلى أوجها في القرنين السادس عشر والسابع عشر، رغم أن تأثيراتها استمرت لما بعد ذلك. في الصدارة نجد الانشغال بالدين وممارسته. أسهم اختراع الطباعة في الانتشار السريع للثقافة. في عام ١٥٣٤، تم تأسيس أول مكتب طباعة يهودي في كراكو، جاء ذلك بعد تأسيس مكتب طباعة يهودي في براغ بوقت قصير. ثم تم تأسيس المركز الفكري لليهودية. نشرت الكتب باللغة العبرية للقاري المتعلم. في الوقت ذاته نشرت الكثير من الأعمال باللغة اليديشية لتصل إلى عامة اليهود. في ذاك الوقت، كانت اليديشية تختلف قليلاً في أوروبا الشرقية عنها في أوروبا الغربية، لذا كان التبادل يتم مباشرة. كانت من أكثر الأعمال انتشاراً تلك التي تناول الأساطير الدينية

والتفسيرات المبسطة للتلמוד إلى جانب الحكايات وقصص الفرسان الرومانسية. رغم أن اليهوديات لم يكن يتلقين تعليما جيدا على وجه العموم، كان من بين أهم الكتاب في تلك الفترة كاتبة يهودية تدعى ريبكا ابنة الحاخام ماير تيكتنر من تاكوسين (في مقاطعة بيلستوك شمال بولندا). لم تكتب ريبكا فقط أغان دينية بل أيضا كتابا لوعظ السيدات اليهوديات. نشر الكتاب عام ١٦١٨ بعد وفاتها وتمتع بشعبية هائلة. مثلت المؤلفات الحاخامية التي تضمنت دراسة وتفسير التلמוד ذروة التعلم اليهودي. كانت هذه المؤلفات تناقش أسئلة أساسية تتعلق بالفهم الديني غير أن تفسير التلמוד كان ذا صلة بالحياة اليومية.

اشتملت المؤلفات الحاخامية ليهود بولندا على طريقتين متعارضتين للتفسير. لعب حاخام كراكو جيكون بولاك (١٤٦٠-١٥٤١) دورا هاما في تأسيس طريقة البيلبول. تتخذ هذه الطريقة- التي يعني اسمها "الفلفل"- شكل لعبة جدلية بها فرضية وفرضية مضادة وفرضية مؤلفة من الاثنتين وتستخدم لمعالجة المشاكل الجدلية. بطريقة ما، تعبر طريقة البيلبول عن حقيقة أن الدين اليهودي لا يعرف المسلمات- وقد لاقت المحاولات لجعله كذلك الفشل في نهاية الأمر. فالبيلبول نظام مفتوح يميل إلى النقاش والحوار. من خلال هذه الطريقة، يحاول المرء أن يُقدّر المعلمين العظام حق قدرهم وأن يتبع أقوالهم حتى في حالة تعارض هذه الأقوال مع بعضها البعض. في كثير من الحالات كانت هذه الطريقة تستخدم فقط كتدريب يستخدم موضوعات عشوائية أو ما كانت في الواقع مسائل خلافية في الظاهر فقط. في مثل هذه الحالات كان الأمر يعتمد على "سرعة البديهة" وحسب. بطبيعة الحال قد يؤدي هذا بسهولة إلى مجرد الجدل اللفظي. نتيجة لذلك، اعترض الكثير من الحاخامات- مثل حاخام

^٧ أجنون وآخرون [كتاب اليهود البولنديين]

لوبلن سلمون لوريا (١٥١٠ - ١٥٧٣) - على البيلبول وأقروا بدلاً منه طريقة عقلانية تركز بشكل حاسم على موضوع النقاش. رغم ذلك، ظلت طريقة البيلبول هي السائدة لوقت طويل.

جدير بالذكر أنه من بين أعظم معلمي هذه الفترة موسي إيسيرليس (١٥٢٠ - ١٥٧٢)، الذي تزعم الإشيفا (المدارس التلمودية العليا) التي أسسها جيكون بولاك في كراكو وألف الكثير من الأعمال الهامة عن الدين والفلسفة إلى جانب المجالات العلمية للدراسة. جاء كتابه "المابا" (غطاء المائدة) تعليقا على أحد الأعمال الرئيسية في المؤلفات التلمودية وهو "شولحان أروخ" أو "المائدة العامة" وكان له تأثير خاص على معاصريه. "الشولحان أروخ" عمل مرجعي طويل للشريعة اليهودية كتبه حاخام أدرنة ومدينة صفد بالجليل جوزيف كارو (١٤٨٨ - ١٥٧٥)، وقد صاغ موسى إيسيرليس هذا المؤلف بما يتلاءم مع حاجات اليهود في شرق ووسط أوروبا وجعل منه رفيقا يعتمد عليه في جميع الأسئلة الحيوية. في فترة الإصلاح ومناهضة الإصلاح، بدأت تفاسير التلمود تمثل اليهودية بشكل إيجابي مقارنة بالعقيدة المسيحية. جاء هذا نتيجة المناظرات التي سبقت هذا خاصة تلك بين يوم توف ليبمان من ميلهاوزن الذي عاش في كراكو ما بين عامي ١٤٠٠ و ١٤٢٥. وقد نشرت أهم أعماله عام ١٦٤٤. كانت من المؤلفات الشهيرة مناظرات إسحاق تروكاي (١٥٣٣ - ١٥٩٤)، فقد أشار إلى التناقضات فيما بين الكاثوليكية وكيفية تصرف الكاثوليك. أشعل هذا فتيل مناقشات عنيفة استمرت إلى ما بعد وفاته. وقد امتدح الموسوعيون الفرنسيون خاصة فولتر مناقشاته الثاقبة وقد اتخذه الأخير مثالا نموذجيا في مقاله النقدي حول المسيحية.

إن مجرد ظهور هذه المناظرات اليهودية وحدوث الخلافات العلنية بين اليهود والمسيحيين هو مؤشر آخر على جو التسامح الذي تمتع به

اليهود في بولندا . في غرب أوروبا لم يكن هذا ليكون ممكناً في ذاك الوقت . فقط بعد تكثيف حركة مناهضة الإصلاح تغير هذا الوضع .

يمكن العثور على مجموعة من أفكار التنوير المبكرة في المؤلفات الحاخامية . لذا فليس مثيراً للدهشة أن اليهود لعبوا أيضاً دوراً هاماً في العلوم الدينية القائمة على المنطق وسعوا للتوفيق بينها وبين الدين . أفرزت الجماعة اليهودية في بولندا عدداً من الشخصيات الهامة خاصة في علم الرياضيات والميكانيكا والفلك والطب . وصل التأريخ إلى ذروته على يد ناثن هانوفر من زاسلو (توفي ١٦٨٣) . كانت مهمته في كتابه التاريخي "المستقع العميق" الذي نشر في فينيسيا عام ١٦٥٣ أن ينقل إلى الأجيال القادمة معاناة اليهود البولنديين أثناء مذابح القوزاق عام ١٦٤٨ (ارجع للأجزاء التالية)

لم تقتصر المعرفة اليهودية على الطبقة العليا القليلة . منذ القرن السادس عشر فصاعداً، اضطّر اليهود لإرسال أبنائهم الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة والثامنة إلى مدرسة القاهال . هناك كانوا يدرسون العبرية ويقرأون الكتاب المقدس ويتعلمون العمليات الحسابية الأساسية الأربعة ومبادئ الأخلاق . في المدرسة الثانوية التي كان يلتحق بها الأولاد ما بين الثامنة والثالثة عشرة من عمرهم كانوا يدرسون التلمود وتفسيراته . كان أساس العملية التعليمية الاستظهار . لم يسمح للفتيات الالتحاق بهذه المدارس، بل كانوا يتلقون تعليمهم بالمنزل وفي الأسر الثرية كن يحظين بمساعدة مدرس خاص . كان أهم شيء بالنسبة للفتيات الاستعداد لواجباتهم المنزلية التي سيقومون بها في المستقبل لا الدراسة . بالنسبة للرجال، غالباً ما كانت الدراسة تجلب المكانة الاجتماعية . كان الهدف الأسمى لكل أب يهودي تزويج ابنته من شاب متعلم - مهما كان الشاب فقيراً . نظر الكثير من الشباب إلى التعليم ودراسة التلمود كهدف حياة . من ثم،

كان ينبغي أن يعثر هؤلاء الشباب على عائل بطريقة ما بين أسرهم أو المجتمع. كانت هذه الدراسة تتم في اليشيفوت (جمع يشيفا) وهي المدارس التلمودية العليا. هنا كان يجلس الشباب طوال النهار في تجمعات طلابية ينشدون فقرات من التلمود متأرجحين للأمام وللخلف كي يساعدهم هذا على التركيز. كانوا عادة ما يناقشون الفقرات الصعبة في مجموعات باستخدام طريقة البيلبول. كان المستوى التعليمي لليهود بولندا أعلى في القرن السادس عشر عنه في القرن الثامن عشر. كانت هناك يشيفا في كل المدن الكبيرة وكانت اليشيفوت البولندية تحظى بعميق الاحترام في جميع أرجاء العالم اليهودي. كتب ناثان هانوفر يقول:

لم يكن هناك في أي مكان بين بني إسرائيل المتفرقين تعلمًا بالقدر الذي وجد ببولندا. كانت توجد يشيفا في كل جماعة يهودية وكان عميد هذه اليشيفا دائما ما يلقي مقابلاً جيداً كي يعمل دون هموم ويجعل من التدريس وظيفة له. ... كانت كل جماعة تعول الشباب وتمنحهم مصروفاً أسبوعياً كي يستطيعوا الدراسة مع الحاخامات باليشيفا.^٨ مع بداية الحروب والدمار منذ منتصف القرن السابع عشر، تغير الموقف بشكل جذري. قبل هذا، أرسل القليل من أثرياء اليهود أبناءهم إلى المدارس العلمانية بدلاً من مدارس القهال. رغم التمسك الصارم بالدين، كانت ثقافة اليهود في بولندا لا تزال غير منفصلة بالكامل عن الثقافة المحيطة. تقابل اليهود بالمسيحيين واحتفلوا معهم وارتدوا ملابس كملاسلهم. نادراً ما تم الالتزام بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية المتعلقة بالملابس لوقت طويل. يمكننا أن نفترض أن الرداء اليهودي التقليدي المميز تطور تدريجياً منذ القرن السادس عشر بما فيه القفطان والطاقيّة السوداء مضاف إليهما اللحية الطويلة والسوالف. كان تصميم مساكن اليهود يشبه منازل المسيحيين

^٨ فوكس وآخرون، [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة]

باستثناء بعض الخصائص المميزة المتعلقة بالدين كما كانوا يتميزون بالشعائر الدينية المختلفة والأعياد المختلفة. لم يكن هناك بعد فصل كامل لليهود في شرق وغرب أوروبا.

تظهر الثقافة المادية بشكل أساسي في بناء المعابد اليهودية وتصميم المصنوعات المقدسة. كان التزيين باستخدام صور الحيوانات والنباتات يحظى بأهمية خاصة، حيث أن تصوير البشر محرم في الديانة اليهودية. يعد أقدم أثر للعمارة اليهودية في بولندا المعبد القديم في مدينة كاسيميرز، إحدى ضواحي كراكو. تم بناء هذا المعبد بحلول نهاية القرن الرابع عشر على نسق بعض المعابد في وورمز وريجينسبرج وبراغ، وتم ترميمه عام ١٥٧٠. في المناطق الشرقية بالاتحاد البولندي-الليتواني، كانت تبني معابد في ضخامة القلاع. كما انتشرت أيضاً، رغم أنها سادت فقط منذ القرن الثامن عشر- المعابد الخشبية التي تحتوي على جداريات رائعة. وصلت النقوش على أبواب المعابد وشواهد القبور إلى مستوى عال من البراعة الفنية. هنا، كما هو الحال في عدد كبير من الحرف الفنية، يمكن تمييز وجود علاقة وثيقة بين الفن اليهودي والفن غير اليهودي في بولندا وفي وسط وغرب أوروبا.

اليهود كوسطاء بين القرى والمدن

بحلول القرن السابع عشر، نجح اليهود في الحصول على وضع متميز في بولندا لا فقط من حيث الثقافة وإنما على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي. لقد اضطلعوا بدور الوسيط بين الريف والمدينة. من المؤكد أن هذه المهمة كانت من نصيب اليهود بالبلاد الأخرى: لقد كانت "الخاصية أو الصفة المميزة لليهود في التاريخ الأوروبي".^٩

^٩ جورج هينسيل [أمة بولندية من النبلاء والوسطاء اليهود ١٨١٥-١٨٣٠. حول المحاولة الفاشلة لتحرير اليهود في مجتمع غير متحرر] ، تاريخ شرق أوروبا المهجور ٣٢ (١٩٨٣) ، من ص. ٧-٢٢٧

أن اليهود في بولندا مارسوا احتكاراً فعلياً وقد أكدت المظاهر الملموسة لذلك الإحتكار على الطبيعة الاستثنائية لهذا الوضع. كما ذكرنا آنفاً، غالباً ما قام اليهود الأثرياء باستثمار أرباحهم في العقارات المؤجرة التي كانوا يؤجرونها من الباطن للفقراء من أفراد أسرهم؛ تلك الأرباح التي جنوها من جباية الضرائب والرسوم الجمركية ومكوس الطريق وإدارة الطواحين ومعامل تقطير الشراب ومصانع الجعة والحانات وحتى العقارات. لقد دخل اليهود في ضرب من ضروب التعايش الحقيقي مع الطبقة العليا للنبلاء التي كانت من حيث الوظيفة الاقتصادية على علاقة وثيقة ببقية أفراد المجتمع لدرجة أنهم كانوا يحمون اليهود من أعدائهم. في وقت لاحق كانت تتردد عبارة: "جدي لامي الذي لم يعد "يملك قطعة أرض" دائماً ما كان يقول "لا يمكنك أن تكون نبيلاً بولندياً بحق دون امتلاك يهودي!" من جهة أخرى، جدي لأبي الذي لآزال "يمتلك قطعة من الأرض" كان يرى أن "المرء يصبح أكثر نبلاً إن كان يملك كلاً من قطعة أرض ويهودي!"^{١٠} بوصفهم مستأجرين أو مديرين لأُملاك النبلاء، دخل اليهود في اتصال مباشر مع الفلاحين، على سبيل المثال في إدارة الطواحين وفوق كل هذا في إدارة الحانات. وحيث أنهم كانوا في ذات الوقت على صلة بالتجار اليهود، سريعا ما نظموا نشاطا اقتصاديا ككل واحد. كمديرين ومستأجرين، أعطى اليهود تعليمات بخصوص إدارة الضياع ومنتجاتها. كأصحاب حانات، كانوا يبيعون منتجات الضياع - لا فقط المشروبات الروحية - للفلاحين أو كانوا يوفرون "مركزاً تجارياً" للكثير من المفاوضات التجارية. كان الباعة الجائلون والبقالون يوفرون احتياجات الفلاحين من السلع من المدن غير أنهم كانوا يبيعونهم أيضا منتجاتهم. غالباً ما حاز اليهود من أصحاب الحانات وصغار التجار ثقة الفلاحين ثم عاونوهم في تدبير شئونهم

^{١٠} ميشال ستيرزيمسكي، [الحوار غير المنته، مذكرات] (لايبزج، ١٩٨٥)

ولم يقتصروا على الأمور التجارية فقط. كقاعدة، كان التجار اليهود هم من يشترون الفائض من منتجات أراضي النبلاء ويبيعونها في المدن. في الاتجاه الآخر، كانوا يجلبون البضائع من المدن والتي غالبا ما يحصلون عليها من حرفيين يهود بالمدن.

بهذه الطريقة، صار هناك نظام تدوير اقتصادي قائم بين الريف والمدينة داخل الجماعة اليهودية وبصفة عامة داخل المجتمع البولندي- كان اليهود يربطون الفلاحين والنبلاء وأهالي المدن ببعضهم البعض. لم تخل هذه المنزلة المحورية لليهود على وجه اليقين من الصراعات. فبعيدا عن هجمات الكنيسة الكاثوليكية، كانت العلاقات بين النبلاء الصغار الغارقين في الديون والمواطنين المسيحيين المنافسين من جهة والفلاحين من جهة أخرى غاية في التعقيد. حتى حين كان الفلاحون يضعون ثقتهم باليهود واثمنوهم على تدير شؤونهم، تصادم نطان للحياة. حدد "الاقتصاد الأخلاقي" (ل. ب. طومسون) للفلاحين أفكار معينة عن "الشرف" والإنتاج ورثوها عن أسلافهم. في الصدارة، جاءت الحاجة إلى تأمين الضروريات اليومية والرزق اليومي بدلا من التوجه نحو جني الربح. بيد أن دافع الربح كان يميز النشاط الاقتصادي لليهود. لأن اليهود كانوا منخرطين بشكل كبير في المعاملات المالية، كانوا يعتبرون "شرفين للمال" أو بصفة عامة جشعين. بوصفهم "رواد" أو حتى "مستعمري التقدم"، دخل اليهود عالم الفلاحين كغرباء عنه. علاوة على ذلك، حين كان اليهود يحبون الضرائب أو يقدمون مشروب الشنابص، كان ينظر إليهم كأدوات للسيد الإقطاعي. بهذه الطريقة انخرط اليهود في الصراعات الاجتماعية التي نشبت بين الفلاحين والسادة الإقطاعيين. حين أجب القساوسة الكاثوليك لهيب الصراع الديني وشهروا بالهانات اليهودية كملجأ للشيطان أو حتى تمسكوا باتهام اليهود بجرائم الدم- وهي المزاعم التي حققت الهدف المرجو منها لأن الشعائر الدينية اليهودية

بدأت سرية لغير اليهود - غير أن العلاقات الجيدة بين الفلاحين واليهود على الأصعدة الأخرى تحولت بسرعة إلى عدااء وعنف. نتيجة لذلك، ورطت وظيفة الوسيط في الوقت ذاته اليهود في هذه الصراعات الاجتماعية.

عصر ذهبي لليهود في بولندا؟

في الجمل، شكل اليهود في بولندا مجتمعاً مزدهراً. كتب موسى إيسيريلس يقول: "من الأفضل كسرة من الخبز الجاف في سلام، كما هو الحال في تلك المناطق [حول كراكوف] التي لا تنزل فيها علينا كراهيتهم كما تنزل في الأراضي الألمانية." ^{١١} في رأي ناثان هانوفر: "الأمر المعروف عامة لا يحتاج إلى دليل: لم يكن هناك أبداً كل هذا القدر من التوراة في جميع أراضي الدياسبورا كما كان في بولندا." ^{١٢} غالباً ما كان يقال مقارنة ببلدان أخرى وبفترات زمنية لاحقة أن اليهود عاشوا في "عصر ذهبي". ترجع أصول المثل الجاري الذي يقول: "جمهورية بولندا جحيم الفلاحين ومطهر أهالي المدن وجنة النبلاء وفردوس اليهود." ^{١٣} إلى القرن السادس عشر. من الأمثلة التي توضح المكانة التي حازها اليهود قصة الحاخام سول (شول) وآل (حوالي ١٥٤٥-١٦١٧) وهو جابي للرسوم الجمركية والضرائب أصبح مستشاراً للشخصيات الهامة في المملكة. طبقاً لإحدى الأساطير الشائعة، في عام ١٥٨٧ حين تم انتخاب ملكين في نفس الوقت بناخين مختلفين - ألحق سيجموند الثالث في النهاية الهزيمة بماكسميليان النمسا مرشح أسرة هابسبرج الحاكمة - وقد أصبح

^{١١} نيتزر، "هجرات"، ص. ٤٤

^{١٢} المرجع السابق، ص. ٤٧

^{١٣} جورج ك. هوينش [البنية الاجتماعية والإصلاح السياسي، بولندا في عهد ما قبل الثورات (كولونيا- فيينا، ١٩٧٣)، ص. ١٨٠. في وقت متأخر عام ١٩٢٤ استمع ألفريد دوبلين إلى الرواية التالية من الكلمات التالية: "بولندا، جنة النبلاء، فردوس اليهود وجحيم الفلاحين." (رحلة في بولندا)، [ميونيخ ١٩٨٧، ص. ٧٣]. من المؤكد أن هذه الكلمات تعبر عن موقف مناهض لليهود ولكن يمكن فهمها على أنها تبين الوضع المواتي نسبياً لليهود.

شول ملكاً لليلة كاملة.^{١٤} رغم أن هذا الفردوس كان مترعاً بالبؤس في الغالب، ظلت بولندا مصدر جذب عظيم لليهود، وهي الحقيقة التي تظهر جلياً في تزايد عدد السكان من اليهود. في عام ١٥٠٠، كان يوجد حوالي ١٨٠.٠٠٠ يهودي في بولندا و ٦٠.٠٠٠ في ليتوانيا - وهو ما يوازي أقل من واحد بالمئة من إجمالي عدد السكان، بينما في عام ١٦٤٨، ارتفع هذا العدد ليصل إلى ٥٠٠.٠٠٠ يهودي وهو ما يوازي ٥٥% من إجمالي عدد السكان. توافد معظم المهاجرين إلى بولندا من الإمبراطورية الألمانية. في الوقت ذاته، استقر بعض اليهود السفاردة في زاموسك في الجنوب الشرقي للوبلن. عاش حوالي ربع أو خمس اليهود في القرى بينما أقام معظمهم بالمدن. في هذا الصدد، برزت روسيا الحمراء حيث عاشت نسبة تتراوح بين ٣٠ إلى ٤٠% من سكانها اليهود في المدن، وتليها بولندا الصغرى بنسبة تتراوح ما بين ١٠ إلى ١٥% وبولندا العظمى بنسبة ١٠%. في مازوفيا، رغم الحظر واسع النطاق، كان ١٠% من السكان اليهود يعيشون بالحضر. في هذا الوقت، كانت الأنشطة الاقتصادية لليهود أيضاً قد وصلت إلى ذروتها. في اتحاد لوبلن في عام ١٥٦٩، أعيد توزيع أراضي المملكة المختلفة بين بولندا وليتوانيا. أصبحت روسيا البيضاء بالجنوب وأوكرانيا وبودليسيا وفولينيا وبودوليا تابعة للأراضي البولندية. بدأ أقطاب السكان على الفور في استعمار هذه المناطق التي كانت نامية من الناحية الاقتصادية والسياسية. من أجل هذا ظهرت الحاجة إلى اليهود إما كأصحاب رؤوس أموال أو كمستأجرين أو مستأجرين من الباطن. على وجه الدقة، كانت الأرندة - التاجير - صفة مميزة هنا. بدأت هجرة واسعة النطاق لليهود نحو الشرق. في عدد من المدن شكل اليهود غالبية السكان. أجبر السكان الفلاحين الموجودون بالفعل على أن يصبحوا جزءاً من

^{١٤} أجنون، وآخرون، [كتاب اليهود البولنديين]، ص. ٢١ - ٣١.

النظام الإقطاعي البولندي. وهو العملية التي انخرط فيها اليهود بوصفهم "أدوات الجور الإقطاعي".^{١٥} في أوكرانيا انخرط اليهود في صراع أكثر صراحة من الصراعات الدائرة في المناطق الغربية لأن المشاكل الاجتماعية كانت قد عقدتها المشاكل الدينية والقومية. وقع اليهود في حبال الصراعات القائمة بين الفلاحين والسادة الإقطاعيين من ناحية، وبين الكاثوليك والأرثوذكس والكاثوليك الشرقيين من جهة وبين البولنديين والأوكرانيين من ناحية ثالثة. يبدو أنهم كانوا على دراية كاملة بوضعهم الخطير. تحدثت الكثير من المصادر عن أسلحتهم أو عن معابدهم المحصنة ثم حلت الكارثة العظمى.

^{١٥} هيرمان جرابي [اليهود، لمحات من تاريخهم في أوروبا العصور الوسطى وأوروبا العصر الحديث] (درامشبات، ١٩٨٠)، ص. ١٢٤

الجزء الثاني

اليهود في شرق أوروبا
"نسق ثقافي للحياة"

كارثة عام ١٦٤٨

في أبريل من عام ١٦٤٨، تدفقت أعداد هائلة من أبناء قبائل القوزاق من المناطق السفلى لنهر دنيبر إلى أوكرانيا، وقامت بالهجوم على بولندا من ناحية الشرق، وأبادت الجيش البولندي القابع هناك آنذاك. شجع هذا النصر الفلاحين الأوكرانيين على التمرد والانضمام إلى صفوف القوزاق. بدورهم، قام تار القرم، الخاضعون للأتراك العثمانيين الذين كانوا في صراع طويل مع البولنديين، بمساندة المتمردين أيضا. في حملات اتسمت بقسوة منقطعة النظير امتدت لسنين طوال، لم تخللها سوى فترات هدنة قصيرة ولم يستطع أي من الطرفين إحراز النصر، قام القوزاق وحلفاؤهم بنهب أجزاء كبيرة مما كان يطلق عليه آنذاك بولندا وليتوانيا: إذ تم الاستيلاء على أوكرانيا وروسيا البيضاء وفولينيا وبودوليا ومناطق بجاليشيا الحمراء وكييف ومينسك وبرست ليتوفسك. تقدمت الجيوش حتى وصلت إلى لفيف. مع تقدم الجيوش ارتكبت مذابح بشعة ضد البولنديين والسكان اليهود على وجه الخصوص في المدن التي تم الاستيلاء عليها. تتراوح التقديرات لعدد اليهود الذين فقدوا حياتهم من عشرات الآلاف إلى ما يربو على ١٠٠.٠٠٠ شخص.

في ذلك الوقت، تعرض اليهود في مملكة بولندا لصنوف من الاضطهاد / وصور من العنف لم ير لها مثيلا إلى وقتنا هذا، وظلت المعاناة والصدمة لصيقتين بالناجين منهم لمدة طويلة. لقد جاءت هذه المذبحة الدموية كنتيجة طبيعية لصراعات طويلة متراكمة. تشير الاحتمالات إلى أن القوزاق - البدو الفرسان الحاربين المنحدرين من أعراق مختلطة - ربما كانوا قد استقروا منذ القرن الخامس عشر في مناطق مختلفة بروسيا الجنوبية والتي لم يكونوا قد أحكموا السيطرة عليها بشكل كامل حينئذ. في القرن السادس عشر، أجبروا على

الخضوع للشعوب السلافية واعتبروا أنفسهم من الروس الأرثوذكس فيما يتعلق بشؤون الدين. انتهى الأمر بالفلاحين الروس ("الهاربين") الذين كانوا يفرون من التقيد بالأرض المقطعة إياهم في إمارة موسكو وهو أحد شروط العبودية - إلى الانضمام لصفوفهم. قام القوزاق بتأسيس الكثير من المستوطنات التي لا يمكن الوصول إليها بسهولة في المستنقعات والغابات الواقعة على ضفاف الأنهار الكبرى. كان الرجال القادرون على حمل السلاح يختارون قائدا لهم يسمى إيمان وكانت تتخذ القرارات فيما يتعلق بجميع الأمور الهامة في تجمعات عامة. في القرنين السابع عشر والثامن عشر شكل القوزاق نواة الثورات العظمى المناهضة للعبودية أو التوسع في نفوذ الدولة.

من هذا المنطلق، كان القوزاق على نهر دنيبر أو القوزاق الزابروجيان - كانت أراضي "عبر النهر" في منحني نهر دنيبر قبل مصبه في البحر الأسود تسمى "زابروجيا" - يدافعون عن أنفسهم أمام محاولات الأقطاب البولنديين استعمار أوكرانيا، فلا هم ولا الفلاحون الفارون تمكنوا أن يصبحوا خدما للسادة البولنديين وربما كانوا يجبرون أيضا على اعتناق الكاثوليكية رغبا عنهم. في هذا الوقت تم التوصل إلى اتفاق يقول: إن من يزرع أراضي إستييس (السهب) يجب أن يدرج في السجلات وبالتالي يعد حرا (ويعفى أيضا من الضرائب). رغم ذلك، حاول البولنديون إبقاء أعداد القوزاق المسجلين منخفضة والحفاظ على ولاء القوزاق لبولندا كي يثبتوا بذور الفرقة بين الأطراف المتنازعة. إضافة إلى ذلك، لم يرد أحد أن يخسر الخدمات التي يقدمها القوزاق في الحروب ضد روسيا أو تركيا أو خانات تار القرم. من وقت لآخر كان الغضب من جراء العدد المنخفض للغاية "للقوزاق المسجلين" يثير القلاقل والثورات، وقد لعبت هذه المشكلة أيضا دورا فاعلا في تحريك أحداث عام ١٦٤٨. فقد كان للقوزاق قائد (إيمان) قدير هو بودان شميلنكي

(من حوالي ١٥٩٥-١٦٥٧) الذي ضحى بحياته الآمنة كقطاعي - ربما لأسباب شخصية- وتزعم الثورة. وقد قيل إن شميلنكي عين يهوديا في أملاكه ليدير مشروعا يملكه لإنتاج مشروب الشنبص وبالتالي يمكنه من زيادة عائداته/ إيراداته. بيد أن هذه الحقيقة لم تمنع شميلنكي من إطلاق العنان للكرهية التي شعر بها الكثير من الفلاحين والقوزاق تجاه اليهود: فقد عانوا الكثير على أيدي اليهود الذين كانوا أدوات تخدم طبقة النبلاء البولنديين كجباة للضرائب أو تجار أو مديري أملاك أو مستأجرين أو أصحاب حانات. كان ينظر إلى اليهود باعتبارهم أتباع كل الشرور. نتيجة لتلك النظرة، التي دعمها استخدام الدين في إثارة غضب العامة ضدهم، فقد صب الشعور العام بالمرارة جام غضبه عليهم. بطبيعة الحال، تلقى الكثيرون وعودا بنصيب في الغنيمة.

في عام ١٦٥٤ أعلن القوزاق ولاءهم لأليكسيس، قيصر روسيا في بوريسلاف (ما يطلق عليه اتفاقية بوريسلاف)، وخضعوا للأنوقراطية الروسية (حكم الفرد الواحد). وقد كان شميلنكي يأمل، من خلال الثورة ومناوراته الدبلوماسية بين القوى المنخرطة في الصراع، أن يحصل في النهاية على جمهورية مستقلة للقوزاق يربطها اتحاد فيدرالي بروسيا وتتحد من خلال روابط شخصية مع القيصر كالحاكم الأعلى للبلاد. بيد أن الأمر الوحيد الذي تمخض عنه كل ذلك هو خطاب الرافة الذي أعاد التأكيد بشكل كبير على الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها القوزاق سابقا تحت إمرة الملك البولندي كما على وجود أعداد كبيرة من "القوزاق المسجلين". لكن هذا الخطاب لم يمنح القوزاق الاستقلال فيما يتعلق بالشؤون الخارجية وجعل انتخاب الإتمان أو القائد متوقفا على موافقة القيصر عليه. لقد أصبحت خطوة ضم القوزاق إلى الدولة الروسية وإخضاع الفلاحين لعبودية الإقطاع الاستيطاني مسألة وقت فحسب.

لم يكتب عام ١٦٥٤ على الإطلاق كلمة النهاية للحروب الدائرة -
ومعها معاناة قاطني جميع المناطق المحترقة باتون الحرب. استغل
القيصر هذه الفرصة للتحرك ضد بولندا بمعاونة القوزاق. في عام
١٦٥٥ أصبحت السويد أيضا طرفا في هذا النزاع: استمرت السويد
طرفا في هذا الصراع حتى عام ١٦٦٠. منذ عام ١٦٥٩ قامت
مواجهات مسلحة ضد "القوزاق المرتدين" الذين لم تكن لديهم النية
للخنوع للسلطة القيصريّة. في عام ١٦٦٧ وافقت كل من روسيا
وبولندا أخيرا الاتفاق على هدنة كان من نتائجها تقسيم أوكرانيا
بطول نهر دنيبر. بهذه الهدنة وضعت "حروب الإغراق الدموي"
أوزارها. ^{١٦} بيد أنها استمرت في واقع الأمر في صورة صراعات
متعاقبة على السيادة في أوروبا الشرقية، وقد بلغت هذ الصراعات
ذروتها في حرب الشمال أثناء حكم بطرس الأعظم والتي انتهت
بتقسيم بولندا في نهاية القرن الثامن عشر.

تمثل ثورة عام ١٦٤٨ بداية التدهور العسكري والسياسي
"لجمهورية (بولندية) من النبلاء يحكمها ملك" (إنجلز). في الوقت
ذاته، أصبحت المنطقة التي كانت تتسم بأعلى كثافة سكانية لليهود
ساحة للحرب لما يزيد على قرن من الزمان. وهنا تكررت أحداث
عام ١٦٤٨ مرة أخرى مرارا وتكرارا: حيث انصبت انعكاسات
الصراعات الاجتماعية والعقائدية على اليهود، وقد بلغت الأمور
ذرى جديدة مع اندلاع ثورة الهايدماك - "غير النظاميين" - في عام
١٧٦٨ حين ثار الفلاحون الأوكرانيون الأرثوذكس ضد طبقة النبلاء
البولنديين الكاثوليك ووسطائهم من اليهود في خضم الصراع
البولندي-الروسي. مرة أخرى، فقد الكثير من اليهود حياتهم.

^{١٦} جورج ك. هونيش، [تاريخ بولندا] (شتوتجارت، ١٩٨٣)، ص. ١٤٨ و ١٥٠ (بعد
هنريك زينكفيتش الذي كان أول من استخدم مصطلح "فيضان" على الحرب ضد السويد
عام ١٦٥٦)

على الجانب الآخر، انتهت فترة التسامح الديني والفكري النسبي الذي كان يتمتع به اليهود . فتلک الأحداث البشعة تسببت في تأجيج لهيب المشاعر الدينية المتعصبة . ظهر هذا جلياً، على سبيل المثال، فيما حدث بعد النجاح في الدفاع عن دير أخوية القديس بول في تشيتوشوا في وجه القوات السويدية، الأمر الذي عد معجزة، حيث أعلن ملك بولندا جون كاسيمير الثاني أن السيدة مريم العذراء هي ملكة بولندا (في عام ١٦٥٦) . في ظل هذا المناخ، وجد الناس صعوبة كبيرة في التسامح مع من يخالفونهم في العقيدة، فهاجمت الكنيسة الكاثوليكية اليهود بضراوة أكبر وألقت عليهم باللائمة فيما يتعلق بالكثير من الأحداث التي تعذر فهمها والتي زخرت بها تلك الأوقات المضطربة . في هذا الصدد، كان من أبرز الظواهر اليسوعيون ومحاكم التفتيش الدومينيكانية، وهناك الكثير من الروايات التي تشير إلى توجيه اتهامات إلى اليهود بقتل الأطفال واستخدام الدماء البشرية في الطقوس الدينية وانتهاك حرمة خبز القربان المقدس .

تبعات الكارثة

كان على اليهود الذين نجوا في بولندا أن يتكيفوا بطريقة ما مع صدمة الاضطهاد . علاوة على ذلك، كان على هؤلاء اليهود أن يدركوا أنه بينما وقف إلى جانبهم جزء واحد من بولندا - حيث دافع عنهم أو حارب إلى جوارهم - فإن جزءاً آخر منها قد تحلى عنهم بل وضحي بهم . لقد كانت هجمات الكنيسة الكاثوليكية تكسب تعاطف المؤمنين المسيحيين بشكل متزايد . كيف ينبغي أن يتصرف اليهود حيال ذلك ؟ فقد أصاب الوهن المؤسسات السابقة وقطفت زهرة المعرفة . تم تدمير عدد هائل من المدارس والكلليات على يد المتمردين وكذلك الكثير من مجموعات الكتب الهامة . رغم الجهود العظيمة المبذولة، لم يكن من الممكن إعادة تأسيس النظام التعليمي بنفس المستوى الرفيع الذي كان قد تمتع به من قبل . امتدت

الآثار السيئة أيضاً إلى القهال رغم أنه للوهلة الأولى على الأقل بدا وكأنه كان قادراً على إعادة تنظيم الجماعات اليهودية. في هذا الصدد تصادفنا ظاهرة مثيرة للدهشة إذ أن الكثير من النبلاء وحتى القساوسة ائتمنوا منظمات الجماعة اليهودية على أموالهم على أثر اختفاء الكثير من المؤسسات الائتمانية والمصرفية أثناء الاضطرابات. أحياناً كان يصير القهال "مصرفاً" وبذلك تم استغلال دور الوسيط الذي اضطلع به اليهود ولكن بشكل جديد. حيث أن مجالس القهال كانت تعتمد بشكل متزايد على تمويل أنفسهم من خلال القيام بالأعمال المصرفية، فغالبا ما أصبحوا عالة على مودعيهم. تصدرت الحاجة إلى تحقيق الأرباح قائمة أولوياتهم وأعطت الأفضلية لهؤلاء الذين يقومون بالعمليات المالية. ظهرت أوليغاركية القهال إلى الوجود الأمر الذي لم يعد يسمح للجماعة اليهودية بالكامل، وللأعداد المتزايدة من فقراء اليهود، أن يشاركوهم في هذا الرخاء كما كان الحال في السابق. كانت الأوليغاركية الجديدة تعرف حتى كيفية الاستغلال الأمثل لتخصيص أموال الضرائب والرسوم المفروضة. تدهور القهال ليصبح "أداة للاستغلال اليهودي الداخلي". أسهم في هذا التطور حقيقة أن أجهزة الإدارة الذاتية، خاصة البرلمان اليهودي، كانت قد فقدت أهميتها في كل من بولندا وليتوانيا. في خضم الاضطرابات والحروب، أصبح الملك والنبلاء وحتى البرلمان البولندي نفسه يولون اهتماماً يقل يوماً بعد يوم بالفاد الذي نادراً ما كان يستشار الآن في معظم عمليات اتخاذ القرار. في عام ١٧٦٤ تم حل الفاد بصورة رسمية. فقط خلال المرحلة الأخيرة من الدولة البولندية، في عام ١٧٨٨، سيعود الفاد ليلعب دوراً مرة أخرى ولو كان لوقت قصير وحسب.

لم تعد الأمور إلى سابق عهدها أيضاً على أي من الصعيدين الاقتصادي أو الاجتماعي. فظاهرياً، مر اليهود في بولندا بفترة "

تماسك" سريع ففي عام ١٧٦٤ كان هناك ٧٥٠.٠٠٠ يهودي في مملكة بولندا- وهو ما يوازي حوالي ٧% من إجمالي السكان. أما الخسائر في الأرواح الناجمة عن الاضطرابات فقد "عوضتها" النسبة العالية للمواليد من جهة واللجوء إلى الهجرة من جهة أخرى. مما يزيد الأمر دهشة أن بعض اليهود الناجين رحلوا عن أوطانهم وفروا حتى إلى الغرب. لقد نشأت الكثير من "القرى اليهودية" في ألمانيا خلال هذه العملية أو على الأقل ازداد سكانها من اليهود زيادة ملحوظة. بدأت هجرة اليهود من الغرب إلى الشرق تأخذ اتجاهها مغايرا. في ذلك الوقت استقر المزيد من اليهود -الثلث- في الريف وهو أكثر من عدد اليهود الذين استقروا بالريف في النصف الأول من القرن السابع عشر. فقد وجدوا أماكن شاغرة/ وظائف في أراضي النبلاء تلك التي امتدت إليها شرور الحروب. أكثر من أي وقت مضى، كان النبلاء حينذاك يستعملون اليهود كمستأجرين أو إداريين. بيد أنه حتى في المدن، ناهيك عن "المدن الخاصة" بطبقة النبلاء، لعب اليهود مرة أخرى دورا اقتصاديا هاما. بدأ التعايش في إطار دور اليهود كوسطاء وكأنه يؤكد نفسه بل ويصبح أعمق من ذي قبل. زيوسيتش بلدة قديمة سكنها اليهود منذ بداية الهجرة، وفي عام ١٦٤٨ حين حل الدمار بالبلدة أحرق المعبد اليهودي تماما وقتل كل من كان بالمدينة. وقد أمر الأمير بوتوزكي بإعادة بناء المعبد كما أعاد اليهود وأعفاهم من الضرائب والرسوم وغيرها من الالتزامات المالية لمدة ١٢ عاما نظير صيانة أملاك السيد الإقطاعي. منذ ذلك الحين، دفع كل يهودي له مبلغا سنويا قدره زلوتي واحد عن منزله ونصف زلوتي عن كل مدخنة. وقد أنيط بأحد اليهود مسؤولية المنازل بصفته "مقيم" عليه أن يقرر معنى "المنزل" لأغراض فرض الضرائب. لم يكن القصابون اليهود مضطرين لذبح أي من خنازيرهم إلا كل أسبوع، في اليوم الذي يسبق يوم السبت (يوم الجمعة)، وكانوا

يحضرون لسلطات الأمراء سلة من الدهن، ولمثلي المندوب الملكي
صحنا كبيرا من اللحم. اشترى الناس المنازل، وقاموا بتنقية الملح
وتخمير الجعة وصناعة النبيذ وقاموا بالتجارة بأسلوبهم ولم يخضعوا
للسلطان القضائي المدينة بل للقضاة في محكمة الأمير. كان
الحاخامات وممثلو المجتمع يعينون وفقا للتقاليد والتشريع اليهودي.^{١٧}

مثلا حدث عند إعادة تنظيم القهال، القليلون فقط استطاعوا
حقا التعافي من الكارثة على الصعيد الاقتصادي. فحتى حين كان
ينجح اليهود في تولي منصب ذي نفوذ في مجال التجارة المحلية، كانت
التجارة في معظم الأحيان تتم في نطاق ضيق. مقارنة بمجال الأمور
من قبل، أصبح هناك عدد أقل من اليهود يتمتعون برأس مال كاف،
واتسعت الهوة بين الفقراء والأغنياء اتساعا كبيرا.

لم تترك كل هذه التغيرات أسلوب حياة اليهود دون أن تمت يدها
إليها. فإضافة إلى الصدمة التي خلفتها المذابح والعداء المتنامي من
المحيطين، تولد شعور بالشك لأن العالم كما هو الآن كان مختلفا تماما
عما كان عليه من قبل. بلغت الصراعات الاجتماعية الداخلية
ذروتها وفقدت المؤسسات المخضمة سلطتها. حتى ردود
الحاخامات، خاصة تفسير التلمود باستخدام "البيلبول" القائم على
الجدل اللفظي، لم تعد في أحيان كثيرة مرضية حيث سعى الناس
وراء معنى الأحداث ووراء استجابة مناسبة في وجه الأوضاع
الجديدة غير المألوفة. وقد بدأ الكثيرون في البحث عن طرق
جديدة. القابالاه (مدرسة فكرية لدراسة المنحى الصوفي لليهودية)
لقد قدمت المعرفة الخاصة بالقابالاه التي كانت ذاتة للغاية في بولندا
عونا كبيرا في البحث عن إجابات للظروف التي انتشرت في ذلك
الوقت. لقد ازدهرت هذه المعرفة بفعل التقاليد التي ضمت سطورا

^{١٧} شموئيل جوزيف أغنون، [قصة بسيطة] (فرانكفورت، ١٩٨٧)،
ص. ١٦٦ بالكامل.

متباينة من ألمانيا، وإسبانيا وفلسطين. كان للقبالة (كلمة العبرية تعني التقاليد) تأثير كبير على اليهودية لوقت طويل ولا يمكن على الإطلاق كما هو الحال عادة أن توصف بأنها مجرد حركة صوفية محضة. ففي ظل علاقتها الصارمة بالدين والشرائع الدينية وفي خصوصية القبالة كضرب من ضروب الفلسفة، يمكن إدراك العناصر العقلانية المحضة التي ترتبط بتأثيرات الصوفية.

وضع الإطار التنظيمي للقبالة للمرة الأولى في العصور الوسطى، وكانت أهم أشكالها الحسيدة الألمانية. وقد أخذت الحسيدة (من الكلمة العبرية حسيد تعني "التقي") "القيم والمثل الدينية العليا" للناس إلى أفاق أرحب.^{١٨} كانت الفلسفة جزءاً من الثقافة الشعبية اليهودية. كانت التعاليم التي تطورت بصفة رئيسية بين عامي ١١٥٠ و١٢٥٠- كان أشهرها تعاليم يودا الحسيدي (توفي ١٢١٧) - تعني بشكل رئيسي بأسرار الخلق. على سبيل المثال، كانت من القضايا الخلافية بين الحسידين إمكانية حساب نهاية الزمن على أساس العلامات الواردة بالكتاب المقدس. وقد أثارت هذه القضية مشاعر الناس كما كان المسيحيون أيضاً معنيين بتأملات من هذا النوع. كانت هناك مطالب أخلاقية عالية تفرض على "التقي": إذ كان يتعين عليه أن يعرض عن العالم بزهد، ويلتزم بالنصوص الدينية وأن يمارس كلاً من حب الرب وخشيته. هؤلاء الذين أخطأوا يجب ألا يحرقوا ولكن أن يعاملوا بطريقة إنسانية. وفقاً للكتاب المقدس، "في البدء كانت الكلمة". كان ينظر إلى التوراة على أنها ذات طبيعة مقدسة: إذ لا يمكن تغيير أو حذف أي من حروفها أو نقاطها. على هذا الأساس، جرت محاولات لاكتشاف قوة الاسم المقدس للرب بالارتباط مع عدد معين من الكلمات والحروف. اعتقد البعض

^{١٨} جيرشوم شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية] (فرانكفورت، ١٩٨٠)، ص. ٨٨.

أنه بهذه الطريقة يمكن أن يخرج الغوليم، وهو رجل صناعي، إلى حيز الوجود. في أحد الأشكال المتأخرة للقابالا، ظهرت مثل هذه الأفكار والتجارب المستقاة من القابالا في بولندا منذ حوالي عام ١٦٠٠ وقد دارت حول الحاخام إيليا واعظ تشيلم الذي توفي عام ١٥٨٣، وقد لقب "بعل شيم" وهو لقب ترجع أصوله للقرن الحادي عشر على الأقل - ويعني "المتحكم بناصية الاسم". عبر هذا اللقب عن فكرة معرفته للأسماء الحقيقية للكائنات الحية وغير الحية ويتمتع بقوى سحرية. تفترض الرواية أنه قد خلق إنسانا من الطين وأحياه بعون الاسم المقدس. على جبهة هذا الإنسان كتب الحاخام كلمة "إيميت" أي "الحقيقة". كان الغوليم يقوم بجميع أنواع الخدمات لكنه ازداد في الطول لدرجة أن الحاخام لم يعد يستطيع الوصول إلى جبهته ليملأ الحروف "إي" كي يتبقى كلمة "ميت" ومعناها "الموت" ويدمر بذلك الرجل الصناعي. عندما أصبح الغوليم خطيرا للغاية، وضع الحاخام خطة مأكرة: إذ جعل الغوليم يخلع حذاءه، وبالتالي استطاع الوصول إلى جبهته. لسوء الحظ، انسحق الحاخام تحت الطين المنهار ولقى حتفه (أو لحقت به إصابات بالغة وفقا لرواية مختلفة لنفس القصة). من المحتمل أن تكون هذه القصة منقولة من بولندا عن قصة الحاخام المعروف يودا لو بن بيتساييل واعظ براغ (حوال ١٥٢٠ - ١٦٠٩). في هذه القصة أيضا أصبح المخلوق الصناعي خطيرا حين نسي الحاخام إزالة الورقة التي تحمل اسم الرب من على فمه قبل يوم السبت. وفي اللحظة الأخيرة، قامت الجماعة اليهودية بغناء مزامير يوم السبت، بيد أن السبت نفسه لم يكن قد بدأ بعد - فاستطاع الحاخام لو أن ينزع اسم الرب من على فم الغوليم. ترجع جذور عادة غناء مزامير السبت مرتين في المعبد القديم - الحديث (Altneushul) براغ إلى هذه القصة. هناك عدد من المعالجات الأدبية المختلفة لهذه الأسطورة. وقد كان هناك

عدد من المحاولات للعثور على بقايا الغوليم على سطح المعبد أو في إحدى غرفه السرية. وقد أصبح التقرير الذي كتبه "المراسل الحانق" إيجون إيروين كيرش شهيراً للغاية^{١٩}.

وقد استمرت القابالاه في إسبانيا في القرن الثالث عشر بل واعترتها بعض التغيرات. في هذا الصدد، يجب التمييز بصفة أساسية بين شكلين من أشكالها. لقد جاهد إبراهيم أبو العافية (حوالي ١٢٤٠ - ١٢٩١) كـ "فك طلاسم الروح، ويوحد بين الروابط التي تربط بينها".^{٢٠} لقد وصف إبراهيم أبو العافية في شرح متحمسة ولكنها في الوقت ذاته متعقّلة كيف - بمساعدة حروف الأبجدية أو تركيبات منها - يمكن للفرد التأمل والوصول إلى حالة من النشوة كي يغمس الفرد نفسه في اسم الرب. كان من المفترض أن يسهم هذا في المسيرة نحو تحرير الإنسان. على النقيض، رفض موسى الليوني (المتوفي ١٣٠٥) طريق التأمل. يجب على المرء أن يركز تماماً على كلمات الكتاب المقدس - التوراة - كي يدرس "المضامين السرية لعالم الرب ذاته". بهذه الطريقة يمكن للمرء الدخول في علاقة مباشرة مع الرب، والذي يمكن للمرء - كسر غامض - أن يتوحد مع حياته الخفية. أراد موسى أن يحافظ على "الإيمان الشعبي الساذج" بغض النظر عن تعقيداته الرمزية.^{٢١} الجديد تماماً في الأمر هو فكرته القائلة بأنه مع وجود الملكة الإلهة - الشخيناة - انفصل العنصر الأنثوي في الرب عن العنصر الذكوري وأنه فقط من خلال الخلاص من الخطيئة تستعاد الوحدة الربانية الكاملة.

^{١٩} جيرشوم شوليم، [حول القبالاة ورمزيتها] (فرانكفورت، ١٩٧٣)، ص. ٢٥٥ - ٢٥٨؛ وإيجون إيروين كيرش، [إحياء الغوليم] في [قصص من سبعة جيتوهات] (فرانكفورت، ١٩٨٢) من ص. ١٧٧ - ١٩٤.
^{٢٠} شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ١٤٢.
^{٢١} المرجع السابق، ص. ٢٢٤ بالكامل.

تنعكس هذه التعاليم في إحدى قصص إسحاق باشيفيس سينجر: إنه (ريب يومتوف)، أحد علماء التلمود، الذي كان مسئولا عن إزالة الدهن والأوردة النجسة عن اللحم الناتج (الكوشير: اللحم الحلال في الشريعة اليهودية) كانت له روح امرأة. حين كان يصلي لم يكن يخاطب الإله كثيرا كما كان ينادي على الشخيانة، الأنثى المكلمة للإله. وفقا للقابالة، تؤدي الفضائل الإنسانية إلى وحدة الرب مع الشخيانة وكذلك مع الملائكة والكروبيم والسااروفيم أو حراس العرش والأرواح المقدسة بالجنة. بيد أن الاندماج الكامل في الجنة لن يحدث سوى بعد الخلاص من الخطيئة، مجيء المسيح.

على ذكر هذا الموضوع، كان لهذا المفهوم أيضا تأثير على الفهم اليهودي للحب والزواج. فمن يحقق هذا القرب من الرب في الحب المطرد (ديفيكوت - بالعبرية: "الارتباط") فهو من الصدوقين (بالعبرية: "الشخص المستقيم"). لقد وضع موسى تعاليمه التي قدر لها أن تكون المجموعة الأكثر شمولاً لعناصر القابالة، في سفر الزوهار، (سفر سطوع النور). سريعا ما أضحى هذا السفر إلى جانب الكتاب المقدس والتلمود، نصا تشريعا لليهودية، رغم حقيقة أن هذا النص لم يدرس في المدارس اليهودية "العادية" وكان أكثر الطلبة الموهوبين فقط من يتلقون تلك المعرفة "السرية".

بعد طرد اليهود من إسبانيا، برهنت القابالة على دورها المؤثر بين اليهود الذين كان عليهم أن يتصالحوا مع هذا الحدث نفسيا وروحيا. لقد بدت التكهينات بقرب نهاية العالم واقعية - خاصة أنه في مؤلفات القابالة الأولى كانت الحسابات تشير إلى عام ١٤٩٢ على أنه عام الأبوكاليسس (نهاية العالم المذكور بسفر الرؤيا). لقد جمعت القابالة - خاصة في النسخة الإسبانية منها - عناصر المشيخانية

^{٢٢} إسحاق باشيفيس سينجر، حب قديم. قصص من الحياة (ميونيخ، فيينا، (١٩٨٥) ص. ٣٨ [كلاهما])

والأبوكاليبس اليهودية. مثلت الحركية المشيخانية لديفيد روبيني ما يمكن وصفه بلحظة الذروة للقبالة في العالم على نطاق أوسع. زعيم روبيني أنه أمير ينحدر من قبيلة روبين ولفترة استطاع حتى أن يكسب ثقة البابا كليمنت السابع. لقد نشر أحد يهود المارانو البرتغالي (يهودي أجبر على التنصر) سولومون مولكو تعاليم الخلاص الذي كان من المتوقع أن يحدث عام ١٥٣٣. بعد القبض عليه بناء على تعليمات الإمبراطور تشارلز الخامس، أعدم مولكو على الخازوق في عام ١٥٣٢، بينما اختفى ديفيد روبيني في معتقلات محاكم التفتيش. أصبحت مدينة صغد في الجليل الأعلى (في إسرائيل الآن) حيث قام إسحاق لوريا (١٥٣٤-١٥٧٢) بالتدريس مركزاً جديداً لتعاليم القبالة. لقد حاول لوريا أن يفهم "الخلق من العدم". وفقاً له، أطلق الرب جزءاً منه، وانسحب من هذا الجزء كي يترك مجالاً للخلق. غير أن الشر أحدث خللاً بهذا التناسق. حين تدفق النور الإلهي إلى الكون، لم تستطع جميع الأوعية التي كان يفترض أن تلتقطه أن تتشبث به وحدث شيفرات ها-كليم ("تهشم الأوعية"). نتيجة لذلك، كان الشر في وضع يمكنه من الظهور. لكن في الوقت ذاته سنحت الفرصة أمام الإنسان لاستعادة التناسق الأصلي من خلال التيقون ("الإصلاح") والتي تضمنت الاستبطان الأصولي والصلاة والخضوع للتشريعات الدينية. لقد قام إسحاق لوريا بتدريس ما كان في حقيقته "سحر الاستبطان"،

نشوة الاندماج الهادي، لهبوط الإرادة الإنسانية لتتقي مع الإرادة الربانية، وفيها تعمل كلمات الصلاة كحاجز أمان. في الصلاة تتشبث المرء بقوة بهذا الحاجز كي لا يؤخذ وهو غير مستعد أو كي لا تغمره النشوة على حين غرة، الحالة التي تطبق فيها المياه المقدسة على

وعيه.^{٢٣} جدير بالذكر في هذا الصدد أن هذا الفكر وصل إلى حد دراسة التساؤل الذي يشغل بال أكثر التيارات تنوعاً في اليهودية : كيف يمكن للمرء التصالح مع حقيقة أن الإنسان يحمل بداخله نوازع الخير والشر وكلاهما خلقه الرب وكلاهما يجب أن يخضعاً لشيء من التناسق كي يتمكن الإنسان من حب الرب؟

كانت الأقابالة منتشرة في بولندا بكل أشكالها . في القرن السابع عشر تم تقديمها إلى اليهود على يد إشعيا هورويتز (١٦٣٢-١٦٨٩) من كازيمير بالقرب من مقاطعة كراكو. من المؤكد أن النتائج العملية التي توصل إليها لم تستقبل بحفاوة: أن "القميمص من الوبر والصوم والنواح والحزن" تقود إلى الرب؛ وأنه ينبغي أن يعيش المرء في "ارتعاد وخوف وخجل وطهارة" والا "تتبع إغراءات الجسد، ولكن صوت الروح".^{٢٤} في وقت الاضطهاد والخراب كان من المستبعد أن تلاقي هذه الأفكار قبولا واسعا . فقد سعى الناس وراء أمل حقيقي . نتيجة لذلك، كانت التعاليم المتصلة بالظهور الوشيك للمسيح والخلاص القريب رائجة للغاية .

المسيح في بولندا:

شبتاي تسيغي ويعقوب فرانك

بعد وقت قصير من اندلاع الموجة المدمرة من القتل والنهب التي أتت في أعقاب ثورة القوزاق عام ١٦٤٨، كثرت الشائعات بين يهود بولندا عن قرب يوم الخلاص وأن المسيح قد وطأ الأرض بقدميه

^{٢٣}شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، صفحات ٢٨٧ . ٣٠١ . ٣٠٥ .

^{٢٤}ماريان فوكس وزيجمونت هوفمان وموري سي هورن وجيرزي توماس تسيغيفسكي [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة] (وارسو، بلا تاريخ [حوالي ١٩٨٣] ص ٢٦

بالفعل. اسمه كان شبتاي تسيغي. وبقلوب ملؤها التكهنات، أمل الكثيرون في أن يكون بؤسهم قد قارب على الانتهاء.

ولد شبتاي تسيغي في أزمير في عام ١٦٢٦ وقد تلقى تعليمًا متنوعًا شمل تعاليم القابالة. يبدو أن شبتاي كان يعاني من الاكتئاب ثنائي القطبية (ذهان الهوس). بعد أن أعلن أنه المسيح، نبذته جماعته فهام على وجهه في آسيا الصغرى. في عام ١٦٦٤ تزوج من امرأة بولندية. بعد ذلك بعام، التقى بناثان الغزاوي معتق القابالة ذي العشرين ربيعاً (١٦٤٤-١٦٨٠) والذي أقنعه بأنه حقا المسيح وأصبح بوق الدعاية له. اختار شبتاي تسيغي اثني عشر حوارياً وعاد أدراجه إلى أزمير وحدد يوم ١٨ يونيو ١٦٦٦ كيوم الخلاص. وصف شبتاي نفسه بأنه ملك الماشيحانية، وعاش في المعبد وارتكب الكثير من الأفعال الخارجة على العقيدة اليهودية. في بداية عام ١٦٦٦، سافر إلى القسطنطينية كي ينتظر يوم الخلاص هناك. لكن السلطات العثمانية ألقت القبض عليه وقدمت له خيارين: إما اعتناق الإسلام أو الإعدام. فاختار اعتناق الإسلام، ربما ليحمي أتباعه. في عام ١٦٧٢ أدين شبتاي تسيغي بممارسة اليهودية في الخفاء والفجور الجنسي فتم القبض عليه مرة أخرى ونفي إلى ألبانيا حيث مات عام ١٦٧٦.

انتشرت التعاليم الشبتية بصفة رئيسية على يد ناثان. كانت نقطة انطلاقه من مذهب القابالة اللورانية خاصة أفكارها حول الخلق. وقد تعهد المسيح من خلال المعاناة الأبدية أن يعيد للأرض تناسقها الأصلي. فاستسلم للشر كي يهزمه من الداخل، بعبارة أخرى طالما كان هو نفسه "مدنس" يمكنه أن يطهر المدنسين. من ثم، لا يخضع المسيح لسلطة التوراة ويمكنه أن يرتكب المحرمات. حتى التخلي عن العقيدة الدينية والردة، كل هذا يشكل جزءاً من عملية الخلاص. في بولندا انتشرت هذه التعاليم بسرعة كبيرة. يبدو

أن الكثير من اليهود أحسوا أن هذه العقيدة تم وضعها خصيصاً من أجل الوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه، بينما لم تستطع اليهودية الأرثوذكسية أن تمدهم بالإجابات الشاملة المقنعة فيما يتعلق بأحداث ومشاكل العصر. كان للحركة الشبتانية عدد من السمات المعقدة: آمال صوفية متصلة بمبررات لأسلوب حياة تلوته الخطيئة، وفي الوقت ذاته انتهاك للتعاليم والأساليب التقليدية - كالليلول - الأمر الذي فتح الطريق أيضاً أمام التفكير المستنير. كانت هذه حركة منتشرة تحمل عناصر تحريرية للغاية، وسعت في الوقت ذاته للتخلص من هيمنة الطبقة الحاخامية العليا وأوليغاركية القهال. كانت الشبتانية - كمنظيراتها من الحركات المسيحية في القرن السابع عشر والثامن عشر - جزءاً من "الجدل التنويري" (هوركهايمر وأدورنو) حيث أخفق المسيح في الظهور وحتى شبتاي تسيفي لم يعد للظهور مرة أخرى، أصبحت الحركة الشبتانية أكثر تطرفاً - طوال الوقت الذي استمرت في حيز الوجود - رغم أنها لفترة ما استمرت اتباع جدد في الانضمام إليها. بصورة ما أصبحت الشبتانية أيضاً حركة مبتذلة حيث أصبحت "أسطورة دينية للعدمية (وجهة نظر تقول أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة)". بناءً على تعاليم ناثان، ظهرت أفكار تدعو لما يسمى بـ "الخطيئة المقدسة". من يخطيء فهو صالح ومخلص في أعين الرب، والدناسة تجذب روح القدسية. إمعاناً في التطرف، ساد الاعتقاد أن شبتاي تسيفي قد سما بالفعل بالشر وأن كل شيء الآن طاهر. لم يعد شيء يستحق اللوم على فعله بعد الآن.

لقد توجت سلسلة نظريات الخلاص هذه حركة جيكونب فرانك. فرانك، المولود في ١٧٢٦ على المنطقة الحدودية لبودوليا

استشهاد أورده شوليم في كتابه [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ٣٤٦، ٣٤٧، ٢٠.

وبوكوفينا، قام بدراسة الكثير من كتب القابالة . في عام ١٧٥٥ قدم نفسه في بولندا بصفته المشياح الجديد وخليفة شبثاي تسييفي، وسريعا ما تجمع حوله أتباع متعصبون. قال فرانك أن الصلة بالرب ممكنة عبر متعة الحياة والنشوة الشديدة، كما افترض أن الانتشاء الجنسي على وجه الخصوص يمهّد الطريق للانتشاء الديني: إذ يمكن للمرء دخول "قاعات القداسة" عبر "بوابة الفسوق"^{٢٦}. وقد شهدت الإنسانية انحطاطا تاما في الاحتفالات العريدية الكثيرة التي أقامها الفرانكيون، "فمن يهبط إلى الأعماق السحيقة يبدو أنه الأقدر على رؤية النور".^{٢٧}

كانت الردة جزءاً من "الطريق" الذي اتجهه الفرانكيون أيضاً. أدان الحاخامات فرانك لردته عن اليهودية وحياته المستهترّة وأجبروه على الفرار. من المفترض أنه تحول إلى الإسلام في سالونيكاً. بعد عودته إلى بولندا عام ١٧٥٥، انخرط في خلافات مع حاخامات اليهود ورجال الدين المسيحيين. بعد انقطاع طويل، عاد تقليد المناظرة الدينية العلنية وفيها استطاع اليهود عرض وجهة نظرهم. يمكن قياس قوة شخصية فرانك ومدى تأثيره من خلال حقيقة أن الملك أغسطس الثالث كان حاضراً - ربما بوصفه حتى عراب فرانك - حين تحول إلى الكاثوليكية عام ١٧٥٩. بيد أنه بعد ذلك بوقت قصير أُدين بتهمة ممارسة اليهودية في الخفاء وتم إلقاء القبض عليه وأودع بالسجن.

بعد تقسيم بولندا الأول، أطلق الروس سراح جيكونب فرانك من السجن. وقد ذهب إلى ألمانيا مارا ببوهيميا ومورافيا. في ألمانيا وعلى أقل تقدير منذ عام ١٧٨٨، عاش فرانك مع حوالي ٤٠٠ تابع

^{٢٦}سيمون ديبينو، [تاريخ العالم للشعب اليهودي منذ البدايات الأولى وحتى يومنا هذا] (برلين، ١٩٢٨) الجزء السابع، ص. ١٩٧.

^{٢٧}شوليم [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ٣٤٩.

في قلعة كونت أيزنبرج في أوفنباخ والمنطقة المحيطة بها، وقد توفي هناك عام ١٧٩١. بعد وفاة فرانك تسلمت ابنته إيف- التي تزعم الشائعات أنها ابنته غير الشرعية من الإمبراطورة الروسية إليزابيث- قيادة الحركة الفرانكية لفترة. غير أن الطائفة سريعا ما تدهورت وظهر عدد من تلاميذ فرانك فيما بعد في حركات إصلاحية. كان أشهرهم جونيوس فراي وهو أحد أقارب فرانك وقد أعدم بالمقصلة هو وداتون عام ١٧٩٤. هنا مرة أخرى تتضح ازدواجية هذه الحركات. فقد أصبح من الواضح بشكل غامض أنه في الفرانكية كان الهدف النهائي الحقيقي هو التحرر من جميع أشكال السلطة، أولا من سلطات الدين والعقيدة، ثم من تلك الخاصة بالعالم الروحية والسياسية بوجه عام. لم يعد بالإمكان إجابة مطلب التحرير بتحقيق المساواة أمام القانون فحسب، ولم يرغب الناس أن يضطروا لانتظار مجيء الخلاص في وقت غير معلوم في المستقبل. كان هناك ما يبرر مطالبة الفرانكيين في كثير من الأحيان بأن تكون لهم مقاطعة خاصة بهم. بهذه الصورة برزت الفرانكية كتهديد لكل من الأخوية اليهودية وغير اليهودية. لقد أدت التعاليم الفرانكية إلى تأصيل اتجاه كان موجودا من قبل في اليهودية يقوم على تحرير الفرد لنفسه من قيود التقاليد من خلال قوته الذاتية بدلا من الانتظار السلبي لظهور الحلول- أو حتى قدوم المسيح- أو بالأحرى دفع هذه الأمور إلى الحدوث من خلال الجهود الشخصية للفرد الذي سسهم بذلك في التعجيل بالخلاص. إن المغزى الخاص بالفرانكية يكمن في هذا "التحول إلى الفاعلية".

لقد عكست الحركات المسيحية أزمة اليهود- بشكل ملموس في ظروفهم المعيشية لكن أيضا في حركاتهم الدينية وسيادة الحاخامات وهشاشة المجتمع اليهودي التقليدي. لقد ظل الأمل في الخلاص والاستعداد للقيام بأعمال إيجابية والقوة التي يمكن أن تستمد

بهذه الطريقة حياً بين يهود بولندا وكان له أثره حتى في فكر الأوساط غير اليهودية للمجتمع البولندي. بعد فشل الثورة البولندية عام ١٨٣٠ ضد حكم القيصر، ساد الرأي القائل بأن تاريخ بولندا هو "طريق الصليب" الذي سيؤدي إلى هلاك البشر أجمعين. كان من أشهر ممثلي هذا الرأي الشاعر آدم ميكويتش (١٧٩٨ - ١٨٥٥). فقد أعلن أن المشيخانية اليهودية أثرت على المشيخانية البولندية: "لم يعدم هذا الشعب الأسباب لاختيار بولندا لتكون وطناً لهم ... لقد كان لهذا الإيمان بعض التأثير على طبيعة المشيخانية البولندية."^{٢٨} من ثم، طالب ميكويتش بمساواة اليهود في الحقوق في حماية ثقافتهم. في هذا الإطار، تم وضع تصورات لمدينة فاضلة يندمج بها اليهود والبولنديون غير أنها بالطبع لم تتحقق على أرض الواقع. يمكن رؤية انعكاسات الحركات المشيخانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر في اشتراك الكثير من اليهود في الثورات البولندية التي اندلعت ما بين عامي ١٧٩٤ و ١٨٦٣ وفي التنوير اليهودي وفي النزوع إلى الانصهار في بوتقة بولندا وفي الابتعاد عن الدين والتوجه نحو الاشتراكية والصهيونية. علاوة على ذلك أفردت هذه الانعكاسات مجالا لعملية إعادة التفكير بين اليهود والتي لعبت فيها كل من الأفكار القابالية والمشيخانية دورا كبيرا.

الورع الشهير في الحركة الحسيدية

قبل ظهور جاكوب فرانك بوقت قصير ظهر على الساحة إسرائيل بن أليعازر المولود في بودوليا (غرب أوكرانيا) عام ١٧٠٠. أسس أليعازر حركة جماهيرية تعد الأضخم من نوعها. لسنوات عديدة سافر أليعازر كما تنقل بين عدد من الأعمال المختلفة حتى عام

^{٢٨} استشهاد وارد في [كنيسة ومعبد. دليل تاريخ المسيحيين واليهود. عرض بالمصادر] المحرر كارل هاينريش رينجستورف وسيجفريد فون كورتزفلايش (ميونخ، ١٩٨٨) الجزء الثاني، ص. ٤٥٩.

١٧٣٦ حين أصبح مشهوراً كصانع معجزات ورع يتمتع بقدرات سحرية. وقد انتشرت الكثير من الأساطير حول أليغاز. كان أليغاز يقطن في بودوليا ببلدة صغيرة تدعى ميدسيبوز. وقد نشأت حركة حسيديّة جديدة على يده ويد أتباعه، حركة للتقاة تتضمن -على ذكر ذلك- الكثير من أتباع الشبتانية في السابق الأمر الذي كان له تأثير هائل. في هذه الحركة الإحيائية وجدت تقوى العامة ممثلاً لها. سريعاً ما نظم أعضاء الحسيديّة أنفسهم في أخويات محلية في وجه الأوليغاركية الحاخامية. بهذه الطريقة حازوا درجة من النفوذ فاقت أي حركة سبقتها من قبل.

إسرائيل بن أليغاز، الذي كان يحمل اسم بعل شيم توف -مالك ناصية الاسم الجيد، اسم الرب- وكانت الأحرف الأولى لاسمه "بشت"، توفي عام ١٧٦٠ ولم يخلف وراءه أية مؤلفات مكتوبة. جمعت أعماله تلاميذه. مثلت البيشت التوجه القبايلي نحو التأمل في حروف الأبيدية. في رأيه لم يكن هناك مكان للشر -ببساطة كان هناك معرفة مغلوطة أو الاقتتار إلى إدراك المقدس؛ الشر أصبح "عرشاً للسادّة"^{٢٩}. رغم ذلك، من يبصر المقدس في الشر سيحوّله إلى خير. نتيجة لذلك، يمكن لكل شخص أن يامل في إصلاحه الشخصي. كما يجب ألا يخشى أحد الوقوع في الخطيئة؛ فلن تحل عليهم اللعنة. غير أن البيشت لم يريدوا محو الشر بالشر -بخلاف شابتاي تسيغسي وجاكوب فرانك- بل من خلال السعي لعمل الخير. ينبغي على الإنسان -بطريقة صوفية- أن يتشبث بالرب وأن يتقرب منه بالحبة (دفيكوت) حتى -أو خاصة- في الحياة اليومية. "الإنسان هو لغة الرب" كما صاغ الأمر أحد أتباعه.^{٣٠} لذا يجب

^{٢٩}أوردها كارل جروزينجر في كتابه [الحسيديّة والحسيديون] و

[مصلون ومتمردون]، ص. ١٤٨

^{٣٠}إيلي فيزيل [أرواح مشتعلة]، (فيينا، ١٩٧٤)، ص. ٨٥.

على المرء أن يسعد بالرب؛ لا بالابتعاد عن العالم ولكن من خلال الأمور المادية. إن الورع الحسيدي للبشت كان يؤكد على قيمة الحياة. كان الرقص والغناء والاحتفال جزءاً لا يتجزأ من هذا الورع. انتشر الإعلاء من قيمة العثور على الذات ومعرفتها بالاتساق مع الأشياء المحيطة والتاريخ والرب. كل شخص هو مشياح في حد ذاته إلى درجة ما، كما يمكن العثور على الخلاص في كل يهودي يعيش في تناغم بهذه الطريقة.

حتى عام ١٧٧٢ كان خليفة البيشت وقائد الحسيدين هو تلميذه/المحجيد (الواعظ) دوف بير واعظ مييجيريك (١٧٠٤-١٧٧٢). يعد بير المؤسس الفعلي للحركة الحسيدية. من المؤكد أن تعاليمه اختلفت عن تعاليم البيشت في الكثير من المناحي: فقد كانت تعتمد بشكل كبير على العقيدة اللورايانية. في رايه، يوجد الشر إلى جانب الخير كتعددية مقدسة يجب أن توضع في تناغم مرة أخرى. لتحقيق هذا الغرض، كانت القوى الشديدة والصمت الواعي ضروريين للتصالح مع معاناة العالم. لم يكن كل الناس قادرين على هذا، بل الصدوقيون وحدهم. صفة الصدوقيين هنا اعترافها بعض التغير فيما يتعلق بالمفاهيم التقليدية. ففي الأصل كان الصدوق "هو المثل الأعلى للشخص العادي" بينما الحسيدي هو "المثل الأعلى للشخص الاستثنائي". أما في الطريقة التي أعدت من خلال التعاليم القبلية المتعددة ولحات من البيشت، أصبح الصدوق الآن "أعلى من الحسيدي". أما "الأشخاص الخفيون المستقيمون" فقد كانوا حالة استثنائية. هناك أسطورة ذائعة الصيت عنهم ترجع جذورها إلى الماضي البعيد غير أنها أعليت قيمتها الآن خاصة من قبل الحسيدين. تقول الأسطورة أنه في كل جيل يوجد ٣٦ صدوقيين تعتمد على مزايهم استمرارية وجود هذا العالم. كقاعدة عامة يظل هؤلاء الصدوقيون غير معروفين. في واقع الأمر، هم أنفسهم لا

يعرفون أنهم ضمن المختارين . من ثم، لا يتسرب الغرور إلى قلوبهم . واحد فقط من بين الـ ٣٦ سيكشف عن نفسه حين يأتي وقت الخلاص وهو المشياح . غير أنه إن تم الكشف عنه مبكراً يجب أن يموت . يجب ألا يعرف أحد من هم هؤلاء "المستقيمون الخفيون" . ربما كان "جارك" أحدهم سواء كان يعيش حياة الورع أم لا . من المؤكد أن مفهوم الصدوقيون، كما ألقاه الهاجميد، تضمن المنحى الجماهيري: بذا تأسست صوفية النخبة التي ربما بتأثير من الفرائكية تم الربط بينها وبين عناصر للسعي وراء فرض السلطة على أتباعها . كل من هذين الأمرين أسهم في افتقار الحسيدية فيما بعد للمرونة . فقد وقف الصدوق أو الربّي كوسيط بين المرء وربّه . وقد اتفق هذا بشكل كبير مع الرأي المنتشر آنذاك أنه على المرء أن يثق في "الحاخامات أصحاب المعجزات" كي يكون له صلة بالرب، غير أنه من شأن هذا أن يعوق بسهولة القوة الحرة للإيمان . قال الهاجميد أن المجتمع يجب أن يساعد الصدوقي وأن يستمسك به كما يستمسك هو بالرب . في هذا الصدد كان الدعم المادي ذا أهمية كبيرة وكذلك كان الرقص والمرح حتى إلى درجة الانتشاء وكان يمكن للصدوقي أن يستمد القوة من هذا الدعم المادي . غالباً ما تدهورت هذه الفكرة إلى إنشاء "أسر حاكمة صدوقية" معينة شكلت فيما بعد مدارس مكثّلة بالتابعين .

على الجانب الآخر، وصلت الصوفية إلى عامة الشعب من خلال الأنشطة الحسيدية في المجتمعات . من التطورات الجديدة الأخرى في هذا الصدد تمكّن المرأة من المشاركة . لم تكن المعرفة بالتوراة - التي كان يتعين وفقاً للآراء المنتشرة آنذاك حجبها عن النساء - أمراً

^{٣١} جيرشوم شوليم، [الرغبة في المعرفة. اللاهوت اليهودي في القرن العشرين. قراءة]، تحرير شوليم بن شورين وفيرينا لينزين (ميونيخ- زيورخ، ١٩٨٨). ص. ٣١١-٣١٧ بالكامل.

ضرورياً للتقوى في الحسيدة. نتيجة لذلك، تمكنت النساء من تحسين أوضاعهن في الحياة العامة. على الأقل في بدايات الحسيدة شاركت المرأة أيضاً في الرقص الكوميوني أو الطائفي. فيما بعد، يبدو أن الفصل التقليدي بين الرجال والنساء قد عاد إلى الظهور مرة أخرى بصرامة أكبر رغم اختلاف درجة الصرامة باختلاف الجماعات اليهودية ودوائر الصدوقيين. بأي حال من الأحوال، من المدهش أن نسمع عن العديد من النساء العازبات - أغلبهن من الأرامل أو بنات الصدوقيين - اللاتي بفضل قدراتهن الروحية تم تشريفهن بمنحهن لقب الصدوقيين. فيما يتعلق بمصادر هذه الروايات، في الغالب لا يمكن أن تتسم هذه القصص بالدقة. من تلك القصص "عذراء لادومير" الأسطورية حنا راشيل فيربرماخر (١٨٠٥/١٨١٥ - ١٨٩٢/١٨٩٥). تفيد الرواية الشفاهية للقصّة أنها كانت تقيم الشعائر الدينية التي لا يقيمها سوى الرجال وأنها تلقت تعليماً عالياً، حتى في الأدب القابالي. الكثيرون أصبغوا عليها قدرات سحرية وانجذبوا إلى دائرتها حيث أسست بيتاً لها ميدراش "بيت للدراسة". وقد نظر الصدوقيون المحليون بطبيعة الحال إلى هذا التطور بريبة، وتبنوا وجهة النظر القائلة بأنه يتعين عليها الزواج كي تقوم بواجباتها كأمراة. حين انصاعت لهذا المطلب في النهاية وتزوجت مرتين - لم تعد أي من الزيجتين كونها زيجة اسمية - تقلص عدد أتباعها. قضت عذراء لادومير أيامها الأخيرة في القدس في دراسة الصوفية اليهودية. ربما تعكس ردود الفعل على ظهور "عذراء لادومير" الاتجاهات المتباينة في الحركة الحسيدة". رغم أن التأكيد على أن "النساء اليهوديات حققن المساواة التامة في الحقوق

في الحياة الدينية في الحسيديّة البيشّية" هو تأكيد دامغ للغاية، فإنه يشير إلى تغيرات تستحق تناولها بالدراسة بشكل أكبر.^{٣٢}

كان للحسيديّة صدى غير عادي لأنها غنيت بالحياة اليومية ولم تشترط الزهد أو الحزن - ناهيك عن الوقوع المستمر في الخطيئة أو الانحطاط الشخصي (قارن بينها وبين الشبّانية والفرانكية) - بل دعت إلى السعادة والورع والأخوة والمحبة. في ظل تلك الظروف الصعبة، في أزمة اليهود، التي لم تعد تتمتع فيها القيم القديمة بالشرعية المطلقة؛ كانت لمثل هذه الأفكار أهمية كبيرة. "كانت المعجزة أن اليهود اتبتهم فجأة الرغبة في والقوة للغناء بينما كانت السماء مزركشة بسحب بلون الدم القاني، وبدا الخطر واضحاً أكثر من ذي قبل واقترّب أسرع من أي وقت مضى".^{٣٣} من المؤكد أن الارثوذكسية قاومت بضراوة هذا الخطر. فقد عانت الكثير من المجتمعات اليهودية من صدوع وإنشاقات لم يكن من الممكن رآبها. أصول الأوستيودن (يهود شرق أوروبا)

لقد نظر الكثير من المؤرخين إلى الحركة الحسيديّة بوصفها مجرد أداة لتسفيه أفكار العامة أو قهر اليهود المتدينين. كان هذا صحيحاً في بعض الأحوال. لكن من جهة أخرى تضمنت هذه المدرسة الفكرية - في كل من شكلها الأصلي وفي المحاولات المتأخرة للإصلاح عناصر تحريرية قوية لا تنطوي على خطر تغيير أسلوب الحياة. رداً على سؤال: "لماذا لم تحيا بنفس أسلوب معلمك؟" كان الصدوق يرد قائلاً: "على النقيض، أنا أحاكيه تماماً: فكما تخلى هو عن معلمه، تخلّيت أنا عنه".^{٣٤} هكذا كان الخروج عن التقاليد جزءاً من

^{٣٢} س. أ. هورودوكي، [تيارات دينية في اليهودية. مع إشارة خاصة للحسيديّة] (بيرن - ليبزيغ، ١٩٢٠)، ص. ١٨٣.

^{٣٣} إيلي فيزيل، [أرواح مشتتة]، ص. ١٩٠.

^{٣٤} شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ٣٨٢.

القبالة أيضاً. بالمثل، لقد سلك الهاجيد طريقاً مختلفة عن تلك التي سلكها البيشت. حتى انتقاد الرب كان أمراً ممكناً. في خضم هذا البحث الديني عن مغزى بين الرؤيا المسيحانية والتكيف الورع المعلي لقيمة الحياة مع العالم كما هو؛ في هذا الموقف الشائك ما بين الحفاظ على أسلوب حياة معين إلى جانب التحرير المزامن له من القوانين التي كان يشعر أنها بلا معنى؛ وبين هروب خائق في الغالب إلى الصوفية التي يسيطر عليها الحاخامات أصحاب النفوذ وصانعو المعجزات، لقد تشكل نموذج "اليهودي الشرقي" كشخصية ثقافية مستقلة^{٣٥} في القرن الثامن عشر. لذلك يشير هذا المفهوم، الذي ظهر للمرة الأولى في القرن التاسع عشر وتم قبوله تدريجياً في القرن العشرين، إلى ما هو أكثر من تصنيف جغرافي، خاصة وأنه كان يوجد يهود شرق أوروبين (أوست يودن) خارج أوروبا الشرقية بأعداد متزايدة. الأوست يود هو شخص يعلن بشكل مطرد أنه/ها يهودي/ة وقد تكشف هذا الأمر للعيان بعد سجال ضاري. كان للتقاليد

^{٣٥} م. أ. [ربما ماثياس آش، الاسم المستعار لثان بيرنباوم]، "اليهود البولنديون ١" (١٩١٦-١٩١٧)، ص. ٥٦١. تصف ثان بيرنباوم يهود شرق أوروبا بوصفهم "جماعة ثقافية منفصلة" فتقول: "عرفناهم" كتلة "ثقافية يهودية ضخمة- ربما الأضخم من نوعها على الإطلاق- تتخللها حركة داخلية ثرية في التاريخ ومتوجهة بقوة نحو الحاضر وممتلئة بالمستقبل"، [ما كنه يهود شرق أوروبا؟ معلومات مبدئية]، (فيينا، ١٩١٦)، ص. ١٥. لقد تحدث بالفعل في أول مؤتمر صهيوني عام ١٨٩٧ عن يهود شرق أوروبا وأنهم يملكون ثقافة منفصلة كشيء باد للعيان (مؤتمر الصهيوني في بازل أيام ٢٩. ٣٠. ٣١ أغسطس ١٨٩٧) لابدوان نواصل في الكتابة عن تاريخ مفهوم أوست يودي. على أي حال يجب التشديد على أن هذا المفهوم نشأ في الاستخدام اللغوي اليهودي. حقيقة أن "أوست يودي" فيما بعد لعب دوراً هاماً كفكرة مقولبة عن اليهود في الاضطرابات المعادية للسامية لا يجب أن يؤدي إلى عدم استخدام هذا المصطلح.

والذكريات دور هام في هذا الصدد . بيد أنه لم يتعين على الأوست يودن ان يكون بالضرورة ذا فكر تحفظي . في الواقع، كان اليهودي في شرق أوروبا كقاعدة عامة يرتدي رداءه المميز ويعيش حياته/ها وفقا للتشريعات والتقاليد والشعائر الدينية التي تحترم بشكل صارم والتي ورثوها عن أسلافهم . بطبيعة الحال، هناك استثناءات كثيرة لهذا الأمر . بأي حال، تنتسب لغة الـيديش إلى يهود شرق أوروبا (أوست يودن) الذين أتبجوا أيضا إبداعاتهم الأدبية والفنية إلى جانب القوانين التشريعية بهذه اللغة . استخدم الأوست يودن لغة الـيديش في تعاملاتهم اليومية مع بعضهم البعض، وظلت اليهودية لغة الطقوس الدينية والتعليم . عند مقابلة غير اليهود، كان الكثير من اليهود في وضع يسمح لهم باستخدام اللغة الوطنية المناسبة . كانت أعداد قليلة للغاية منهم مجيد للغة الألمانية - بسبب تشابهها مع اللغة الـيديشية- التي كانت غالبا لغة التعليم .

كانت الـيديشية الشرقية قد تطورت بالفعل إلى لغة مستقلة في القرن الثامن عشر . كان للنتيجة التي توصل إليها موسى مندلسون (١٧٢٩-١٧٨٦) الفيلسوف اليهودي الألماني العظيم في عصر التنوير- بأن الـيديشية كانت مجرد خليط من لغات مختلفة وكيهودي يجب علي المرء أن يستخدم اللغة الوطنية المناسبة - كان لهذه النتيجة تأثير هائل على اليهود ذوي الميول التنويرية في الشرق خاصة في ليتوانيا غير أنها لم تلق قبولا عاما . أصبحت الـيديشية اللغة الأم أو الماميلوشين ليهود شرق أوروبا .^{٣٦} في الوقت ذاته، ظهرت

^{٣٦} سالشيا لاندلمان، [الـيديشية. مغامرة لغة] (فرانكفورت ، ١٩٨٦)، ص. ٥٣. ٢٣. في ما يتعلق بالبحث في اللغوة الثقافية الـيديشية جاء المعهد العلمي الـيديشي (YIVO) في الصدارة تأسس في برلين عام ١٩٢٥ ومع أول مقرله في فيلينوس بليتوانيا عام ١٩٤٠، نقل غلى مدينة نيويورك. منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، عاد المعهد للعمل مرة

الاختلافات الإقليمية وكان أكثرها وضوحاً الخلاف بين اليديشية الشمال شرقية في ليتوانيا وروسيا البيضاء من جانب واليديشية الجنوب شرقية والوسط شرقية في بولندا وجاليسيا الحمراء وأوكرانيا الذين خضعوا بدورهم للمزيد من التقسيم بسبب ذلك. نتيجة لذلك، كان لجميع الجماعات خصائصها الإقليمية المميزة فيما يتعلق بالملبس والعادات. لقد سهل إحياء الدور التقليدي لليهود كوسط بين المدينة والريف عملية تطور يهود شرق أوروبا. إبان فترة إعادة الإعمار في أعقاب الحروب العديدة والدمار الذي حل بالبلاد، لم يكن يمكن الاستغناء عن اليهود في بولندا كتجار بين النبلاء والفلاحين وقاطني المدن؛ بوصفهم "جائلو القرى" (دورفجيهر) - أو بائعون جائلون وكمقرضي أموال ووكلاء للنبلاء. هذه الوظيفة كوسطاء ميزت مناحي الحياة المختلفة عند اليهود حتى في جماعاتهم، لكن سريعا ما تكشف أن الأمور قد تغيرت بالفعل فيما يتعلق بالاساس الكامل الذي قام عليه هذا الدور.

الشتل

المشاهد التالية التي تنتمي لأوقات متأخرة عن هذا الوقت يمكن أن تلمح إلى الواقع فقط ولكن يمكنها على الأقل أن تجعلنا نعيش الجو السائد آنذاك.

منازل خشبية في فوضى تامة حول مكان السوق ... مكتظة بالسكان مثل حوارى المدن الكبرى ... الشوارع معذبة كجدال في التلمود. تنحني على شكل علامة استفهام وموضوعة كجملة اعتراضية. تنتهي بحوار مسدودة كظرفية برفضها الواقع؛ يضيعون في

أخرى في فيلينيوس. لقد واصل معهد التاريخ اليهودي في وارسو تليد معهد الدراسات اليهودية بالمدينة ففي جامعة كراكو يوجد معهد للتاريخ والثقافة اليهودية. في ذات الوقت تم تأسيس معاهد مماثلة في بلدان أخرى بشرق أوروبا.

مداخل الساحات أو الأفنية الخلفية أو طرقات القرية ... (في الوسط) يقع السوق بجوانيته وأكشاكه وموائده وأخشاب تقطيع اللحم. كل يوم، فيما عدا فصل الشتاء، يأتي الفلاحون والفلاحات من أماكن تبعد لأميال كثيرة ويحضرون ماشيتهم وخضراواتهم وأسماكهم وما اصطادوه من طرائد وعرباتهم المحملة بالحبوب والبطيخ والبقدونس والثوم. كشاط جانبي، كانوا يبيعون منتجات المدينة التي يجلبها اليهود. القبعات والأحذية والأحذية عالية الساق والمصاييح والزيت والمجاريف والبلطة والقمصان. اضطرام مكان السوق ... أحد عجائب الدنيا.^{٣٧}

استمع أيضا إلى كلمات مندل موختر السفوريم (موخر السفوريم ١٨٣٦-١٩١٧) في (فيشكه القعيد) (١٨٦٩-١٨٨٨) لوقت قصير! لا أحرك ساكنا، أنظر حولي وأتفحص السوق السنوي. إنه يوج بالبشر فهناك حشد هائل من الناس، اليهود يتممون الصفقات رغم النبذ - فهم يمحون وحسب. هذا هو اليهودي بالنسبة لك: في السوق السنوي يكون كالسمكة التي عادت للمياه. هذا هو نبع الحياة، السوق السنوي! في الواقع، يقول اليهود إنه مكتوب عندهم: إنه سوق سنوي في الجنة. المعنى الحقيقي لهذه العبارة هو أن الفردوس بالنسبة لليهود ما هو إلا سوق سنوي! الآن بغض النظر عما إذا كانت هذه العبارة مكتوبة أم لا، كان اليهود ينتهون من السوق السنوي فيهرعون للتجارة ولا يقفون ساكنين في انتظار السوق التالي ... بل اضطرام وضوضاء. هناك يمكنني أن أرى يهودي يسرع وثاني وثالث. في أزواج يتصببون عرقا وقبعاتهم منزقة إلى الورا على رؤوسهم. أحدهم يرت على أكتافهم ثم يأتي شخص

^{٣٧} صامويل، عالم شوليم أليشيم (نيويورك، ١٩٤٣)، ص. ٢٦. بالكامل، تم الاستشهاد بها في [العالم الغارق]، تحرير جواشيم ريدل (فيينا، ١٩٨٤)، ص. ١٦.

آخر ويأتي هنا وهناك بحركات بيديه أو يعبر عن عدم رضاه عن البضائع بقلب إبهامه لأسفل ويبدو أن مضغ الخبز فكرة جيدة. إنهم يسرعون حتى لتكاد تخرج أرواحهم من أجسادهم: الوسطاء، وسماسرة الزيجات وتاجرو الخردة والنصابون ولصوص الدجاج. اليهوديات يحملن السلال واليهود من الرجال يحملن الأجولة وآخرون لا يحملون شيئاً سوى أصابعهم الخمس. أرى الأسياد الصغار ممسكين بعصي المشي الخاصة بهم وقاطني المدن ببطونهم المنقخة. كلهم وجوههم متوجهة، لا وقت لدى أي شخص حيث تكلف كل دقيقة روبل فضياً.^{٣٨}

"كان الهواء مشبعاً بالحكايات والأساطير، فكنا نتنفسها."^{٣٩} غير أنه في الوقت ذاته كانت الغلبة للفقر المدقع حيث ازداد بمرور الوقت. كانت الشيتل مراكز يهودية في بيئة غير يهودية معظمها ريفي. غالباً ما كان اليهود الأثرياء في المدن الأكبر ينظرون باحتقار إلى "الدخلاء" الذين كانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع الفلاحين مثل الخلافات التي وقعت بين فقراء اليهود وأوليغاركية القهال. نجد هنا بعض التلميحات إلى صراعات اجتماعية أعمق من هذا داخل المجتمع اليهودي والذي سنراه في صورة أخرى فيما بعد.

لقد عاش اليهود في الشيتل في وعي كامل بيهوديتهم. حتى حين عانوا من الفقر، لأن التجارة بين المدينة والريف في أعقاب التنمية الاقتصادية العامة لم تجن سوى أرباح ضئيلة وحتى حين كانوا

^{٣٨} مينديل موخير سفوريم Fischke der Lahme, Bettlerroman (ليبيزيج، ١٩٧٨) ص. ١٩ بالكامل.

^{٣٩} روزي أوسلاندر حول تشيرنوفيتش التي ولدت بها عام ١٩٠٧ أوردت في كتاب [قصص يهودية شرق أوروبية]، تحرير أولف ديداريش بالتعاون مع أوتوم. ليلين وجيرمانيا جودايكا (ميونيخ، ١٩٨٨)*، طبعة جديدة، ص. ٣٣.

يتكدسون فوق بعضهم البعض في الغرف الضيقة ولم يكن لديهم ما يلبسونه وغالبا ما اضطروا للتضور جوعا؛ كانوا فخورين بيهوديتهم وشعروا بالراحة أينما سكنوا. لأسباب وجيهة أطلق اليهود على المجتمعات التي لاقت احتراما كبيرا لديهم أسماء شرفية مثل بيرديشيف "قدس فولينيا" ورذيدو التي أسموها "قدس جاليشيا الحمراء". نعم، كان فقرا بشعا لا حد له، يصل إلى درجة العبثية، بيد أنه على الجانب الآخر لم يصل إلى حد البؤس لأن أهل زابلوتوف لم يكونوا فقط مؤمنين بل كانوا موقنين أن هذا الوضع مؤقت وأنه قريبا ما سيتغير كل شيء حتى وإن دامت الفترة القاحلة لعشرات السنين، إن لم يكن قرونا- في الحقيقة منذ انتصار الألمان القوزاقي بودان شميلنكي منذ عام ١٦٤٨. كان الرب- ربهم بطبيعة الحال- دائما ما يتدخل. تدخل متأخرا، متأخرا للغاية لكنه لم يكن أبدا بعد فوات الأوان. بغض النظر عن هذا، في كل لحظة كان بإمكان المرء أن يعتمد على مجيء المسيح، أي بالخلاص النهائي. ... لقد وقفوا في المعبد المضاء بالشموع، لقد تسبب الغناء الرتيب الخفيض الذي يقوم به الشباب أثناء درس التلمود في إزعاج طرفي مناظرة متحمسين أزعجهم قليلا مثلما أزعجهم صوت الأطفال في أعينهم والذي كانوا يتحملونه بصبر أكبر لأن الكثير منهم فقد مؤخرا أما أو أبا. أصوات الغناء وصخب الأطفال ولمرات غير قليلة خلاف عال النبرة- لم يسبب أي من هذا إزعاجا لأي شخص لأن الجميع كانوا منهمكين في مناقشة كل شيء سواء كان من شئونهم أو شئون العالم المتسع. ... لو رجعت إلى الوراء وتدبرت أمر أولئك اليهود، حيث كنت أراهم حتى بلغت عامي العاشر، في الطرقات وفي الأسواق والمعابد وحجرات الدرس، أتذكر صوتين على وجه الخصوص: التهجد، الكثير من التهديدات والألن وأيضاً الضحك، النابع من روح

الفكاهة أو السخرية ولكن دوماً في شكل قهقهات ينضم إليها سريعاً حتى هؤلاء الذين كانوا يتهدون أو يننون.
الصلات بين اليهود وغير اليهود:

الباعة الجائلون وأصحاب الحانات من اليهود خارج الشتيتل كانت تربط بين "جائلي القرى" و الباعة الجائلين وأصحاب الحانات من اليهود أوثق الصلات مع غير اليهود. فقد كان الباعة الجائلون يعرضون بضاعتهم للبيع على الفلاحين وأحياناً في المدن وغالباً ما حملوا على عاتقهم مهام إضافية من أجل العملاء كان يتعين عليهم القيام بها في مجتمع مجاور أو مع الهيئات الموجودة بمدينة المقاطعة. من ثم، توسعت خدماتهم كوسطاء لتعدي مجرد الأمور الاقتصادية. يجب أيضاً عدم الاستهانة بحقيقة أن الباعة الجائلين غالباً ما كانوا أول من يعرف الفلاحين بالمستجدات الحديثة في الزراعة، ويخبرهم عن الحياة الثقافية في المدن وبصفة عامة كانوا يجلبون للفلاحين الأخبار من العالم الأرحب. على الجانب الآخر، كان اليهود يطلعون أهل المدن على حياة القرى. من الأمور الجديرة بالبحث مدى تأثير الباعة الجائلين من اليهود على نظرة أهل المدن تجاه الفلاحين وتشكيل الظروف الريفية وإذا ما كانت تأثيرات القرية قد تسربت بهذه الطريقة إلى تقاليد المدن-كالمراسم والاحتفالات. بأي الأحوال قام الباعة الجائلون بدور هام في الوساطة الثقافية بين الريف والمدن. ربما يكون صاحب الحانة اليهودي التجسيد النموذجي لدور الوسيط هذا في خضم شبكة من العلاقات التي تربط بين طبقة النبلاء والفلاحين وأهل المدن. وقد اتمى ما يربو على ربع السكان من اليهود ببولندا وليتوانيا إلى هذه الفئة في القرن

^{٤٠}مانيه شبيربير، [سقاة الرب. كل ما جرى ...] (فرانكفورت ، ١٩٩٣) الجزء الأول، ص. ٢٣ بالكامل ولد شبيربير عام ١٩٠٥ في زابلتوف في جاليسيا.

الثامن عشر. وقد أشارت إحدى الإحصاءات المنهجية- وإن كانت تشوبها بعض الإشكاليات- التي أجريت عام ١٨١٣ إلى أن حوالي ٦١% من العاملين بإنتاج المشروبات الكحولية وبيعها كانوا من اليهود. ربما كانت هذه النسبة أعلى بكثير في الشرق، خاصة في الريف. كتب هاينريش هاينه- وهو نفسه من أصول يهودية- في وصفه لرحلة قام بها إلى بولندا عام ١٨٢٢ يقول:

في بولندا يقف اليهود بين الفلاحين وطبقة النبلاء... فباستثناءات بسيطة، جميع الحانات في بولندا ملك لليهود وكذلك الكثير من معامل تقطير الشراب. الأمر الذي يلحق ضررا كبيرا بالبلاد لانه بذلك يدفع بالفلاحين إلى الانغماس في [الإلقاء باللوم على اليهود في ذلك الوقت- ملاحظة المؤلف]... كان لدى كل من النبلاء يهودي في القرية أو في المدينة يعينه كوكيل تجاري ينفذ كل مهامه ويقوم بعمليات الشراء والبيع والتقصي الخاصة به وما إلى ذلك.^١ في فترة لاحقة لهاينريش، وصف جوزيف روث الوضع السائد لأصحاب الحانات من اليهود في جاليشيا الحمراء على حدود الإمبراطورية الروسية في روايته "الوزن الزائف" فقال:

في قرية زفابي المنتمية لمنطقة زلوتوجراد، كان لايبوش جادلوكر أكثر نفوذا من قائد الدرك نفسه. يجب أن تعرف من كان لايبوش جادلوكر: ذو الأصول المجهولة. سرت الشائعات أنه قبل ذلك بسنوات أتى هذا الرجل من مدينة الأوديسة وأن جادلوكر لم يكن في الواقع اسمه الحقيقي. امتلك جادلوكر ما كان يطلق عليه حانة الحدود ولم يعرف أي شخص حتى كيف حاز ملكيتها. بصورة غامضة لم يحقق فيها أبدا صاحب الحانة السابقف رجل مسن ذو

^١ هاينريش هاينه، [عن بولندا] في أعمال هاينريش هاينه الجزء الثاني، تحرير فولفجانج برايزيندانس (فرانكفورت، ١٩٦٨)، ص. ٦٦ بالكامل.

لحبة بيضاء كالفضة مات ... كانت حانة الحدود التي يملكها مكان تجمع لجميع الأشخاص التافهين والجرمين . ثلاث مرات بالأسبوع كان العميل الروسي الموهوس الذي يعمل للصف الأمريكي كان يغرق حانة جاد لوكر بالهاربين من الجيش الروسي حتى يتمكنوا من الذهاب من هناك إلى هولندا أو كندا أو أمريكا الجنوبية . كما سبق وذكرت، كان يتردد على حانة الحدود التي يملكها جادلوكر التافهون والجرمون كما أوى لديه المتشردين والمتسولين واللصوص والسارقين، وكان من المكر بحيث لم يستطع القانون الإمساك به . كانت أوراقه وأوراق ضيوفه هؤلاء مرتبة على الدوام . أما المخبرون الرسميون الذين تجمعوا حول حانة الحدود مثل الذباب فلم يستطيعوا الإبلاغ عن أي شيء مؤذ أو غير أخلاقي فيما يتصل بأسلوب حياته لم يحصل جادلوكر فقط على ملكية حانة الحدود بصورة مربية ولكنه حصل أيضا على ملكية حانوت يبيع "المشبهات الغريبة" . لكن على ما يبدو كان جادلوكر يفهم من عبارة "المشبهات الغريبة" شيئا مميزا للغاية، لأنه لم يبع فقط الدقيق والشعير والسكر والتبغ والمشروبات الروحية والجمعة والكرايميل والشكولاتة والخيوط والصابون والأزهار والخيوط الملونة بل تاجر أيضا في الفتيات والرجال . كان جادلوكر يصنع أثقال الموازين الزائفة وبيعهما لتجار المنطقة وأثار اهتمام الكثيرين أنه كان يزيّف النقود والفضة والذهب والورق أيضا .^{٤٢} في الفترة التي جرت فيها أحداث رواية روث، كانت أهمية صاحب الحانة اليهودي قد بدأت في الزوال بالفعل . يبدو أنه استمر على ما يبدو في التأثير كشخصية عادية ومن المؤكد أنه كان لا يزال حيا في كثير من الأحيان . غالبا ما كان يجسد صاحب الحانة اليهودي رمزا سلبيا لليهودي الشرق أوروبي (الأوست يودي) الماكر

^{٤٢} جوزيف روث، [الثقل الزائف . قصة مفتش على الموازين والمقاييس] (كولونيا، ١٩٧٧)، ص. ٢٦ بالكامل.

الحب للمال الذي كان يغري الفلاحين بشرب الخمر ويقنعهم بشراء أشياء لا يحتاجونها وكان مسئولاً عن وقوعهم تحت وطأة الدين . في القرن الثامن عشر، كان القساوسة الكاثوليك لا يزالون يحبون أن يصفوا الحانات اليهودية بأنها مئوى الشيطان .

نهاية التعايش

كشفت المواقف تجاه أصحاب الحانات أن أساس دور اليهود كوسطاء قد تزعزع بشكل أكبر عما كان عليه قبل عام ١٦٤٨ . فقد رأى الكثير من الفلاحين في اليهود - بصورة أكبر عن ذي قبل - ممثلين لعالم غريب . الأمر الذي شعروا - خاصة في أوقات التغير الجذري على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية - أنه كان يمثل تهديداً كبيراً . علاوة على ذلك، أثارت الكنيسة الكاثوليكية مشاعر العداء الديني بجهودها المكثفة التي أصبحت تفتقر أكثر مما سبق إلى التسامح، تلك الجهود المناهضة للإصلاح التي كان بإمكانها إشعال قتل العنف بسهولة . لقد أسفرت اجتماعات الكنيسة في القرن الثامن عشر في مناسبات عدة عن إعادة تطبيق قرارات المجلس الكنسي المناهضة لليهود التي كانت سارية في القرون الوسطى . فقد حظرت المجالس الكنسية على اليهود التواجد في الأماكن التي تمر بها المراكب أو من امتلاك خدم من المسيحيين . كما وضعت العراقيل أمام بناء المعابد اليهودية أو ترميم ما هو قائم منها فكان يقال مثلاً أنه لا ينبغي على المعبد اليهودي أن يحجب النور عن المنازل المسيحية . كان الأساقفة في ذلك الوقت يطالبون مراراً بدفع مبالغ كبيرة كهدية مقابل عدم إغلاق المعابد اليهودية أو إعادة فتحها . غني عن القول أنه قد لاحقت اليهود اتهامات قتل البشر واستخدام دمائهم في طقوسهم الدينية مرة أخرى . بهذه الطريقة أثار الكثير من رجال الدين مشاعر الكراهية ضد اليهود بين الشعب البولندي . انتهى الأمر في عدد من الحالات بالإدانة والإعدام . بلغ الاضطهاد أوجه إلى حد

أنه في النهاية قام كل من البابا كليمنت الثالث عشر (١٦٩٣-١٧٦٩) والملك أغسطس الثالث (١٦٩٦-١٧٦٣) بنزولاً على توسلات مبعوثين من اليهود بإدانة هذا التشهير العنيف في عام ١٧٦٣. بيد أن التحيزات التي كانت راسخة في ذلك الوقت لم يكن من اليسير اقتلاعها من جذورها بهذه البساطة. تفسر المنافسة الاقتصادية الشرسة بين اليهود والمسيحيين لماذا لاقت خطب رجال الدين الحقودة والمقالات الدينية الزائفة التي كتبها تربة بهذه الخصوبة. فقد تجرأ طلبة المدارس اليسوعية على الاعتداء على اليهود ومعاملتهم بشكل سيء ونهب منازل اليهود. كما توقفت النقابات العمالية المسيحية عن قبول اليهود أعضاء بها ومنعوا الحرفيين اليهود من تلقي طلبات العمل من المسيحيين. منعت المحليات أيضاً التجار اليهود من ممارسة مهنتهم بشكل كبير. في الكثير من المدن لم يتمكن اليهود سوى من ممارسة الحقوق التي منحها لهم المزايا الملكية والمزايا التي وهبها لهم النبلاء مقابل مبالغ كبيرة من الرشاوى. دون هذا التآرجح في الظروف على سبيل المثال فيلسوف الحركة التنويرية اليهودي من ليتوانيا سليمان ميمون (١٧٥٣-١٨٠٠) وهو أحد أصدقاء موسى مندلسون حيث قال:

ربما لم يكن من الممكن في بلد سوى بولندا العثور على قدر متساو من الحرية الدينية والكراهية الدينية في آن واحد. لقد تمتع اليهود هناك (في بولندا) بحرية كاملة في ممارسة شعائرهم الدينية وكذلك جميع الحريات المدنية الأخرى حتى أنهم كانوا يخضعون لسلطة قضائية خاصة بهم. من جهة أخرى، اشتدت الكراهية الدينية للغاية حتى أن مجرد اسم اليهودي أصبح مدعاة للنفور...^{٤٣} ناهيك عن ضعف مركز ملك البلاد، كان موقف طبقة النبلاء عاملاً حاسماً

^{٤٣} قصة حياة سولومون ميمون. من تأليفه وتحرير كارل فيليب موريس. حررها حديثاً تسيفي باتشا (فرانكفورت، ١٩٤٨)، ص. ١٣

في تدهور الأحوال المعيشية لليهود ببولندا. ففيما مضى كان الإقطاعيون النبلاء يحمون اليهود من تحالف الكنيسة الكاثوليكية وأهل المدن والنبلاء غير المهمين الذين أصابهم الفقر، على الأقل طالما كانوا سيجنون من وراء هذه الحماية النفع الاقتصادي. أما الآن فلم تعد لدى النبلاء الرغبة القوية لتقديم هذه الحماية. فقد اكتسبت الكنيسة نفوذاً أكبر على اليهود أثناء حركة مناهضة الإصلاح وأخيراً أتت التحذيرات التي أطلقتها هذه الحركة ضد اليهود ثمارها. صحيح أن الإقطاعيين استمروا في تعيين اليهود كوكلاء تجارين لهم لأنهم كانوا ذوي فائدة اقتصادية كبيرة لهم. بيد أنهم تأثروا بالكراهية التي وجهت لليهود في أوقات الاضطراب منذ عام ١٦٤٨، كان الإقطاعيون في ذلك الوقت على أتم استعداد للاستغناء عن اليهود إن أصبحت قيمتهم غير كافية. تأثراً بصورة اليهود التي تم الترويج لها على نطاق واسع نصب أعينهم في ذلك الوقت، خشي النبلاء من أن يخدعهم مديرو مزارعهم أو مستأجروهم. لذا، حاولوا التخلص منهم خاصة في أوقات الأزمات الاقتصادية.

إضافة إلى ذلك، ارتأت طبقة النبلاء في اليهود منافساً غير مرحب به فيما يتعلق بتقدمهم. من ثم، عمل النبلاء في القرن الثامن عشر على ألا يعين اليهود بعد ذلك في الوظائف الحكومية أو يسمح لهم بإدارة الأراضي الملكية. قامت طبقة النبلاء أيضاً بالإشراف بصرامة أكبر على ذي قبل على الالتزام بالقيود المفروضة عليهم فيما يخص السكن والمهنة التي كان قد تم فرضها من قبل. يمكن بيان إلى أي مدى لم تعد العلاقة بين طبقة النبلاء واليهود علاقة تعايش بل علاقة صراع متصاعد وكيف أمكن للمصالح المشتركة التحول إلى تضارب في المصالح من خلال المقدمة التالية لمذكرات أحد أصحاب الأراضي في فولينيا عام ١٧٧٤:

لا يزال المستأجر هيرشكويدين لي ب ٩١ زلوتي مرّ بالفعل موعد استحقاق سدادها ووجدت نفسي مضطرا لأن الجأ للقضاء . بموجب أحد شروط العقد ، يحق لي في حال إخفاقه في الدفع أن أبقى عليه هو وزوجته وأطفاله محبوسين حتى يتم دفع الدين . لذا بالأمس أصدرت أوامري أن يقيد في الأصفاد ويوضع في حظيرة الخنازير بينما أعطيت زوجته والباهورين (الأطفال) تصريحاً بالبقاء في الحانة . لم أحضر إلى أرضي سوى أصغر أبنائه - ليزر - وأمرت بأن يتم تعليمه كتاب أسئلة وأجوبة في العقيدة وصلواتنا . في الواقع، أظهر الولد موهبة كبيرة وأود أن أقوم بتعميده . لقد كتبت بالفعل للأسقف عن هذا الأمر ووعدني بأن يأتي إلي لحضور مراسم التعميد كي يرافق روح الصبي (إلى الإيمان الحقيقي) . في البداية كان ليزر يرفض التعميد أو تعلم صلواتنا عن ظهر قلب بيد أنه بعد أن عاقبه مدير الأرض الزراعية ستريلسكي قام حتى بتناول لحم الخنزير . كان على قس كنيستنا - بونيفيس - وهو عضو رائع في النظام الرهباني مينورام دي أوبسيرفانتيا أن يناضل بشدة ليتغلب على عناد الطفل ويفوز به في عقيدتنا . بعد ثلاثة أسابيع فقط من هذا الحادث، استطاع الجيران اليهود دفع دين الأسرة . رغم ذلك كان اليهود في بولندا يعيشون في ظروف مواتية مقارنة باليهود في بلاد أوروبا الغربية . سليمان ميمون - الذي خبر في شبابه كيف قام الإقطاعيون النبلاء بالتغير الكامل فيما يتعلق "بيهودهم" - كتب في مذكراته يقول:

اليهود البولنديون الذين طالما سمح لهم بتولي جميع الوظائف والذين لم يكونوا - بخلاف الحال في الدول الأخرى - مقصورين على ممارس

^{٤٤} سيمون ديبينو، تاريخ الحسيدية (كونيجشتاين، ١٩٨٣ - إصدار ثان للطبعة الأولى، ١٩٣١)، الجزء الأول، ص. ٣٢ بالكامل، قارن بينها وبين صفحة ٣٤.

الاحتيال والربا، نادراً ما سمعوا توبيخاً على خداعهم. لقد ظلوا مخلصين للبلد التي يعيشون بها وكانوا يقولون أنفسهم بنزاهة.^{٤٥} لقد وجد اليهود أنفسهم الآن في وضع مليء بالتناقض. رغم تضاعف احتمالات التطور المتاحة أمامهم بالتأكيد، فقد أضحي وضعهم أكثر خطورة. لقد صارت الحماية التي ينعمون بها من جانب الملك والطبقة العليا للنبلاء أضعف. من ثم، كان وجودهم مهدداً على الدوام. تماشياً مع ظروف ذلك العصر، طور اليهود أسلوب حياة خاصاً بهم: من هنا تشكل نمط حياة الأوست يودي أو يهودي شرق أوروبا. في ذلك الوقت، عاد هذا بالنفع على خصومهم الذين اتهمهم باعتزال المجتمع عن عمد. أصبح الشعور بالاغتراب نحوهم أقوى وعلى ما يبدو تأكدت كل التحيزات السلبية التي روجت عنهم. في يوميات رحلته التي كتبها عام ١٨٢٢ (انظر فيما سبق) أبدى هاينريش هاينه انطباعاته:

إن المظهر الخارجي لليهودي البولندي مظهر بشع ... غير أن التقزز سرعان ما أفسح المجال ليحل محله الشعور بالشفقة بعد أن راقبت أوضاع هؤلاء الناس في المناطق القريبة ورأيت الحفر التي تشبه حظائر الخنازير التي يسكنونها وراقبتهم وهم يتحدثون اليديشية ويصلون ويتاجرون في الخيول ويعيشون بؤسهم. إن لغتهم خليط من اللغة الألمانية والعبرية في إطار من اللغة البولندية ... لم يكونوا متقدمين في الثقافة الأوروبية كما تدهور عالمهم الروحاني ليصبح مجرد خرافة غير محددة المعالم تتحطم فيها السكولاستية الجدلية (مذهب يستمسك بالتعاليم التقليدية) إلى آلاف الأشكال الرائعة. بيد أنه على الرغم من الطاقة الفرو البربرية التي تغطي رأسه

^{٤٥} قصة حياة سولومون ميمون، ص. ٢٢٩؛ حول الظروف البائسة الأخرى في الممتلكات من الأراضي، قارن، على سبيل المثال، ص. من ١٤-٢٣، و ٣٧-٣٩، و ٦٦-٧٢.

والأفكار الأكثر بربرية التي تملأها، فإنني أقدر اليهودي البولندي أكثر بكثير من الكثير من اليهود الألمان الذين يرتدون البوليفار (قبعة كانت هي الصرعة في تلك الفترة - ه. ه.) على رؤوسهم ويحملون جان بول (رواية رومانسية قرئت على نطاق واسع في ذلك الوقت - ه. ه.) في رؤوسهم. في عزلتها الصارخة، أصبحت شخصية اليهودي البولندي شخصية متكاملة؛ ومن خلال استنشاق هواء التسامح طبعت هذه الشخصية بطابع الحرية. ... لا زلت أفضل اليهودي البولندي الذي تفوح منه رائحة الثوم بفروه القدر ولحيته التي يملؤها القمل ومكره على الكثير من (اليهود الألمان) بكل روثهم الذي يؤكد الأوراق الرسمية.^{٤٦}

هنا يتضح كيف أصبح اليهودي البولندي في ذات الوقت مختلفاً عن اليهودي الألماني: في مظهره وفي كلامه وفي ثقافته وأسلوب تفكيره وسلوكه. لقد قدر هاننه بشكل إيجابي النمط المتكرر الذي كان بوجه كقاعدة عامة إلى اليهود على أنه أمر سلبى. لقد رأى هاننه كيف كان لتقاليد بولندا التي عمرها قرون من الزمان أثر طيب على اليهود هناك. تعبر ملاحظات وأحكام هاننه عن تنوع الظروف بصورة مثالية. رغم ذلك، أثناء هذه الرحلة كان هناك نذر تنبيء بالتحول إلى الأسوأ.

اليهود في تقسيمات بولندا

في الأعوام ١٧٧٢ و ١٧٩٣ و ١٧٩٥، تم تقسيم الامبراطورية العظمى البولندية-الليتوانية جزءاً بجزءاً بين بروسيا والنمسا وروسيا. منذ ذلك الحين وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى لن يكون هناك بلد بولندي مستقل مرة أخرى. صدق مجلس فيينا عام ١٨١٥ على الحدود النهائية للتقسيم: بروسيا حصلت على بروسيا الغربية

^{٤٦} هاينريش هانينه، عن بولندا، ص. ٦٧ بالكامل.

ومقاطعة بوزنان بينما حصلت النمسا على جاليشيا وكراكو (رغم أن كراكو في البداية ظلت مدينة حرة تحت الحكم المشترك للقوى الداخلة في التقسيم) بينما حصلت روسيا على ليتوانيا إلى جانب شرق بولندا ووسطها. ضمت الأتوقراطية القيصرية مقاطعة ليتوانيا من روسيا البيضاء وأوكرانيا وحتى البحر الأسود ولكنها شكلت مع بقية بولندا القديمة مملكة يربطها بالقيصر اتحاد شخصي في تلميح لأصوله كان يطلق عليه اسم بولندا الاتحادية. أثناء عملية التقسيم، لعبت "القضية اليهودية" بشكل متزايد دورا هاما دون أن تجد طريقها إلى الحل أبدا. قام البرلمان البولندي العظيم الذي تأسس منذ عام ١٧٨٨ والذي مثل المحاولة الأخيرة لإحداث الإصلاح الكامل على يد ما تبقى من الدولة البولندية المستقلة بإحياء الفاد "عامة الأمة اليهودية". لم يستطع الكثير من اليهود دفع الضرائب المتزايدة ونتيجة لذلك وقعت الجماعات المطالبة بسداد هذه المبالغ - القهال - تحت وطأة الدين. بدا أن إعادة توزيع الدخول باتت ضرورة ملحة غير أنه لم يمكن الوصول إلى تسوية مرضية في هذا الصدد. على الفور جابه البرلمان الوضع غير المستقر لليهود. في وارسو كانت القيود السابقة المتعلقة بالمسكن لا تزال سارية حيث كان يمكن لليهود السكن هناك فقط عندما كان البرلمان البولندي قائما. غير أن اليهود فكروا في وسائل للتحايل على هذه القيود. لقد أدرك النبلاء أنه من الممكن خلق مصدر جيد للدخل من هذا الوضع، فسمحوا لليهود بالاستقرار الدائم في أملاكهم خارج أسوار المدينة مقابل دفع الرسوم الضرورية. نتيجة لذلك ظهرت "قدس جديدة" إلى حيز الوجود تضم عددا كبيرا من السكان. في عام ١٧٧٥ تمكن أهالي وارسو من طرد اليهود. عندما انعقد البرلمان البولندي عام ١٧٨٨ تدفق آلاف اليهود مرة أخرى إلى وارسو وبقوا هناك لأن البرلمان ظل منعقدا لمدة أطول من المعتاد من أجل الإسراع

بالتصديق على الإصلاحات المستهدفة. في النهاية، لم يعد باستطاعة السكان المسيحيين تحمل المنافسة اليهودية التي يخشونها وفي مارس من عام ١٧٩٠ استطاعوا أن يطردوا اليهود من الحرفيين وتجار الشوارع من المدينة. لم يستطع سوى التجار الذين كان لديهم مقار لتجارنتهم - أي اليهود الأثرياء - البقاء. بعودة اليهود للمطرودين إلى ديارهم، ازدادت الإثارة وكانت أصغر الحوادث كافية لإشعال فتيل عاصفة حقيقية من أعمال النهب للمساكن والحال التي يمتلكها اليهود في وارسو؛ عاصفة لم ينهاها سوى التدخل العسكري. ناقش البرلمان البولندي (السييم) في ذلك الوقت الوضع بالكامل. في الأساس، كانت هناك ثلاث أوضاع محتملة وكان لهذه الأوضاع الثلاث مؤيدون أيضا من غير أعضاء السييم. فهناك من تبنا موقفا كاثوليكيًا متشددًا كالإقطاعي الكبير زامويسكي والذين أرادوا الحد من الحقوق الممنوحة لليهود والفرص التي تتيح لهم أكثر من ذي قبل. كان من بين ممثلي التيار المعاكس تمامًا على سبيل المثال جاك جيسيريسكي (١٧٢٢-١٨٠٥) الذي قال بأنه يجب تأييد اليهود لأنهم كانوا ذوي نفع كبير لاقتصاد المملكة. ما بين هذين الرأيين كان هناك العديد من الآراء المتفاوتة التي أرادت منح اليهود حقوقًا مدنية والتسامح معهم وإعطاءهم مساحة كبيرة لحرية التجارة شريطة أن ينهضوا هم (اليهود) "بعملية التحديث" وأن يندمجوا في الشعب. في حال كان اليهود غير مستعدين لفعل هذا بكامل اختيارهم، عندئذ ينبغي اللجوء إلى الإكراه. كان من بين ممثلي هذا الاتجاه على سبيل المثال الخبير الاقتصادي والتاريخي تاديوس تشاكي (١٧٦٥-١٨١٣) الذي اعتقد أنهم بهذه الطريقة يمكنهم منع الزواج المبكر والتخلص من الملابس المميزة لليهود وإلغاء الممارسات الدينية "المؤذية" وتقليص استقلالية مجالس القهال والمطالبة باستخدام اللغة البولندية بدلًا من اليديشية على الأقل في المخاطبات الرسمية وقصر أنشطة اليهود على

الحرف اليدوية والزراعة وأشكال التجارة "النزيهة" التي لا تتضمن امتلاك أو إدارة المحلات. كان يتعين على اليهود شراء المساواة في الحقوق وكان الثمن هو تقاليدهم وثقافتهم - وهو الاتجاه الذي يمكن رؤيته في الكثير من البلاد في ذلك الوقت. رغم تأييد الكثيرين - حتى أن الملك ستانيسلاف الثاني أغسطس بونيا توفيسكي (١٧٣٢ - ١٧٩٨) - الذي ربما أظهر هذه النوايا الطيبة مقابل حصوله على حافز مالي ما - قد تدخل من أجل حصول اليهود على المزيد من الحقوق. لكن القرار قوبل بالرفض من جانب المناهضين لليهود. وقد تجاهل دستور مايو ١٧٩١ - وهو الأول من نوعه في أوروبا بالكامل - هذه المشكلة. اتضح أن طبقة النبلاء لم تعد تقف إلى جانب اليهود بل في الحقيقة أصبحت تعدهم ضمن خصومها. على أي حال، فإن التقسيم الثاني والثالث لبولندا جعلتا من أي محاولات جديدة أبعد من هذه بلا طائل. لم تقف هذه الفترة للبراهين على وطنية اليهود، فالكثير من اليهود شاركوا في ثورة ١٧٩٤ بزعامة تاديوس كوسيو سكو (١٧٤٦ - ١٨١٧) للدفاع حتى عن وارسو. في النهاية تم تشكيل فيلق يهودي تحت إمرة بيريك جوسليفيتش. كان من المنتظر أن ينجح هذا الإسهام اليهودي في النضال التحرري بإقناع البولنديين بأنهم يمكنهم التعايش جنبا إلى جنب مع اليهود ومنحهم حقوقا متساوية. بعد قمع الروس لهذه الثورة، استطاعت فلوق الفيلق اليهودي الوصول إلى فرنسا بعد مغامرات غير عادية حيث انضموا إلى الفيلق البولندي وشاركوا تحت قيادة نابوليون في خلق إمارة وارسو. في عام ١٨٠٩، سقط جوسليفيتش الذي اضحى كولونيل في الجيش البولندي صريعا في الحرب التي دارت ضد النمسا. وقد وافق دوق وارسو الذي كان في ذات الوقت ملك ساكسونيا في سخاء على السماح لأرملة وأطفال جوسليفيتش أن يقيموا في شوارع وارسو؛ الأمر الذي كان محظورا على اليهود آنذاك،

كما سمح لهم إن اضطرتهم الظروف "ببيع شراب الشنابص".^{٤٧} كان هذا امتيازاً يذكر. في البداية راودت اليهود آمال عظيمة فيما يتصل باتفاق نابليون. فقد منحهم التصديق على ميثاق الحقوق المدنية حقوقاً مساوية. كما بدا وأن نابليون كان يرغب في العمل مع ممثل رسمي لليهود - "السندرين العظيم" على نسق المحكمة القضائية والتشريعية العليا اليهودية القديمة. غير أنه سريعاً في مارس ١٨٠٨ قام نابليون بتأجيل عملية التحرير بفرنسا لعشر سنين. على الفور سعى البولنديين المعادون لليهود لاستغلال هذه الفرصة وفي أكتوبر من عام ١٨٠٨ قاموا بالتعجيل بإصدار قرار مواز. بيد أن الاستثناءات كان مسموحاً بها رغم أن هذا كان يحدث في أضيق الظروف. في عام ١٨٠٩ صدر قرار في وارسو فحواه أنه يجب على اليهود الانتقال من المناطق الراقية بالمدينة. في ١٦ مارس ١٨٠٩ تأسس الجيتو في وارسو والذي سرعان ما تكرر تأسيسه في المدن الأخرى كنموذج للمؤسسات المشابهة. في بواكير عام ١٨٠٨، فرضت الخدمة العسكرية الإلزامية على اليهود: وبينما تم حرمانهم من حقوقهم، فرضت عليهم المزيد من الواجبات. كان هذا الإجراء على وجه الخصوص مؤلماً لليهود المتدينين لأنه كان يعني عدم إمكانية أداء الشعائر الدينية بعد الآن. وقد تقدم الكثير من زعماء الحركة الحسيدية بالتماسات إلى الحكومة لإلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية وعرضوا في المقابل التنازل عن الحقوق المدنية ودفع غرامة مالية كبيرة. في الوقت ذاته انخرط الكثير من اليهود في المقاومة السلمية وأثاروا العديد من المشاكل، لذا ألغيت الخدمة العسكرية الإلزامية في عام ١٨١٢ وبدلاً منها فرض على اليهود دفع ضريبة دفاع باهظة. في عام ١٨١٥، حين أصبحت مملكة بولندا تحت الحكم

^{٤٧} ديبينو، تاريخ العالم، الجزء الثامن، ص. ٣٤٠. بالكامل.

الروسي، جرت محادثات جديدة بشأن "القضية اليهودية" في إطار المناقشات الدستورية. ومرة أخرى تجاهل الدستور اليهود. في الوقت ذاته، كانت القوانين في المادتين الحادية عشرة والثانية عشرة اللتان نصتا على أنه لا ينبغي اعتبار الدين الإسرائيلي على قدم المساواة مع المسيحية ووجوب فصل المؤسسات الدينية والمدنية عن بعضهما البعض تمثلاً لتدخل صارخا في الحياة اليهودية. على الجانب اليهودي، بدأت الآراء التي سبق مناقشتها تطفو على السطح مرة أخرى. وقد وضع الزعيم السياسي في تلك الفترة، الأمير آدم جيرزي تسارتويسكي (١٧٧٠-١٨٦١) الاندماج - فيما عدا الدين - شرطاً للمساواة. كان اليهود "شعباً غربياً" وكان على المرء تحريرهم من "عدم النضج الفكري" والقهر، غير أنه لم يكن من الممكن منحهم حقوقاً مدنية كاملة. كان يتعين منع الحانات اليهودية لأن تناول الكحوليات "كان له تلك العواقب الوخيمة على الطبقات الدنيا"^{٤٨} كانت هناك مزاعم أن اليهود يمحئون الفلاحين على الشرب ومن ثم يدمرونهم على الصعيدين المالي والجسدي. ببساطة، لم يكن بوسع المسيحيين فعل هذه الأمور. كان هناك من هم أكثر تعصباً من ذلك. فرجل الدين الكاثوليكي ستانيسلاف ستازيتش (١٧٥٥-١٨٢٦) الذي قام بالفعل أثناء مناقشات المرحلة الأخيرة للدولة البولندية الحرة بنعت اليهود بأنهم "طاعون الجراد الذي أصاب البلاد في كل من الصيف والشتاء" وبأنهم "عبء من الطفيليات" ظل هذا

^{٤٨} حول المناقشات والمقترحات الواردة هنا وفيما بعد يمكن العثور على هذه الاستشهادات في كتاب جيرجن هينسيل "أمة بولندية من النبلاء والوسطاء اليهود من ١٨١٥ - ١٨٣٠. عن المحاولة الفاشلة لتحرير اليهود في مجتمع غير متحرر"، تاريخ شرق أوروبا المهجور ٣٢ (١٩٨٣)، ص. ١٧٩، ١٨٠، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٦؛ ديبينو، تاريخ عالم، الجزء الثامن، ص. ٣١٧، ٣٦٤.

الرجل على رأيه ونعت اليهود بأنهم "متشردون وعاطلون" ولا يمكن للمرء التعايش معهم. كانت هذه الأنماط التقليدية المنطبقة في الأذهان التي استمرت في تشكيل صورة اليهود حتى القرن العشرين تظهر في ذلك الوقت بصفة متكررة. وقد ذهب كاجيتان كوزميان (١٧٧١-١٨٥٦) أبعد من غيره في عام ١٨١٧ حين قال:

من الخطأ الاعتقاد بأن التلمود وحده يجعل منهم يهودا: فنمط حياتهم أيضا يسهم في هذا... فهم يؤمنون بالخرافات، وجهلة، ومتشردون، وتجار، وصرافون، وفي العموم يبدلون قصارى جهدهم لتجنب العمل بأنفسهم والعيش من كد الآخرين ودفع ثمن حياة مريحة من خلال المكر والخديعة. في الواقع لقد قال إن اليهود ليسوا بولنديين حيث أن "الدم البولندي" لا يسري بعروقهم. رغم أنه شخصيا آمن أن ما اعتبره هو أنشطة وساطة يهودية سلبية يمكن أن يأخذ شكلاً إيجابياً وأن الاندماج والتكامل الكلي لازالا ممكنين، فقد غرس موقفه بذور النبذ العرقي لليهود. وجهت الهجمات العنيفة ضد اليهود بشكل خاص إلى جهود مندوب بولندا المعين من قبل القيصر، السيناتور كونت نيكولاي نيكولايفيتش نوفوسيلتسيف (١٧٦١-١٨٣٦)؛ تلك الجهود التي لا تبين في الدستور. كان الكونت في روسيا قد أصبح بالفعل عضواً في "لجنة مصلحة اليهود" والتي أعدت قانوناً تم إقراره عام ١٨٠٤ بشأن اليهود في الإمبراطورية القيصرية. لم يال نوفوسيلتسيف جهداً للتوصل إلى حل عادل. بيد أنه من المؤكد لم يرغب في أن يقطع الشوط الذي قطعه رجل الدولة الروسي الكونت ميخائيل ميخائيلوفيتش سبيرانسكي (١٧٧٢-١٨٣٩) في عام ١٨٠٣ والذي رغم تمتعه بنفوذ شديد في ذلك الوقت لم يكن باستطاعته يقينا أن يتوصل إلى إقرار أفكاره:

إن الإصلاحات التي قدمتها الدولة في عمومها غير دائمة ولا يمكن التعويل عليها في الحالات التي يتعين فيها على الحكومة النضال ضد

عادات جرت لقرون من الزمان. لذا، قد يبدو أن الأمر الأكثر ملائمة والذي يمكن التحويل عليه بشكل أكبر هو معاونة اليهود على تحسين أنفسهم والاقترار على مجرد فتح السبل التي تفيدهم أمامهم والإشراف على تحركاتهم فقط عن بعد وإبعاد أي شيء من شأنه أن يضلهم عن هذا الطريق دون استخدام أية قوة أو إنشاء أية مؤسسات خاصة. بدلا من العمل من أجلهم (اليهود)، يجب معاوتهم على التطور. الحد الأدنى من الحظر والحد الأقصى من الحرية، هذان هما العنصران الرئيسيان لكل ترتيب اجتماعي.

في البداية قام نوفوسيلتسيف بعرقلة صدور قرارات محكمة لليهود، وأخيرا في عام ١٨١٧ تقدم بمشروع "قوانين شاملة لليهود المقيمين في مملكة بولندا". بموجب هذا القانون يتمتع اليهود المتعلمون والأثرياء بكافة الحقوق المدنية ومن ثم يمكنهم تولي مناصب حكومية وسياسية. وفقا لهذه القوانين يمنح يهود آخرون حقوقا مدنية أقل خاصة فيما يتصل بالنشاط الاقتصادي. بدلا من القهال، يكون هناك مجلس إدارة يتولى رئاسته حاخام قوي. كان نوفوسيلتسيف يرغب في السيطرة على الحسيدة وغيرها من "المذاهب". بموجب هذا القانون، تظل الجالية اليهودية مسئولة عن دفع الضرائب وتقديم حصتها من المجندين. فوق كل هذا، تنبأ نوفوسيلتسيف بالتوقف عن منح اليهود رخص جديدة للحانات وحظر الإتيار بالدين أو المقايضة وكذلك بيع البضائع في الريف. وقد أراد نوفوسيلتسيف أن يتم تعيينه شخصا "وكيلا ملكيا للأعمال" في شئون القضية اليهودية كي يحمل طبقة الإقطاعيين من النبلاء على التصديق على تفاصيل قانونه هذا وبطبيعة الحال ليوسع من نفوذه.

بيد ذلك، أبى النجاح أن يحالف حتى مندوب القيصر. فالنبلاء البولنديون - مثلهم مثل المواطنين البولنديين بالمدن المستقلة - لم يكونوا مستعدين للتضحية بمصالحهم. في الوقت ذاته، أصبح اليهود منافسين

اقتصاديّين للفريقين ولم يعودوا وسطاء بينهما ولو لمصلحة النبلاء . إضافة إلى ذلك، كان هناك تأثير القوى المحافظة في روسيا والتي كانت تعرف كيفية الحؤول دون إجراء إصلاح مؤيد لليهود .

رد فعل اليهود على الظروف السياسية والفكرية والدينية الجديدة إن كلمات اليهود أنفسهم في هذه المناقشات هي كلمات مثيرة للاهتمام . كما ذكرت مسبقاً، أن تابعي الحسيديّة كانوا على استعداد للتنازل عن الحقوق المدنية مقابل الاحتفاظ بعبادتهم وثقافتهم ونمط حياتهم . على أي حال، كان الكثيرون منهم غير مهتمين بالسياسة : "قام الروس والبروسيون والنمساويون بتقسيم بولندا بينهم ولكن أعضاء الحسيديّة الروسية قاموا بزيارة الحاخام النمساوي وأعضاء الحسيديّة النمساوية زاروا بدورهم الحاخام في روسيا ."^{٤٩} حتى اليهود الأرثوذكس وأوليغاركية القهال لم يزعجوا أنفسهم على وجه الخصوص بتحسين ظروفهم المعيشية . كانوا يخشون من أن المساواة الكاملة ستُضرب بوضعهم السياسي والاجتماعي . في هذا الصدد تمنوا أحياناً أن ينالوا مساعدة القيصر ألكسندر الأول (١٧٧٧-١٨٢٥) . على الجانب الآخر، أراد مؤيدو التقسيم الطيقي الصارم للمجتمع إلغاء القهال والاندماج مع الإدارة المدنية للبولنديين . في ذلك الوقت عادت الأفكار التنويرية لتحل الصدارة . على سبيل المثال مندل ساتناور (يعرف أيضاً باسم مندل ليفن، ١٧٥٠-١٨٢٣)، والذي أجرى اتصالات مع مندلسون وميمون في برلين ثم أصبح معلماً في منزل الأمير آدم تسارتويسكي، أيد الإصلاح التعليمي الجذري والتحسينات المادية لجماهير اليهود . لقد ناضل ساتناور بضراوة ضد الحسيديين الذين في رأيه أبقوا على الناس في غياهب الجهل . لقد جازف اليهود

^{٤٩} سينجر، حب قديم ("جوشنا وشميلكه")، ص. ١٧ بالكامل.

"المتورون" الذين فضلوا الاندماج - الماسكيليين أو "المفكرون" - والذين تواجدوا في الطبقة الثرية من المجتمع جازفوا بمصائرهم مع حزب الإصلاح البولندي وفي مقدمتهم الأمير تسارتوريسكي. في نهاية عام ١٨١٥ تقدموا بأفكارهم هذه إلى القيصر وبعدها تمتعوا ببعض النفوذ على ممثله نوفوتشيلشيف. لقد كانت نقطة انطلاق الماسكيليين هي التحيزات المسبقة في المجتمعات غير اليهودية وكانوا على استعداد لقبول نظام قانوني يفرق بين طبقتين من طبقات المجتمع. الطبقة الأولى طبقة "الإسرائيليين المميزون" - أي هم - تحصل على كافة الحقوق، بينما جمهور اليهود الذين "ستمسكون برذائلهم المميز وعاداتهم" لا يحصلون سوى على "الحقوق المدنية المعتادة" لأن "ظروفهم ومعرفتهم محدودة".

تنوعت مواقف اليهود ما بين الرغبة في الحصول على حقوق مساوية للبولنديين ولو حتى على حساب الخسارة الثقافية وبين نبذ هذه الحقوق والدعم الاقتصادي من أجل العيش بالطريقة التي ألفوها. لقد عكس هذا التباين الانقسام الديني الذي ظهر إلى حيز الوجود في القرن الثامن عشر. من جانبهم قام الحسيديون بمسيرة النصر الخاصة بهم بشكل أساسي في جنوب وجنوب شرق بولندا الذي أصبح الآن يعرف باسم جاليشيا النمساوية وأوكرانيا. في كل مكان دارت صراعات ضارية مع الاتجاه الحاخامي والمسناجدين الأرثوذكس - "الخصوم". قام الحسيديون الذين تمنوا أن يروا "أسرار الرب التي توجد في أشياء بسيطة" بتوبيخ المسناجدين لإغفالهم "الجذور الحقيقية" للأشياء في غمار "الدراسة المفرطة". لها^{١٠} لقد

^{١٠} هينسيل، "أمة بولندية من النبلاء"، ص. ١٧٤ بالكامل (مذكرة

١٨١٥) تختلف التفاصيل حول تواريخ

^{١١} شموئيل يوسف أجنون، المنبوذ (فرانكفورت، ١٩٨٨)، ص.

١٠٨-١٠٩.

نبد كل من الفريقين أتباع الفريق الآخر من الجماعات اليهودية المختلفة وجرت الكثير من المواجهات الدامية. أدت هذه الخلافات المريرة إلى تحويل النهج الأصلي وحتى التحرري للحسيديين في كثير من الأحيان إلى نهج متصلب طبقي للغاية يتبنى المذاهب القديمة لأسر الصدوقيين الحاكمة وفكرة "الحاخامات صانعي المعجزات". مرارا وتكرارا كان هناك انتقاد لتنامي جماعة الصدوقيين. على سبيل المثال رغب حفيد البيشت- الحاخام نامان واعظ براكلوف (١٧٧٢- ١٨١٠) - بتعاليمه وحكاياته الرمزية في العودة إلى الاقتراب من الناس والتقوى الداخلية. في ذات الوقت، في خضم البحث الدؤوب عن الله ومحاولات الإسراع بالخلاص المتأثرة بالشبتانية والفرانكية، وجدت الشكوك طريقا لها في المواعظ الدينية مما دفع بالكثيرين إلى التوجه للتقدميين.

أخذ الصراع بين الحسيديين والمسناجديين في روسيا البيضاء وليتوانيا مظهرا عنيفا بلغ أوجه في فيلنا (تسمى الآن فيلنيوس في ليتوانيا)، "قدس ليتوانيا". كانت فيلنا معقل الحاخامية المذهبية ولكنها كانت أيضا معقل التنوير اليهودي المتأثر بالألمانية أو ما يسمى الهاسكالا. وقد قاومت جميع الاتجاهات الورعة في اليهودية- مهما اشتدت معارضتها لبعضها البعض- هذه التطور بوصفه "شيطان من الجحيم". كان يطلق على أتباع هذا الاتجاه "البرلينيين". نتيجة لذلك، كان تأثيرهم في هذه المناطق- آنذاك - محدودا قبل انتهاء القرن. كان المرجعية المتفق عليها للحاخامية هو إيشا بن سولومون (١٧٢٠- ١٧٩٧) /الحاؤون او "القيم" (الروحي) في فيلنا الذي هاجم الحسيديين منذ البداية قائلا: في الحسيديين تطفئ المشاعر بينما ينبغي أن يقوم الدين على الالتزام "بالشرائع". يجب التوصل إلى هذه الشرائع من خلال دراسة التلمود غير أنه بمجرد العثور عليها يجب اتباعها في طاعة عمياء. بدلا من الطريقة التقليدية -/البيلبول- التي

غالباً ما تثير الارتباك، قام إليشا بوضع طريقة موضوعية للتحليل لتفسير التلمود.

كان الخصم الرئيس لإليشا، الحاخام شنوير تسالمان (١٧٤٨-١٨١٣) إصلاحياً كذلك. حاول تسالمان تجديد الحسدية وقد كان يعظ قائلاً أنه يجب على الفرد ألا يستسلم فقط لمشاعره بل أن يضعها أيضاً قيد السيطرة الواعية. تفعل هذا كان من الضروري دراسة التوراة، لا من أجل الالتزام التام بالشرائع ولكن من أجل التقرب من الرب من خلال الكلمة المقدسة. يجب على الجميع الخضوع لمناخ ثلاث - الحكمة (هوخاما) والفهم (بيننا) والمعرفة (دبعت) - للروح القدس. سمي هذا الاتجاه باسم مكون من الحروف الأولى للكلمات العبرية الثلاث المقابلة لهذه المفاهيم فعرف باسم حسيدية هاباد. كان شنوير تسالمان ينتمي إلى جماعة من المصلحين الذين تحلوا عن النزوع المفرط إلى الطقوس الطائفية وممارسة السحر وسعوا إلى العودة للتعاليم البسيطة والإيمان الشعبي. بناء على هذا لم يمكن للصدوق سوى أن يصبح بطلاً للمؤمنين.

في مايو ١٧٩٦، بعيد فترة قصيرة من التقسيم الثالث لبولندا حين كان الحسيديين يبادرون بالهجوم مرة أخرى، قام إليشا جاون بإحياء ودعم حركته السابقة لفرض الحرمان الكنسي على "المهرطقين". فقد رأي أن وحدة الدين عرضة للخطر. وقد رفض جاون بفظاظة طلباً لإقامة مناظرة تقدم به شنوير تسالمان. في ذلك الوقت كانت العديد من الجماعات اليهودية تشهد صراعات دموية. بعد هذا بعام توفي الجاون وأصرت الحسدية في فيلنا على الاحتفال بوفاته. بمشاعر طاغية ملؤها الرغبة في الانتقام، كرر التهمال في فيلنا قرار الحرمان الكنسي ورفض قادة الحسيديين من السلطات القيصرية زاعماً أنهم سيثيرون القوى المعادية للدولة. في هذا الوقت لم يكن هناك سوى آثار طفيفة للتعاليم الدينية في هذا النزاع. في عام

١٧٩٨، تم إلقاء القبض على عدد من الحسيدين غير أنهم استطاعوا إقناع السلطات ببراءتهم. حتى أن القيصر بول الأول (١٧٥٤-١٨٠١) اهتم بالمسألة. بعد إطلاق سراحهم، خطط الحسيديون للثأر بأنفسهم. من خلال توجيه تهم الرشوة والابتزاز، استطاع الحسيديون أن يتسببوا في إقالة الأعضاء الكبار بالتهمال وانتخاب حسيدين أو من يتعاطف معهم بدلا منهم. انقسمت الجماعة اليهودية على نفسها وألقى كل فريق على الآخر أفضع الاتهامات. تم إلقاء القبض على شنوير تسلمان مرة أخرى ولم يطلق سراحه إلا بعد انقلاب القصر عام ١٨٠١ الذي أتى بالكسندر الأول لتولي مقاليد السلطة. كان قانون ١٨٠٤ بشأن اليهود الروس أيضا رد فعل على هذه الصراعات: نجح الحسيديون الآن في أن يكون لهم معابدهم وحاخاماتهم الخاصة بهم. بيد أنه في الوقت ذاته ظلت إدارة التهال قائمة.

الإمبراطورية القيصرية واليهود

قبل تقسيمات بولندا، كان يتم قمع المسألة اليهودية بشكل اصطناعي في الإمبراطورية الروسية. في الأصل في روسيا كيف لم يكن هناك عداً ضد اليهود على وجه الخصوص. كان من الممكن للمرء مصادفة التجار اليهود في كل مكان وعلى ما يبدو كان اليهود يعيشون في مستوطنات أيضا. كان هذا الأمر ذا صلة بغزو دولة الخزر. فيما سبق، كما قد ذكرنا جماعة خزر كيف التي أعلنت عن إيمانها باليهودية الحاخامية والصراعات التي شهدتها عام ١١١٣. بيد أنه كلما ازدادت قوة الكنيسة الأرثوذكسية، تكشفت نزعات مناهضة لليهودية أكثر وأكثر. لكن بخلاف ألمانيا أو بولندا، لم تجد أفكار الحروب الصليبية أو أساطير استخدام الدماء البشرية في الشعائر الدينية صدى كبيرا لها في روسيا.

في "روسيا موسكو" في أواخر العصور الوسطى وبواكير الحداثة، قويت شوكة الحركات المعادية للسامية التي تدعمها الدولة. هناك روايات عديدة تحكي أنه بعد الإطاحة بنظام الحكم المنغولي وبدء الدولة الجديدة في التوسع، اضطّر اليهود في الأراضي التي تم غزوها إلى أن يتخلّوا عن دينهم أو يقتلوا. وصلت هذه الأعمال الوحشية إلى ذروتها تحت حكم القيصر إيفان الرابع (١٥٣٠ - ١٥٨٤) الذي حظر التجارة اليهودية خوفاً من تقلص الأرثوذكسية الروسية في غمار الدين الغريب. وقد لعبت العلاقة الوثيقة بين الأوتوقراطية القيصرية والكنيسة الأرثوذكسية الروسية دوراً هاماً في هذا الصدد. فقبل نهاية القرن الخامس عشر، انتشرت الحركة الهرطقية جودايزر (المتهودين) من نوفجورود. رغم الجدل الناتج حول أهمية هذه الحركة فإنه يمكن استغلالها كمناسبة أو مبرر للموقف المعادي للسامية الذي تبنته كل من الأرثوذكسية والدولة الروسية. الأمر المؤكد هو أن الصراعات الداخلية على النفوذ الكنسي في هذا الوقت قد لعبت دوراً هاماً أيضاً. تم قمع حركة المتهودين بوحشية. يبدو أنه قرابة منتصف القرن السادس عشر، قام الراهب فيودوسي كوسوي الذي فر هارباً من روسيا بالتشدد بأقوال مهرطقة مماثلة في ليتوانيا. ربما كان لهذا أثر مباشر على إيفان الرابع. رغم أنه في بولندا مثل المتهودون إلى جانب حركة العسكرية المناهضة للإصلاح أساساً لشعارات معادية للسامية، قام الناس في روسيا بصفة متكررة بالخلط بين اليهود والبولنديين الذين كانوا غالباً في حروب معهم. اشتد هذا الأمر أثناء فترات الاضطراب في بداية القرن السابع عشر. في وقت من الأوقات كانت القوات البولندية تحتل موسكو، وفي عام ١٦١٠ تم انتخاب الأمير البولندي فيلاديسلاف (١٥٩٥ - ١٦٤٨) لمنصب القيصر رغم أنه لم يستطع اعتلاء العرش أبداً. كان المطالبون بالعرش الذين تقدموا في عدة مواقف بمزاعم زائفة بأنهم أبناء القيصر

ينعتون من آن لآخر بأنهم "يهوديو" المولد لتشويه سمعتهم. على الجانب الآخر كان هناك على الدوام جماعات يهودية صغيرة في روسيا وبصفة رئيسية في المدن الكبرى. كان التجار اليهود أول من أسس أعمالاً هناك.

منذ منتصف القرن السابع عشر انقلبت الأمور رأساً على عقب. أصبحت الإمبراطورية الروسية قوة عظمى على حساب بولندا وضمت إلى أراضيها المزيد من الأراضي البولندية- الليتوانية على أثر حروب عديدة. لم تكن هناك تحت حكم بطرس الأعظم (١٦٧٢- ١٧٢٥) أية حركات معادية للسامية، فقد حكم كرجل عادي من عصر التنوير يتسم بالتسامح الديني؛ الأمر الذي تغير في عهد خلفائه. لقد تارجحت السياسة في القرن الثامن عشر ما بين محاولات لطرد اليهود من الأراضي الخاضعة لروسيا - كانت أولى المحاولات عام ١٧٢٧ - والتي كانت جزءاً من بولندا في الماضي وما بين إجراءات من أجل إبطال قرارات الطرد هذه لمبررات اقتصادية بشكل أساسي. كانت أقوى أوامر الطرد قد صدرت عن القيصرية إليزابيث (١٧٠٩- ١٧٦٢) في عام ١٧٤٢. عندما تقدم تجار ريجيا بشكوى في مجلس الشيوخ مشيرين إلى السلبيات الاقتصادية التي نشأت حين توقف الوسطاء من اليهود عن العمل بالتجارة مع بولندا وصدق مجلس الشيوخ على هذا الرأي نفسه في التماس لها، ردت القيصرية عليهم قائلة: "لا أريد أرباحاً من أعداء المسيح".^٢ في عام ١٧٤٤ قامت إليزابيث بحظر زيارة روسيا على اليهود.

كان لهذا النبذ لليهود أيضاً مناحيه الإيجابية. لأنه كان هناك إلى حد ما عدد قليل من اليهود، لم يكن من السهل للأنماط المعادية

^٢ جون دويل كلير، روسيا تحشد يهودها. أصول "المسألة اليهودية" في روسيا، ١٧٧٢- ١٨٢٥ (ديكالب، إلينوي، ١٩٨٦)، ص. ٣٤.

للسامية كذلك التي كانت شائعة في بولندا أن تنتشر في روسيا بنفس السرعة مما سهل الأمور أمام السياسات التنويرية المؤيدة لليهود التي اتجهتها القيصرية كاثرين الثانية (١٧٢٩-١٧٩٦). في عام ١٧٦٣ وبعد عام من توليها السلطة قامت كاثرين في البداية بتجديد الحظر السابق. في ظل الظروف الغامضة للانقلاب الذي تزعمته والذي أسفر عن اغتيال زوجها بطرس الثالث (١٧٢٨-١٧٦٢)، كانت كاثرين بحاجة إلى دعم الكنيسة ولم تستطع أن تدخل في نزاع معها. بعد التقسيم الأول لبولندا عام ١٧٧٢، أصبح اليهود سكانا للإمبراطورية الروسية على نطاق واسع ولم يعد من الممكن وضع المشكلة في جانب واحد. كان ينبغي التعامل مع المسألة اليهودية بوسيلة غير الحظر والطرْد.

في عام ١٧٧٢ في إطار سياستها الاستعمارية، سمحت كاثرين لليهود بزيارة روسيا دون قيود معينة. لقد قويت شوكة البراجماتية الاقتصادية والسياسية التي تنتهجها بشكل كبير بأثر التفكير التنويري. لم يكن لفلاسفة التنوير أية تحيزات دينية ضد اليهود؛ بل أرادوا أن يجعلوا منهم مواطنين صالحين لهم نفس الحقوق والواجبات التي لغيرهم رغم أن هذا جاء على حساب تدمير الاستقلالية والثقافة اليهودية. لقد صادفنا من قبل هذين الجانبين للتنوير بين الإصلاحيين البولنديين. يجب تحرير الناس من ظلمات الخرافة والتحيز أما هذا التحرر من "عدم النضج الذي يحلبه المرء لنفسه" (كما كتب كانت في أولى جملة بمقاله المعنون "إجابة لسؤال: ما هو التنوير؟") فقد يعني أن "الحضارة" فرضت فرضا وأن أساليب الحياة القائمة تم "استعمارها" (هايرماس). بدأ الملوك المتورون أمثال فريدريك الثاني من بروسيا (١٧١٢-١٧٨٦) أو جوزيف الثاني من هابسبورج (١٧٤١-١٧٩٠) في منع المعاملات التجارية التي كانت تعد "غير مثمرة" - كالبيع المتجول وإدارة الحانات وتقطير

الشراب - لإلغاء الحق في الاستقلال وللتحكم في جميع مناحي حياة رعاياهم. علاوة على ذلك، جلبت كاثرين إلى روسيا أفكاراً حول تقسيم صارم للطبقات الاجتماعية - طبقة النبلاء ورجال الدين وأهالي المدن المستقلة والفلاحين الأحرار والخدم - التي ببساطة لم تلائم البلاد. فعلى سبيل المثال، كان الفارق بين الريف والمدينة في روسيا أقل منه في الغرب كما ظلت الحدود بين أهل المدن والفلاحين متغيرة من آن لآخر. عندما قامت كاثرين آنذاك بتأسيس الكثير من المدن الجديدة، ومنحت المدن القائمة ذات الأسواق الصغيرة ترخيص المدن وأصدرت قراراً مؤسساً للنقابات العمالية على أمل خلق مجتمع مدني منظم؛ كانت بذلك تخالف التقاليد الروسية. من ثم، ذهبت معظم هذه الإجراءات طي النسيان. بيد أنه بالنسبة لليهود كانت لهذه الإجراءات انعكاسات هامة. وفقاً لنظرة كاثرين للمجتمع، كان اليهود من حيث أنشطتهم الاقتصادية السائدة ينتمون إما لطبقة أهل المدن ذات الحكم الذاتي بوصفهم تجاراً (كوبتسي) أو لطبقة المواطنين من الطبقة الدنيا (ميشخاني). رغم ذلك، فإن اليهود في معظمهم قد عاشوا في الريف. لذا، فإن ما كان يقصد به أن يكون تحريراً أصبح في نهاية الأمر جارحاً للغاية.

علامة أخرى من علامات التنوير كانت الإشارة إلى اليهود في ذلك الوقت في الوثائق الروسية بكلمة "العبريين" (إيفري) بعبارة أخرى كجماعة دينية، بينما استخدمت كلمة "يهودي" (زيد) والتي ترتبط بها الخصائص القومية لليهود في اللغة الدارجة أو بغرض الإهانة والانتقاص من قدرهم. على أي حال، بعد تقسيم بولندا الأول، ساوت السياسة القيصريّة في البداية بين اليهود وغيرهم من فئات المجتمع الأخرى. تمخضت الحاجة إلى ضمان جباية الضرائب المطلوبة وتحقيق درجة معينة من السيطرة الاجتماعية التي لم تكن البيروقراطية كافية لضمانها عن السماح لليهود بالاحتفاظ باستقلالية

مجالس القهال - مثلهم في ذلك مثل حق الأوبشين أو كوميونية
الفلاحين في الحكم الذاتي في حدود . لفترة قصيرة، سبقت روسيا
جميع الدول الأوروبية الأخرى فيما يتعلق بمنح حقوق مساوية
 لليهود . بيد أن الحقوق المساوية جلبت معها أيضاً قوانين جديدة .
على سبيل المثال في عام ١٧٨٢ صدر أمر لأول مرة يلزم "أهل
المدن" - الفئة التي تتضمن اليهود بشكل واضح - بأن يعيشوا في
المدن . أتاح هذا الأمر إمكانية نقل اليهود من الريف إلى المدينة . بعد
هذا القرار بعام منح حق تقطير الكحول لملاك الأراضي الزراعية
الكبيرة فقط . في البداية كان لازال بوسع الإقطاعيين الكبار تأجير
حقوقهم من الباطن لليهود، لكنهم نجحوا في استغلال القوانين الجديدة
لإكراه اليهود على ترك مجال العمل هذا . سرعان ما حاول الناس
التحارب على الحقوق الممنوحة لليهود . في البداية لم تلق هذه المحاولات
نجاحاً يذكر، لكن بمرور الوقت وخصوصاً بعد التقسيم الثاني
والثالث لبولندا حين انضمت أعداد أكبر من اليهود إلى رعايا
القيصر، اتخذت خطوات أكثر في الاتجاه المعاكس . على سبيل
المثال، منذ عام ١٧٩٤ فرض على اليهود في مقاطعات معينة -
شأنهم شأن غيرهم من الأقليات الدينية - دفع ضعف مبلغ
الضرائب ليساعدوا في دعم الأحوال المالية للدولة بعد الحروب
العديدة التي خاضتها .

استجابة لشكاوى تجار موسكو من أن منافسة اليهود المتدققين
إلى البلاد في ذلك الوقت زادت من صعوبة الأمور عليهم بشكل كبير؛
أعلنت كاثرين الثانية في ٢٣ ديسمبر ١٧٩١ منع اليهود من العيش في
أراضي روسيا الأصلية . اضطر اليهود أن يلتزموا بالعيش في المناطق
التي ضمت حديثاً من بولندا وما أطلق عليه "روسيا الجديدة"
وأجزاء من سواحل البحر الأسود ضمت من تركيا ويجب إقامة
مستعمرات بها . لطالما اعتبرت هذه الحركة نقطة البداية لسياسة

معادية لليهود بشكل واضح. بيد أنه على الأرجح كانت هذه الإجراءات تقصد حماية تجار موسكو أكثر منها التمييز ضد اليهود. لم يتم إبعاد اليهود عن موسكو لأنهم يهود بل لأنهم يمثلون منافسة لا حاجة إليها. علاوة على ذلك، تم تقييد حرية حركة معظم فئات السكان بالإمبراطورية الروسية. رغم كل ذلك، بقرارها هذا، وضعت كاترين أسس ما يطلق عليه اسم "مقاطعة الاستيطان" التي لم يكن باستطاعة اليهود، إلا في بعض الحالات الاستثنائية، مغادرتها حتى الحرب العالمية الأولى.

تم تأسيس المقاطعة بصفة رسمية في روسيا بموجب "قانون اليهود" الذي تمت صياغته منذ فترة طويلة وتم التصديق عليه عام ١٨٠٤. عبر هذا القانون عن وجهة النظر - التي أصبحت في الوقت ذاته سائدة بين الصفوة من الروس - أنه يجب "تحسين" اليهود أولاً ودمجهم بالمجتمع قبل منحهم الحرية. على سبيل المثال بعد فترة ست سنوات ينبغي على اليهود كتابة حساباتهم المصرفية فقط "بلغة رسمية" غير يهودية ويجب على أصحاب المكاتب ألا يرتدوا ملابسهم بالأسلوب اليهودي. منحت لليهود حرية التجارة والعمل باستثناء إدارة الحانات وما شابهها من أنشطة الوساطة التي يزعم أنها أفسدت الفلاحين. تعويضاً عن هذا قدم القانون لليهود فرصة إعمار الأراضي بمعونة الدولة بصفة رئيسية في "روسيا الجديدة". في واقع الأمر كانت هناك مبادرة موازية في مقاطعة خيرسون أيضاً حيث انتقل إلى هناك عدة آلاف من اليهود غير أنهم وجدوا ظروفًا فوضوية للغاية وتجهيزات غير كافية من قبل السلطات فاضطروا لترك المشروع عام ١٨١٠.

علاوة على ذلك، فقد تبنت السياسة المتنورة الاستبدادية للقيصر ألكسندر الأول فكرة كاترين الثانية بوجوب مغادرة اليهود للقرى التي يعيشون فيها جنباً إلى جنب مع الفلاحين المسيحيين. برر

ألكسندر تصرفاته على أساس حماية الفلاحين من "الاستغلال" اليهودي. مرتان، في عام ١٨٠٨ وعام ١٨٢٣ قامت الدولة بإعادة توطين جبري لليهود. غير أنه في المرتين أخفقت في إكراه اليهود على ذلك. جثم أمر إعادة الاستيطان هذا على صدر اليهود القاطنين في القرى كخطر مستمر وجرت محاولات مماثلة في مناطق متفرقة فيما بعد. تدريجياً، بدأت الأفكار والأنماط السائدة في أذهان الناس حول اليهود والتي كانت ذائعة في بولندا في الظهور في روسيا. تجسدت هذه الأفكار في شخصية صاحب الحانة و"يهودي القرية" الجشع المخادع التي ميزت قانون عام ١٨٠٤ واثرت على فكر الكثير من الساسة والكتاب. كان الاعتقاد السائد أن اليهود متخلفون وأن دينهم خطير. انطلاقاً من الجهل، صدق الناس الأكاذيب حول التلمود والتشريعات الدينية اليهودية؛ لقد دعمت غرابة اليهود بشكل خاص التحيز ضدهم. من الشهادات الأدبية القليلة المبكرة التي أظهرت بالرغم من الأنماط الكثيرة السائدة في الأذهان قدراً من التعاطف مع اليهود شهادة "خطابات رحالة روسي" لنيكولاي كارامزين ١٧٨٩-١٧٩٩ (١٧٩١-١٧٩٧) في رسمه للجيتو اليهودي في فرانكفورت.

حتى مجموعة المتأمرين التي كونت الديسمبريين المتأثرين بحركة التنوير والمؤيدين للإصلاح، وقد أطلق عليهم هذا الاسم بسبب قيامهم بالثورة في ديسمبر ١٨٢٥، وقعت في براثن النظرة السائدة تجاه اليهود. لقد اهتم بافل بيسل (١٧٩٣-١٨٢٦) باليهود في إطار مشاريعه لإصلاح البلاد. فقد اعتبر أن اليهود حُجَرٌ عثرة في طريق إنشاء دولة تقدمية لأن ولاء اليهود كان موجهًا بصفة أساسية إلى بعضهم البعض لا إلى البلاد ويرجع ذلك إلى أن الحاخامات يتمتعون بسلطة كبيرة على اليهود وأبقوا على جميع العناصر التنويرية أو النزاعة للاندماج بالقرب منهم. وأخيراً لأن اليهود يعتبرون أنفسهم الشعب المختار الأفضل من جميع الشعوب الأخرى. رأى بيسل

حلين ممكنين: إما الحصول على موافقة الحاخامات وغيرهم من الزعماء اليهود للعمل سويًا مع الحكومة أو طرد اليهود إن أمكن إلى آسيا الصغرى حيث يستطيعون عندئذ إقامة دولة مستقلة. لم يكن ويستيل أول من تطرق إلى فكرة دولة يهودية مستقلة. لكن من الآن فصاعدًا سيلجأ هذا الاحتمال الذي تمخض عن أكثر النوايا تنوعًا واتخذ أشكالًا متعددة دورًا أعظم مما قدر له.

ظلت الخطوط العريضة لسياسة الدولة تجاه اليهود كما صيغت في عهد حكم الكسندر الأول للإمبراطورية الروسية وبلولندا منذ ١٨١٥ كما هي قائمة في عهد نيقولاس الأول (١٧٩٦ - ١٨٥٥). رغم ذلك، ازداد التدخل في أسلوب حياة اليهود بشكل ملحوظ رغم أنه لم يعد مبعثه الوحيد الرغبة في "تعليم" أو "تحسين" اليهود. فرضت المزيد من الالتزامات على اليهود دون منحهم أية حقوق جديدة. على سبيل المثال منذ عام ١٨٣٥ كان على اليهود الالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية وهو واجب لم يتمكنوا من التملص منه إلا بصعوبة بالغة. حتى الصبية ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة كانوا يلتحقون بتدريب قبل عسكري إلزامي. لأن هذا النوع من الخدمة نادرًا ما يتفق مع شعائرتهم الدينية، انخرط الكثير من اليهود في المقاومة السلمية ولجأوا إلى المخابيء والفرار من أوطانهم أو حتى تشويه أنفسهم بعد أن أخفقت الاحتجاجات ومحاولات تقديم الرشاوى لتفادي الخدمة العسكرية الإلزامية. هؤلاء الذين كانوا لا يملكون نقودًا شوهوا أنفسهم... فحسب منطقهم الماهر (اليهود من شرق أوروبا) أن تعيش أعرج أفضل من أن تموت موفور الصحة. أكدت هذه النظرة للأمور تقواهم. لم يكن من الغباء وحسب أن يموت الفرد من أجل الإمبراطور، أو القيصر، وإنما كان إثما أيضًا أن يحيا المرء حياة مخالفة للتوراة ووصاياها. كان من الخطايا أكل لحم

الخنزير وحمل السلاح يوم السبت والتدريب ورفع اليد ناهيك عن رفع سيف على غريب بري^{٥٣}.

في بواكير عام ١٨٢١، تم إدخال نظام "الإشراف المعبدي" إلى بولندا ومن ثم ألغى القهال كمنظمة اجتماعية بعد هذا بعام. في العام ذاته، تم أولاً حظر المنظمات أو المجتمعات اليهودية/الهيفرا كاديشا (المجتمع المقدس) المسؤولة عن إقامة مراسم الدفن. في عام ١٨٤٤ قام القيصر نيقولاى بتوسيع نطاق هذه القوانين لتشمل الإمبراطورية الروسية بالكامل. اتسوى القيصر حل جميع المنظمات اليهودية المستقلة غير أن محاولاته باءت بالفشل. في مواجهة صعاب جسام، ظلت معظم المنظمات تعمل بشكل غير قانوني - سواء بموافقة السلطات المحلية أم لا. أكد اليهود وجودهم من خلال منظماتهم المستقلة كما احتفظوا بدرجة كبيرة بتمثيل حقوقهم في مجتمعاتهم. بالمثل، تم التحايل على الأوامر المتعلقة بالزى عند اليهود والتي حظرت بشكل كبير ارتداء الرداء اليهودي المميز بصفة يومية. أسهمت هذه الدرجة العالية من الاستقلالية - التي دافعوا عنها تحت ظروف في غاية الصعوبة - بشكل كبير في اتحاد اليهود وتقدير الذات اللذان كانا في جميع الصراعات سمت الحياة اليهودية في شرق أوروبا حتى القرن العشرين.

لم تلغ الضريبة الكوميونية-الكروبيكا- التي كانت تدفع على الأطعمة الشعائرية والأوعية المستخدمة في المراسم الدينية كلحم الناتج والشموع؛ الأمر الذي صدم الأعضاء الأفقر في المجتمع على وجه الخصوص بصورة قاسية. بل وتحولت هذه الضريبة إلى ضريبة دولة. في عام ١٨٥٦ حدث تحول مؤقت نحو الأفضل في ظل عصر

^{٥٣} جوزيف روث، "يهود التيه" (١٩٢٧/١٩٣٧)، تحرير هيرمان كيسن، الجزء الثالث (كولونيا، ١٩٧٦)، ص. ٢٩٣ - ٣٦٩، هنا ص. ٣٤٥ بالكامل.

الإصلاح الذي أقامه الكسندر الثاني (١٨١٨ - ١٨٨١) الذي وضع تصورا لعملية تحريرية "انتقائية" تتم بصورة تدريجية لليهود والذي قلد في كثير من المناحي عصر الكسندر الأول.^٤ على سبيل المثال، كانت التصاريح الصادرة ما بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٧٩ التي تسمح لليهود بمغادرة مقاطعة الاستيطان متاحة "للدوائر الأفضل" في الشعب اليهودي بروسيا: أي التجار من الدرجة الأولى وحاملي الشهادات الأكاديمية ومهنيين منتمين للنقابات وأخيرا أي شخص حاول الالتحاق بجامعة أو مؤسسة تعليمية مماثلة. في عام ١٨٦٧ منح الجنود المسرحون - معظمهم كان قد قضى في الخدمة العسكرية عشرين عاما أو أكثر - حق حرية الحركة. بيد أن الأمر لم يتجاوز كونه طفرة متواضعة للطبقات الدنيا.

وجد اليهود بعض الراحة والهناء في الريف. تحت ظروف معينة كان يسمح لهم ببيع المشروبات الكحولية مرة أخرى. كان يسمح لهم أيضا الاشتراك دون قيد في التسيمة تسفا - أجهزة للحكم الذاتي المحلي أدخلت عام ١٨٦٤ بصدر قرار إصلاح النظام القضائي أو في قانون الخدمات العسكرية العالمي لعام ١٨٦٤. اختلف الأمر فيما يتعلق بالإصلاح الريفي لعام ١٨٧٠ حيث لم يستطع اليهود سوى تأليف ثلث الممثلين حتى حين كانوا يشكلون غالبية الشعب، ولم يكن باستطاعتهم أيضا تولي منصب رئيس البلدة.

أمدت نشوة الإصلاح في هذا العصر يهود روسيا بالأمل في تحسن أوضاعهم. أصبحت نسبة الحضور في المؤسسات التعليمية للدولة أعلى من ذي قبل. تجلت محاولات الاندماج في كل مكان. بيد أنه في ظل البيروقراطية القيصرية كانت هناك ميول مضادة لذلك

^٤ بينيامين ناثانز، "الصراع والمجتمع ويهود بطرسبرج في أواخر القرن التاسع عشر"

الاندماج. على سبيل المثال في أبريل من عام ١٨٨٠ صدر منشور وزاري إمبراطوري يطالب بأن يجمع كل الحكام في اتحاد بولندا معلومات حول الرأسماليين اليهود الذين - كما كان معروفًا للجميع - كانوا "جزءًا من القهال الدولي الذي تأسس بنوايا معادية للمسيحية بشكل واضح" إذ كانت هناك مزاعم أن اليهود دفعوا مساهمات لهذه المنظمة ودعموا حزبًا ثوريًا.

وضع اغتيال ألكسندر الثاني في مارس ١٨٨١ نهاية مفاجئة لجميع الآمال. في كثير من الأماكن كانت ثور ثائرة الفلاحين الروس وطبقة البرجوازيين الصغار عند سماع أن اليهود كانوا وراء الهجوم الإرهابي واغرقت موجة جديدة من أعمال العنف البلاد مما جعل من الواضح بشكل لا يدعو للشك عدم وجود أية إمكانية للاندماج أو حتى للتكامل. بنفس الطريقة، توصلت التحقيقات المتوالية في أعمال الشغب إلى أن اليهود كانوا هم المسؤولون. فقد استقزوا رد الفعل هذا من خلال "تعصبهم الديني" واستغلّاهم الماكر من خلال الربا للشعب من غير اليهود. منذ عام ١٨٨٢ بدأ الحد بشكل كبير من حقوق اليهود مرة أخرى. فرض الحظر على إقامة مستوطنات جديدة أو إبرام عقود جديدة للإيجار في الريف. في المؤسسات التعليمية للبلاد لم يكن من الممكن لنسبة المتعلمين من اليهود أن تتجاوز نسبة ضئيلة محددة. ظل امتحان القانون محظورًا على اليهود. كما حرم اليهود من حق التصويت لانتخاب أجهزة الحكم الذاتي بالمقاطعات والمدن. في التسعينيات من القرن التاسع عشر، اضطر الجنود والحرفيون والتجار اليهود - باستثناءات قليلة - إلى ترك مدينة ومقاطعة موسكو والعودة إلى مقاطعة الاستيطان. ظل هذا

^{٥٥}فرانسوا جيزنيت قدم لي بسخاء هذا المصدر. يعكس هذا المصدر نفس نمط التفكير الذي تشتمل عليه "بروتوكولات حكماء صهيون" الزائفة.

التمييز المهيمن قائماً حتى اندلاع ثورة ١٩١٧. كان داخل جهاز الحكومة بالتأكيد من يمتنى - لأسباب انسانية أو برجماتية أي اقتصادية - على الأقل إلغاء التدريجي للقوانين غير العادية. رغب وزراء المالية بشكل خاص في التخفيف من حدة هذه التشريعات. فقد كانوا يعلمون أن اليهود من شأنهم أن يكونوا عاملاً اقتصادياً هاماً في الامبراطورية كما خشوا من أن الاستمرار في انتهاج السياسات المعادية للسامية قد يكون له آثار سلبية على النطاق الدولي من جراء تأثير المصرفيين اليهود بالخارج. من الحوارات الدالة في هذا الصدد النقاش الذي جرى بين وزير المالية الشهير سيرجي ويتي (١٨٤٩ - ١٩١٥) والقيصر الكسندر الثالث (١٨٤٥ - ١٨٩٤) حيث سأل القيصر ويتي إن كان تعاطف مع اليهود فرد عليه ويتي بأن سألته إن كان من الممكن إغراق كل اليهود في البحر الأسود وأضاف قائلاً إن لم يكن هذا ممكناً فعلى اليهود أن يكونوا قادرين على "العيش". كان هذا يعني أنه في النهاية ينبغي منحهم نفس الحقوق شأنهم شأن جميع رعايا القيصر الآخرين.

لم يكن من الممكن الاستمرار في إجراء التحسينات الجوهرية. بيد أنه نتيجة لثورة عام ١٩٠٥، حصل اليهود على الأقل على حق التصويت في انتخاب أول برلمان منتخب، الدوما وذلك في عام ١٩٠٦. في السياسات العملية كان هناك بعض التساهل. على الجانب الآخر، اشتدت موجة العداة للسامية بين صفوف الدوائر المحافظة كرد فعل على الخطر المحدق للرأسمالية وجهود الإصلاح الاجتماعي. اشتدت موجة العداة هذه بشكل كبير لدرجة أن بعض العناصر المعتقة لآراء متطرفة - الذين كانوا يتمتعون بقدر من التمثيل في بعض المناصب بالهيئات - طالبوا بالقيام بأعمال عنف

^٦ مانفريد هيلدر ماير

ضد اليهود أو قاموا بتنظيم هذه الأعمال بأنفسهم. كانت من أكثر الأعمال الصادمة أعمال العنف في كيشينيف في عام ١٩٠٣ وإبان ثورة ١٩٠٥ حيث أقيمت محاكمة ميندل بيليس (١٨٧٤ - ١٩٣٤) الذي وجهت إليه تهمة قتل طفل مسيحي واستعمال الدماء البشرية في الشعائر الدينية غير أنه في النهاية تمت تبرئته عام ١٩١٣. في الحرب العالمية الأولى ألغيت مقاطعة الاستيطان - غير أن هذا لم يكن رد فعل على المعاقين الذين تم فرضهم على اليهود بل خوفا من أن يتعاون اليهود مع العدو. فقد كان جزء كبير من المنطقة التي سكنها اليهود يشكل مركز العمل العسكري. فرمات الآلاف من اليهود قبل أن يبدأ القتال أو أعمال النهب ومصادرة المؤن. روجت الدوائر المعادية للسامية بين الديمقراطيين الوطنيين البولنديين وأركان الحرب الروسي هذه الاتهامات بالتعميم على أساس حالات فردية حقيقة بأن اليهود يتجسسون لصالح ألمانيا والنمسا-المجر. نتيجة لذلك، اندلعت أعمال العنف في عدد من الأماكن. تبنت الحكومة القيصريّة العسكرية بشدة وجهة النظر القائلة بأنه ينبغي طرد اليهود إلى تلك المناطق من مقاطعة الاستيطان التي لم تطوّلها يد الحرب. نظرا لأن الأحوال في هذه المناطق لم تكن محتملة، قامت الحكومة في أغسطس من عام ١٩١٥ بإلغاء مقاطعة الاستيطان، بل وسمحت لليهود بالإقامة في مناطق أخرى، في الواقع تقريبا في أي مكان في الإمبراطورية (بيد أن الأمر لم يتسم بالحرية المطلقة). لقد جرت عمليات طرد وإبعاد اليهود بنصيب وافر من العنف. في بعض الأحيان، اضطر اليهود للعيش بأراض تابعة العدو بالقرب من جبهة القتال. أما هؤلاء الذين تمكنوا بعد ذلك من العودة للبلاد فغالبا ما كانوا يجدون منازلهم يسكنها غير اليهود.

كان على الجنود اليهود في جيش القيصر تحمل الكثير من أشكال التمييز. علاوة على ذلك، في المناطق البعيدة عن السواحل

وفي المدن الكبرى انتشرت الشائعات التي تروج لليهود بوصفهم "مترجمين من الحروب" وبذلك تشتت الانتباه بعيدا عن هؤلاء الذين كانوا مسؤولين بالفعل عن المصاعب الاقتصادية.^{٥٧} في النهاية، وضعت الثورة الناجحة التي قامت في فبراير ومارس من عام ١٩١٧ نهاية لجميع القيود المفروضة على اليهود: أصبح اليهود الآن مواطنين روسيين يتمتعون بحقوق مساوية لغيرهم. في الجمل كانت التشريعات الإمبراطورية الروسية تطبق أيضا على اليهود في مملكة بولندا مع اختلافات طفيفة في بعض القوانين الفردية. لفترة وجيزة، استطاعت بولندا أن تسلك طريقا خاصا بها. في مايو من عام ١٨٦٢، تم وقف جميع أشكال التمييز الأساسية ضد اليهود فيما يتعلق بالحقوق المدنية، وتم إقرار المساواة في الحقوق. لم يكن هذا الأمر بعيد الصلة عن المقاومة البولندية المعارضة لضم بولندا إلى الإمبراطورية الروسية. فأنشاء تقسيمات بولندا، شارك الكثير من اليهود في الثورات التي قامت ضد نظام القيصر. في ثورة ١٨٣٠، والتي لم يكتب لها النجاح، شارك الكثير من اليهود في أعمال النضال. في ظل التوجه الديموقراطي الذي تبنته "الهبجرة العظيمة" تبنى المؤرخ جواشيم ليليويل (١٧٨٦ - ١٨٦١) قضية الحقوق اليهودية. في المناصب الحكومية العليا ساد الاعتقاد بأن العمل ضد هذه الرابطة يخدم مصالحهم. كان "التحالف" الذي عقد بين يهود وارسو ومناضلي التحرر البولنديين بمناسبة إحياء ذكرى الضحايا الذين سقطوا أثناء مسيرتهم في مظاهرة مناهضة لروسيا في ٢٧ من فبراير

^{٥٧} هنا أدين لرسالة الماجيستير غير المنشورة الخاصة بفرانك مايكل شوستر وعنوانها "الحرب على الجبهة "الوطنية"- ألمان ويهود روسيا في منطقة الحرب بغرب روسيا ١٩١٤ - ١٩١٦" (جيسين، ١٩٩٧).

عام ١٨٦١ القشة التي قصمت ظهر البعير. نظراً للاضطرابات المتصاعدة بين الأهالي، حاولت السلطات القيصريّة والبولندية على الأقل تهدئة وطأة الشعور بالنقمة والسخط بينهم وبالتالي إضعاف حركة الاحتجاج. لقد كللت جهود التهدئة هذه إلى حد ما بالنجاح كما تبين أحداث ثورة عام ١٨٦٣. غالباً ما أدى موقف المحيطين بكونت ألكسندر فيلوبولسكي (١٨٠٣-١٨٧٧) - مستشار الثقافة الذي أصبح فيما بعد رئيساً للحكومة المدنية في بولندا- إلى الحصول على بعض الامتيازات لصالح اليهود بإقناع القيصر ألكسندر الثاني بالفوائد التي سيجنيها من وراء مثل هذه الإجراءات. لقد أرادوا بهذا تكثيف جهود الاندماج بين السكان اليهود وإطلاق العنان لأنشطة المقاولين والمصرفيين اليهود. بعد ذلك بعشرين عاماً، يصدر قوانين مايو ١٨٨٢ التي توسعت لتشمل بولندا التابعة لروسيا، أصبحت مراعاة المصالح القانونيّة لليهود أمراً من الماضي.

يهود شرق أوروبا خارج حكم القيصر

بينما أدت كارثة عام ١٦٤٨ إلى إضعاف دور الوسيط الذي اضطلع به اليهود بين الريف والمدينة في بولندا، لم تؤد تبعات حرب الثلاثين عاماً في بوهيميا ومورافيا إلا إلى التطور الكامل لهذا الدور. كانت الطبقة العليا من النبلاء، التي كانت في ذلك الوقت منخرطة بصورة متزايدة في المجال الاقتصادي، تجلب التجار اليهود الذين قاموا بشراء المنتجات الزراعية والتجارية للأراضي المملوكة لهذه الطبقة وقايضوها بمنتجات من المدينة. أصبح اليهود من تجار الجملة إلى الحرفيين والباعة الجائلين أو "جائلي القري" - كما كانوا في بولندا- مركز نظام التداول الاقتصادي الذي كان يربط بين الفلاحين والنبلاء وأهالي المدن ناهيك عن النقابات العمالية (بما فيها النقابات العمالية لليهود في مدينة براغ). علاوة على ذلك "أوكلت" طبقة النبلاء معامل التقطير الخاصة بها وغيرها من الأعمال إلى اليهود حتى تمتع

اليهود بالاحتكار الكامل لهذه الأعمال في نهاية الأمر. بينما أخذت أحوالهم الاقتصادية في التحسن، بدأ اليهود في الريف، خاصة في بوهيميا، في تنظيم أنفسهم بصورة أفضل. لقد كان يهود مورافيا يملكون بالفعل تنظيمًا إقليميًّا منذ القرن السادس عشر. كانت الجماعات اليهودية في بوهيميا تتبع الجماعة اليهودية بمدينة براغ. شعرت الجماعة اليهودية في بوهيميا بأنها محرومة من الامتيازات فيما يتعلق بتخصيص الأعباء الضريبية وقرروا أخيرًا في عام ١٦٥٤ أنهم أيضًا ينبغي أن يحصلوا على تنظيم إقليميٍّ مماثل. اضطلعت هذه الجهة التي اكتمل إنشاؤها عام ١٦٥٩ بمسئولية إدارة الضرائب وغيرها من القرارات الهامة خارج مدينة براغ. رغم هذا، ظلت مدينة براغ عاصمة لليهود. أثناء القرن الثامن عشر من بين يهود بوهيميا المقدر عددهم بحوالي ٤٠.٠٠٠ - عاش حوالي ٢٥.٠٠٠ في مورافيا - وعاش قرابة ١٠.٠٠٠ يهودي وربما أكثر من ذلك في العاصمة. بذلك شكل اليهود حوالي ثلث السكان وكونوا أكبر جماعة يهودية مدنية. مقارنةً بذلك، في فرانكفورت في منتصف القرن السابع عشر كان هناك ألفا يهودي وفي فيينا ٣.٠٠٠ وفي برلين عدد يقل بقليل عن ٤.٠٠٠ يهودي. فقط قبيل القرن الثامن عشر بدأت المستوطنات اليهودية في المدن البولندية (بما فيها جاليشيا الحمراء) في النمو. قامت السلطات الحاخامية الشهيرة بالتدريس في مدينة براغ، وكان اليهود خاصة الأشكينايز يعتبرون أنه من الأفضل الدراسة في إحدى اليشيفوت الكثيرة في براغ. كان الاسم الشرقي الذي أطلق على "المدينة اليهودية" في براغ في ذلك الوقت لا يزال "أم إسرائيل". منذ وقت مبكر سعت الطبقة العليا من اليهود الأثرياء إلى محاكاة أسلوب الحياة الذي ينتهجه المواطنون المسيحيون في المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي. عند إعادة بناء المدينة بعد الحريق المدمر الذي نشب بها عام ١٧٥٤، جعلت منازل اليهود الأثرياء المشيدة على

الطراز الباروكي التناقض مع المناطق البائسة التي يسكنها فقراء اليهود أكثر جلاء.

لم ينجح تألق مدينة براغ والمهام الاقتصادية الرائعة التي قام بها في الريف اليهود - "الدخلاء" كما كان يطلق عليهم أهالي براغ بشيء من الكبر - في إخفاء حقيقة عدم تحسن الوضع القانوني لليهود بأي شكل من الأشكال. تحت وطأة الضغوط التي مارسها الجماعات ذات المصالح الاقتصادية في عامي ١٧٢٦ / ١٧٢٧ قام إمبراطور أسرة هابسبورج الحاكمة آنذاك تشارلز السادس (١٦٨٥ - ١٧٤٠) بالتصديق على "قانون العائل" المشين. في بوهيميا لم يكن يسمح لعدد الأسر اليهودية أن تزيد على ٨.٥٤١ وفي مورافيا كان مسموحاً بوجود ٥.١٠٦ أسرة. كان من غير الممكن إصدار تصريح جديد للزواج سوى بعد وفاة عائل "لعدد معين من الأفراد يشكلون أسرة واحدة". من ثم ، كان هذا القانون يعني أن ولداً واحداً فقط من أبناء الشخص المتوفي كان بإمكانه الزواج والحصول على تصريح بالإقامة، أما بقية الأبناء فكان عليهم إما البقاء بلا زواج أو السفر للخارج. تبع هذا القانون فرض عدد آخر من القيود على اليهود. في نفس الفترة مر اليهود القاطنون في الريف ومنظماتهم بفترة تدهور. بطبيعة الحال، حاول اليهود بكل السبل الممكنة التحايل على "قوانين العائل". لكن بالنسبة للكثيرين منهم - إن كانوا لا يرغبون في الهجرة أو لم يكن مجوزتهم الأموال الكافية للإعفاء من هذا القانون - كان المخرج الوحيد هو الزواج سرا وفقاً للشرعة اليهودية. عرفت حالات الزواج هذه باسم يودن هاسنر لأنها كانت تتم في العلنية [يودن]. اعتبرت السلطات أن الأبناء ثمة هذا النوع من الزواج أبناء غير شرعيين. للمرء أن يتصور حالة الحزن التي سادت بسبب هذه الظروف. حتى بعد سن "قانون العائل" لم تخفت الأصوات المطالبة بتقليص عدد السكان من اليهود بشكل أكبر أو حتى طردهم.

بالكامل - مثلما جرت العديد من المحاولات لفعل ذلك في العصور الوسطى. كان لجهود ممثلي الكنيسة دور كبير في إقناع ماريا تيريزا (١٧١٧ - ١٧٨٠) لتقرر أخيرا طرد كل اليهود من بوهيميا. في ديسمبر ١٧٤٤، اضطر يهود براغ أولا للرحيل عن المدينة بغض النظر عن كونهم في فصل الشتاء أو حالتهم الصحية أو عمرهم. بيد أن الكثيرين رأوا في هذا الموقف تماديا كبيرا حتى أن خصوم اليهود بالمدينة القديمة غيروا رأيهم. سرعان ما ظهرت المثالب الاقتصادية لمثل هذا الإجراء، خاصة لأن التجار المسيحيين لم يكونوا في وضع يسمح لهم أن يحلوا محل اليهود. في عام ١٧٤٨ رضخت ماريا تيريزا للاحتجاجات المحلية والأجنبية - حتى من جانب البابا - وسمحت لليهود براغ بالعودة إلى ديارهم، رغم أنها عودة إلى ديار تعرضت للنهب منذ وقت طويل. لمدة مبدئية بلغت ١٠ سنوات سمحت ماريا تيريزا لليهود بالبقاء في أراضي مملكة بوهيميا شريطة أن يدفعوا مبلغا كبيرا من المال.

كان "مرسوم التسامح" الذي قدمه الإمبراطور جوزيف الثاني لليهود بوهيميا ومورافيا في ١٧٨١ / ١٧٨٢ - لأسباب اقتصادية ومبررات تتعلق بالسياسة الخارجية بصفة أساسية - مليئا بالتناقضات. بالفعل ألغيت الكثير من الأحكام والقيود التي تنطوي في جوهرها على تمييز ضد اليهود وبالتالي تحسن النشاط الاقتصادي. بيد أن هذا الأمر عاد بالنفع بصفة أساسية على الطبقات الاجتماعية الثرية التي كانت مستعدة للاندماج وفي واقع الأمر - تماما مثلما فعل فلاسفة حركة التنوير اليهود - استقبلوا هذه الإصلاحات بترحاب شديد. علاوة على ذلك، ترجحت هذه الطبقات من الوضع الاقتصادي القائم آنذاك. في عام ١٨٠٧ كان اليهود يملكون خمسة عشر مصنعا للنسيج من بين ثمانية وخمسين مصنعا بالبلاد.

بيد أن عامة اليهود كانوا لا يزالون يرزحون تحت وطأة الضرائب الجائرة المفروضة عليهم و"قانون العائل" ومن الحظر على حرية الحركة الذي لم يخفف سوى بشكل طفيف وفوق كل هذا من الأحكام التي حددت مهلة معينة بتعين بعد انقضاءها استخدام اللغة الألمانية فقط في المراسلات الرسمية والتجارية. على نفسه النهج في عام ١٧٨٧ كان على اليهودي أن يختار اسماً ألمانيا له ولقباً ألمانيا للعائلة. أثارت الخدمة العسكرية الإلزامية التي أدخلت عام ١٧٨٨ / ١٧٨٩ الكثير من الاضطرابات. فثناء تأدية الخدمة العسكرية، كان يندس يوم السبت المقدس وتنهك التشريعات اليهودية الخاصة بالطعام ولم يكن من الممكن إقامة بعض الشروط الشعائرية الأخرى. كان "الاختباء تحت الأرض" والفرار وحتى تشويه الذات هو التصرف السائد بين فقراء اليهود الذين لم تكن امامهم فرصة للتخلص من الخدمة العسكرية عن طريق الرشوة. أثناء القيام "برحلة" إلى الخارج ربما من أجل تحاشي تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية قام اثنان من تابعي جيكونب فرانك - أبناء اثنين من اليهود الأثرياء من مدينة براغ - بزيارة مدينة أوفنباخ واكتشاف الدجل الذي كانت تقوم به ابنته إيفا فرانك الذي كان قد صرح أبوها بأنها الألوهية المجسدة. كان للفرانكيين أتباع كثير في بوهيميا ومورافيا. كان الفرانكيون في مدينة براغ ياملون في أن تحين نهاية العالم عام ١٨٠٠ وعندما لم يتحقق هذا اندلعت الاضطرابات التي ترجع على ما يبدو إلى الشعور بالضيق الذي انتاب اليهود الأرثوذكس لأن الفرانكيين لم يكونوا يرجعوا إلى حظيرة الأرثوذكسية حتى بعد حدوث ذلك.

في الجمل أدت تطورات الأحداث في القرن الثامن عشر إلى الانحلال التدريجي للمجتمع اليهودي التقليدي. اندمج غالبية اليهود المعلمين والمنتمين للطبقة الاقتصادية العليا في المجال الثقافي الألماني وإن يكن بخصائصهم المميزة. لقد لعب يهود شرق أوروبا (أوست

يودن) دوراً ثانوياً في بوهيميا ومورافيا رغم أن اليهود البولنديين كانوا قد فروا إلى هناك بعد عام ١٦٤٨. لقد احتل يهود هذه الأراضي مكانة خاصة بين الغرب والشرق.

لقد تشكل نموذج اليهودي شرق الأوروبي في ظل مملكة الاتحاد البولندي الليتواني بعد عام ١٦٤٨، ففي منتصف القرن الثامن عشر كان هناك حوالي ٧٥٠.٠٠٠ يهودي يعيشون هناك وهو ما يمثل حوالي ٧% من السكان. مع تقسيمات بولندا المتوالية وجد اليهود أنفسهم يعيشون في أراض تنتمي لقوى سياسية مختلفة. أما خارج نطاق السيادة الروسية، فقد عاش معظم يهود شرق أوروبا في مملكة أسرة هابسبورج الحاكمة - غالباً في جاليسيا. دفعهم هذا إلى الوعي البالغ بمعنى التسامح تجاه اليهود بمعناه المستبد التنويري: كان عليهم التخلص من "خصائصهم المميزة" و"تحسين" أنفسهم وأن يصبحوا "نافعين". قبل معاناة اليهود في بولندا الروسية أو في روسيا نفسها، كان على اليهود في مملكة هابسبورج الدخول في صراع مع إجراءات تشريعية شاملة تنطوي على تدخل صارخ في حياتهم اليومية. منذ عام ١٧٧٣، كان يتعين تصديق الحاكم النمساوي على عقود الزواج بين اليهود. كان يسمح فقط للابن الذكر بالزواج ويصبح بذلك "العائل" كما كان الحال في بوهيميا ومورافيا. علاوة على ذلك، في عام ١٧٨٥ كانت تراخيص الزواج ترتبط بمستوى معين من التعليم الألماني. منذ عام ١٧٧٦، حظر على اليهود إدارة الحانات أو حيازة الأراضي بالاستئجار. في عام ١٧٨٩ أصدر جوزيف الثاني "مرسوم التسامح" الخاص به الذي قلص نطاق الإدارة الذاتية للمجالس القهال وقام بالتشديد على المحظورات الاقتصادية وفرض قيود على المستوطنات وجعل من اتخاذ لقب ألماني للعائلة أمراً إجبارياً وأكد على السياسة الصارمة للزواج. عادت حركة التنوير للظهور مرة

أخرى في شكل مهمة وتم فرضها قسراً على الثقافة اليهودية التقليدية.

ناضل الحسيديون واليهود الأرثوذكس في جاليشيا بضراوة ضد جميع الميول التنويرية حتى بين اليهود أنفسهم. شاركت الحكومة في تلك الحركة التنويرية وفي عام ١٧٩٧، بناء على اقتراح التقدميين من اليهود، فرضت ضريبة "الشموع" على الشموع التي تضاء أيام السبت وأيام الأعياد وظلت هذه الضريبة سارية حتى عام ١٨٨٤. مثلت هذه الضريبة عبئاً ثقيلاً على الفقراء من أعضاء الجماعة اليهودية. فقد كان اليهود بالفعل يدفعون ضرائب أعلى من بقية أفراد المجتمع. كان اليهود أيضاً يخضعون للخدمة العسكرية الإلزامية ولم يستطع سوى الأثرياء من اليهود التملص منها بدفع الرشاوى. جاء رد فعل الكثير من اليهود على فرض الخدمة العسكرية الإلزامية بالحروب خارج البلاد. بهذه الطريقة، تقلص عدد السكان اليهود بجاليشيا فوفقاً لتقديرات مختلفة - وإن كانت مثيرة للجدل - تقلص عدد اليهود بجاليشيا من ٢٢٥.٠٠٠ (عام ١٧٧٣) إلى ١٤٥.٠٠٠ (عام ١٧٧٧). فيما بعد، بدأت أعداد اليهود في التزايد مرة أخرى ومن الأسباب الرئيسية لذلك زيادة مساحة الأراضي الخاضعة للملكة نتيجة تقسيم بولندا الثالث حيث وصل عدد اليهود بحلول عام ١٨٠٣ إلى حوالي ٤٠٠.٠٠٠ يهودي. تزوج الكثير من اليهود أيضاً سرا وتهربوا من الخدمة العسكرية بشكل غير قانوني.

لقد جلب التنظيم الجديد للبلاد منافع اقتصادية لليهود. فقد ترجح اليهود آنذاك من المعاملات التجارية المتزايدة بين روسيا ومملكة هابسبورج. فوق كل هذا، أصبحت مدينة برودي الحدودية مكاناً رئيساً لتبادل السلع "برأس المال اليهودي" الآتي من جاليشيا.^{٥٨}

^{٥٨} ديينو، تاريخ العالم، الجزء الثامن، ص. ٣٠١ (وفقاً لتقرير روسي صدر عام ١٨١٠). كانت برودي بالقرب من مدينة لفييف هي مسقط

من حيث المبدأ، سادت ظروف مشابهة في بوكوفينا التي تبازل عنها الأتراك للنمسا عام ١٧٧٥ ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً من جاليسيا. في ذلك الوقت بدأ العدد القليل لليهود - تراوحت التقديرات من ١٠.٠٠٠ إلى ٣٠.٠٠٠- في التزايد بشكل سريع.

في هنغاريا لم يكن هناك تقريباً أي يهود شرق أوروبيين. من الممكن مقارنة الظروف السائدة والمستوطنات اليهودية هناك في العصور الوسطى على الفور بمثيلها في بولندا. في عام ١٢٥١ قام الملك بيلا الرابع (١٢٠٦ - ١٢٧٠) بإصدار ميثاق مزايا من أجل إعادة إعمار البلاد بالسكان بعد الهجوم المغولي عليها. رغم أن الملك بعد ذلك قام بحماية اليهود من الكنيسة لأنهم كانوا يدفعون مبالغ كبيرة كضرائب وكانوا يمدون المملكة بالكثير من الأموال التي تحتاجها. غير أن العلاقة لم تحل تماماً من الصراع. في عام ١٣٦٠ تم طرد اليهود حتى من هنغاريا لفترة وجيزة وذلك بعد أن باءت محاولة قام بها الملك لاجوس (١٣٢٦ - ١٣٨٢) لتنصيرهم بالفشل. لم يخف هجوم الكنيسة على اليهود في التأثير على عامة الشعب، فقد سجل التاريخ قيام العديد من أعمال العنف نتيجة لذلك. بعد هزيمة هنغاريا على يد الأتراك في معركة الموهاك في عام ١٥٢٦ أطلق الكثيرون العنان لحنتهم في المناطق التي كان يسكنها اليهود بالمدينة. تم طرد جزء كبير من السكان اليهود من هذه المناطق. في عام ١٧٨٥ لم يكن هناك سوى حوالي ٨٠.٠٠٠ يهودي بهنغاريا.

كان الوضع مواتياً للغاية لليهود في إمارة ترانسيلفانيا حيث ظهرت الكثير من الاتجاهات الدينية الشائقة. على سبيل المثال ظهرت هناك السبئية وهي خليط من اليهودية والمسيحية فيها يكون

رأس جوزيف روث. كان صاحب الحانة الشخصية المحورية في روايته "تاراباس" (فرانكفورت، ١٩٨٧) مبنياً على شخصية حقيقية ليهودي موسر عاش بتلك المدينة.

السبت اليهودي (أي يوم السبت) هو اليوم المقدس بدلاً من يوم الأحد. رغم كل هذا لم تتشكل هناك أية "شخصية ثقافية مميزة" مماثلة لشخصية يهود شرق أوروبا في بولندا. منذ القرن الثامن عشر، قام اليهود بالهجرة التدريجية بصفة أساسية من جاليشيا. لم تكن سياسة أسرة هابسبورج الحاكمة التي حكمت البلاد منذ انسحاب الأتراك في نهاية القرن السابع عشر ودودة تجاه اليهود. في فترة "التسامح" الاستبدادي دار الصراع كما هو الحال في الأماكن الأخرى حول الخدمة العسكرية الإلزامية وحرية اليهود في التجارة. في جميع أراضي مملكة هابسبورج، ارتفع عدد السكان اليهود من أقل من ٤٠٠.٠٠٠ عام ١٧٨٥ إلى حوالي مليون عام ١٨٠٣. كان نموذج "اليهودي الغربي" لازال سائداً.

في أثناء ذلك، تطورت مستعمرات يهود شرق أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر في واليشيا ومولدافيا. كانت تلك الإمارات الرومانية آنذاك تخضع للحكم التركي. في الأساس، هاجر إلى هاتين الإمارتين بشكل أساسي اليهود السفارديم عن طريق منطقة البحر المتوسط وسالونيكاً. في ذلك الوقت، قام الأمراء والسادة الإقطاعيون من النبلاء، البوير، بجلب اليهود ليسكنوا المناطق التي بها أعداد قليلة متفرقة من السكان كما حدث من قبل في بولندا. قدم هؤلاء اليهود من جاليشيا وأوكرانيا. من العوامل التي أسهمت في حدوث هذه الهجرات اندلاع ثورات الهايدماك والوضع الجديد في جاليشيا بعد التقسيم الأول لبولندا. كان أغلب المستوطنين بهاتين الإمارتين من الحسيدين. نما عدد السكان اليهود في سنوات قليلة من ٣٠.٠٠٠ إلى ٥٠.٠٠٠ ثم إلى ٨٠.٠٠٠ نسمة. استقر معظم هؤلاء اليهود في مولدافيا - بصورة رئيسية في إياسى - واستقرت أعداد قليلة في واليشيا بالقرب من بوخارست. غير أن أمل اليهود

في العثور على وطن يعمه السلام لم يتحقق كما تورط اليهود هنا أيضاً في صراعات عسكرية- هذه المرة بين الروس والأتراك .
كان هناك تطور مثير للأحداث في بولندا التابعة لبروسيا . تحت تأثير الظروف الجديدة - خاصة الاتصال باليهود الألمان والفرص الاقتصادية السانحة التي رجحت من كفة الميل تجاه الاندماج- تحول يهود شرق أوروبا هناك بشكل تدريجي إلى "يهود غربيين" . بيد أن النزعة الأرثوذكسية ظلت تغطي على إيمانهم وأقاموا صلات متعددة مع اليهود في الأراضي الأخرى من بولندا المقسمة .

الجزء الثالث

أزمة اليهود في أوروبا الشرقية

هوية جديدة

تغير دور الوسيط التقليدي
لقد كان دور الوساطة بين الريف والمدينة الوظيفة الاقتصادية المحورية لليهود بشرق أوروبا . بمقتضى عملهم كأصحاب حانات و أصحاب حوانيت صغيرة و تجار و باعة جائلين و مستأجرين و إداريين ، أقام اليهود صلات بين النبلاء الإقطاعيين والفلاحين والحرفيين في الريف والحضر وكبار التجار والمقاولين في إطار نظام الدورة الاقتصادية . نتيجة لذلك ، تورط اليهود في الصراعات الاجتماعية التي كانت تنشأ بين طبقة النبلاء من جهة والفلاحين من جهة أخرى . في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان التعايش التكافلي بين اليهود وطبقة النبلاء قد بدأ في الانهيار . منذ نهاية القرن الثامن عشر يجد المرء بين الإجراءات التشريعية مرارا وتكرارا محاولات لإكراه اليهود على ترك العمل في إدارة الحانات أو حتى على

الرحيل التام من القرى. يتعين علينا الآن النظر إلى خلفية هذا التطور في الأحداث الذي استمر بنفس القوة خلال القرن التاسع عشر. مرة أخرى، كانت بولندا قائمة في مركز الأحداث.

في بداية القرن التاسع عشر، وقعت أوروبا الوسطى في براثن أزمة زراعية إقليمية. فقد تم تخصيص منتجات الزراعة الأحادية للحبوب بأراضي السادة الإقطاعيين لأغراض التصدير بسبب الركود الذي شهدته معدلات الطلب من الحضر على الحبوب الغذائية. وقد أدى الإنتاج الذي شجعه أسعار القمح المرتفعة في مناطق التصدير إلى المضاربات والمعاملات التجارية الخطيرة بالدين قرب نهاية القرن. وقد تسببت الحروب النابوليونية في حدوث أزمة مبيعات وأزمة مالية. تكررت آثار هذه الأزمة عام ١٨١٩ حين أشعلت قتل الأزمة التعريفية الوقائية التي فرضتها بريطانيا. عندما قامت حكومة بروسيا أيضا في عام ١٨٢٣ برفع التعريفية الجمركية على المنتجات الزراعية بشكل كبير، انخفضت معدلات الصادرات البولندية من الحبوب الزراعية من ميناء دانيج (يعرف الآن باسم جدانسك) بمعدل النصف. وقد انتهى الأمر بالكثير من النبلاء الذين كانوا يرزحون تحت وطأة الدين إلى الإفلاس. في الوقت ذاته كان على النبلاء إيجاد سبل للتخلص من محاصيلهم من الحبوب. وقد عثروا على ضالتهم في الطريقة الجريبة وهي إنتاج المشروبات الكحولية والتي كان الفلاحون زبائنهم الرئيسيين. لقد ساعدت النفقات التي تحلفها عملية إنتاج المشروبات الكحولية على حل مشكلة كيفية توفير علف للمواشي في فصل الشتاء. نتيجة لذلك، شهدت تجارة المواشي ازدهارا كبيرا أيضا وأدى هذا إلى إمكانية تخصيص الأراضي الزراعية بالأسمدة بشكل مكثف مما نتج عنه تحسن ملحوظ في العملية الزراعية. وقد شهدت كل من عملية تربية الخراف على وجه الخصوص وصناعة النسيج ازدهارا ملحوظا.

كان لكل هذا تأثير مباشر على اليهود . فبإفلاس الكثير من السادة الإقطاعيين، فقد الكثير من اليهود مكائهم كمستأجرين حيث قامت طبقة النبلاء التي ابتليت بالفقر بمزاحمتهم . لقد أثرت تجارة الحبوب المتدهورة بشكل سلبي على اليهود العاملين بهذا القطاع . الأهم من كل ذلك أن الصراع من أجل الحصول على نصيب في سوق بيع المشروبات الكحولية اتخذ منحى معاديا لليهود . في البداية، كانت طبقة النبلاء البولنديين قادرة على القضاء على منافسة البرجوازيين غير اليهود في المدن حيث أنهم كانوا معفيين من ضريبة بيع المشروبات الكحولية بالتجزئة (حتى عام ١٨٤٤) وفي عام ١٨٢٣ تم إغلاق معامل التقطير الموجودة بتلك المدن التي لم تكن ملكية خاصة للنبلاء بموجب قرار من الدولة . قامت الدولة بعد ذلك باقتسام أرباح الإنتاج من المشروبات الكحولية مع النبلاء بعد تأسيس احتكار مواز لصالح الدولة عام ١٨٢٢ . من أجل إيجاد بديل لأرباحهم الآخذة في الانخفاض عموماً، سعى المزيد من النبلاء إلى إخراج اليهود من مجال إنتاج وبيع المشروبات الكحولية . تبنت الدولة - التي كانت لا تزال في ذلك الوقت دوقية وارسو - هذه الفكرة وفي ٣٠ أكتوبر ١٨١٢ أصدرت قراراً يمنع اليهود ابتداءً من ١ يوليو ١٨١٤ فصاعداً من إنتاج وبيع المشروبات الكحولية . أجبرت الدولة النبلاء، الذين لم يكونوا على علم بتقنيات الإنتاج ولا كانت لديهم مهارات أصحاب الأعمال - أن يتكيفوا مع أساليب حياة جديدة بينما منعت في الوقت ذاته اليهود من الانخراط في أعمال بعينها تحت أية ظروف . سمح لأصحاب معامل التقطير الاحتفاظ بصانعي الخمر المحنكين من اليهود حتى الأول من يوليو ١٨١٥ فقط من أجل تعلم المهارات التقنية الأساسية .

نجم عن تنفيذ هذا القرار الكثير من الصعوبات - بسبب المثالب الاقتصادية التي كانت تعاني منها طبقة النبلاء - فتم إرجاء التطبيق

الكامل لهذا القرار. رغم ذلك، فرضت قيود قاسية على النشاط الاقتصادي لليهود الذي اتسع نطاقه عما كان عليه عند سريان "قانون اليهود" الذي فرض عليهم في ١٨٠٤ في المقاطعات الشرقية التي ضمتها روسيا إليها.

بعد عام ١٨١٥ ظل الهدف هو إخراج اليهود من تجارة المشروبات الكحولية والاقتصاد الإقطاعي وإن جاءت محاولات تحقيق هذا الهدف وثيدة للغاية. بزغت فرصة تحقيق هذا الهدف عند فرض استصدار اليهود لترخيص تجاري منذ ٨ يونيو ١٨١٤ والذي إضافة إلى تحقيق هذا الهدف أمد الدولة بمصدر إضافي للدخل. كانت الرسوم ترتفع بشكل مطرد. منذ مايو عام ١٨١٦، حظر على أصحاب الحانات اليهود تقديم المشروبات للفلاحين بالدين أو بالأجل أو باستخدام منتجاتهم الزراعية كضمان. من ثم، حرم اليهود من مصدر دخل كبير لأن البيع بالأجل كان يغري الكثير من الفلاحين - الذين لم يملكوا نقودا كافية - بالشرب بشراهة في الحانات منتظرين الحصاد المقبل لحصولهم. في الجمل ما بين عامي ١٨١٩ و ١٨٢٢ انخفض عدد اليهود العاملين في هذا المجال بشكل جذري. وقد يكون اكتشاف تقنية جديدة لتقطير المشروبات الكحولية لا تحتاج إلى اليهود لتشغيلها قد لعب دورا في هذا الانخفاض. عند المقارنة بعام ١٨١٣، فقط حوالي ١٢% من اليهود بقوا في مجال بيع وإنتاج المشروبات الكحولية في عام ١٨٣٠ ومن بين هؤلاء فقط حوالي ٧% فقط عاشوا في الريف. بهذه الطريقة تم فصم عرى الصلة التقليدية التي كانت تربط اليهود بالمجتمع بشقيه من النبلاء والفلاحين.

كلما نظرت طبقة النبلاء إلى اليهود باعتبارهم منافسة غير مرغوب بها، الأمر الذي كان من شأنه الوقوف كحجر عثرة أمام إعادة هيكلتهم للاقتصاد الإقطاعي وفرض السيادة الكاملة على

القرية، ظهرت مشاعر البغض المعادية للسامية بشكل أكبر. تم رسم صورة أكثر إخافة لليهود بناء على التطورات الديموغرافية- أي معدلات النمو الأسرع للسكان اليهود مقارنة بالمسيحيين. كان الاعتقاد السائد أن اليهود ماكرون ومثابرون وليست لهم مطالب وأنهم غير متورين وأصحاب عزيمة قوية ويتمتعون بالنفوذ في كل فروع الاقتصاد ويشاركون في كل المعاملات المالية- باختصار أنهم خطرون ومؤذون. من ثم كان من المنطقي وحسب للنبلاء أن يقوموا بكل شيء في وسعهم لمنع اليهود من الحصول على حقوق مساوية لهم ما هو السبيل الآخر الذي كان بوسع النبلاء من خلاله القضاء على اليهود كمنافسين لهم؟

كانت فرصة إخراج اليهود من البلاد على أساس قانون القيصر سلاحاً آخر في هذا الصراع التنافسي. حتى حين لم تنجح هذه المحاولات؛ تدفق المزيد من اليهود إلى المدن. لم تستطع مزايا المدن المتبقية التي كانت تحظر إقامة اليهود بها إيقاف هذه الهجرة. كان أحد الحلول لهذا الموقف بناء مناطق أو جيوت معين خاص باليهود. لقد سمح قرار مايو ١٨٢٢ - الذي صيغ على غرار قانون الجيتو بوارسو عام ١٨٠٩- باتخاذ إجراءات مماثلة في كل المدن.

١٨٢٧		١٨١٦		
٣٠٣.٨٠٠	%٨٠.٤	١٤٤.٢٠٠	%٦٧.٧	اليهود بالمدن
٧٤.٠٠٠	%١٩.٦	٦٨.٨٠٠	%٣٢.٣	اليهود بالقرى

كانت نسبة اليهود إلى إجمالي عدد السكان بالمدن مرتفعة للغاية، خاصة في المدن الكبرى وفي المقاطعات الشمالية الشرقية. تدقق البرجوازيون الصغار إلى "المناطق اليهودية" الجديدة ونافسوا اليهود على فرص العمل المحدودة. أصبح عامة اليهود بشكل جلي من الفقراء وغالبا ما عاشوا تحت ظروف لا يمكن تخيلها فيما يتعلق بالإقامة والعمل والدخل. لقد خلق الفاض الكبير في الأيدي العاملة بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وليس لها مستقبل عددا كبيرا ممن يطلق عليهم اسم "لوقمينشين" وترجمتها الحرفية "رجال الهواء"؛ ويقصد بهم الرجال الذين "ليس لديهم سوى الهواء ليعيشوا عليه" وهم بلا دخل ثابت ويعتمدون على التدافع اليومي بالمناكب من أجل الحصول على عمل موسمي لكسب الرزق (ارجع للقسم المعنون لوقمينشين فيما بعد، خاصة الهامش رقم ٦). بمساعدة المعامل غير الشرعية لتقطير الشراب وتهريب المشروبات الكحولية، استطاع اليهود البقاء على قيد الحياة بطرق غير شرعية غير أنهم غالبا ما تورطوا في صراع دام مع اليهود المتبقين بالقرى.

على الجانب الآخر، نجح عدد قليل من أصحاب الأعمال والمصرفيين اليهود أن يصيبوا الثراء الفاحش. فقد جسدت حوالي ٤٠ أسرة من المليونيرات نموذج شخصية "الرأسمالي" اليهودي. كان يربط بين هذه الأسر وأوصار أسرية معقدة وأنهم عاشوا بشكل رئيسي في مدينة وارسو حيث أن غالبيتهم كانوا من المهاجرين إلى بولندا. لكن كانت هناك أيضا طبقة عليا صغيرة في المدن الأخرى. كانت تعزى المكانة الخاصة التي تمتعت بها هذه الطبقة إلى تعاونها

الوثيق مع الحكومة. على سبيل المثال في عام ١٨٢٢ قام وزير المالية دروكي لوبيكي بتأجير احتكار المشروبات الكحولية للملك للدولة لليهودي الليتواني نيواكويتش في نفس الوقت الذي كان فيه اليهود في الريف يطردون من مجال إنتاج وبيع المشروبات الكحولية. في عام ١٨١٦ قام بيريك سمول (صامويل) زونبيرج بتأجير حق احتكار الملح للملك للدولة. وقد جني "أصحاب الأعمال" اليهود من أمثال فرانكيل ونيومارك وبيرجسون أرباحهم من تقديم المؤن للجيش دوقية وارسو وروسيا ومملكة بولندا. وحيث أن الحكومة غالبا ما لم تكن في وضع يسمح لها بسداد المبالغ المالية المستحقة في غضون المدة المحددة، استطاع الموردون اليهود - مع بعض التدخل من جانب الرأسماليين اليهود - إملاء الشروط التي يرونها. بدأت الطبقات غير اليهودية في العثور على مكان في مصاف البرجوازيين الكبار تدريجيا. كما اتاحت أنشطة اليهود من موردي المؤن للجيش فرصة ذهبية لتحميل اليهود بصفة عامة مسؤولية ما أصاب الجنود والضباط من محن؛ بسبب المؤن غير الكافية. تم تصوير اليهود تصويرا شيطانيا كمنخادعين وطفيلين ومصاصي دماء ومترجمين من الحروب من أجل تشتيت الانتباه بعيدا عن أخطاء الحكومة والقيادة العسكرية. لاقت هذه الأفكار انتشارا سريعا خلال القرن التاسع عشر.

مارس أصحاب الأعمال اليهود شكلاً جديداً من أشكال الوساطة الاقتصادية بعد أن تم القضاء على اليهود بشكل كبير كوسطاء بين الريف والمدينة فقاموا بدور الوسيط بين النبلاء والفلاحين وأهل المدن من جهة وبين المنتجين والمسؤولين عن تخصيص المنتجات الفائضة من جهة أخرى. أحدثت سياسة طبقة النبلاء البولندية صدعا بين الريف والمدينة سقط ضحية له الدور التقليدي الاقتصادي والاجتماعي لليهود. من ثم، غرق اليهود في أزمة هوية عميقة ظهرت معالمها في حياة الجماعة اليهودية وفي

المواقف الدينية أو الفكرية التي تبناها . لقد ارتبط الدور التقليدي للوساطة بمجرد إنتاج البضائع التي يقوم اليهود - على أساس موقفهم القانوني المتميز فيما يتعلق بالمقايضة والبيع بالأجل - بتقديم خدمة وساطة هامة تتعلق بها . في إطار توجيههم إلى الإنتاج المعتمد للبضائع بأي إلى الطريقة الرأسمالية في الإنتاج - فقد اليهود تدريجيا مهمتهم الوظيفية . ظهرت طبقات اجتماعية جديدة دخلت في منافسة مع اليهود . نتيجة لذلك ، في الوقت الذي كان فيه المجتمع يطرح " المسألة اليهودية " ، تساءل اليهود أنفسهم عن مكانهم الجديدة في هذا المجتمع وإدراكهم لذاتهم .

"الطرد" و"إعادة الهيكلة"

لم تكن الهجرة من الريف فقط هي ما جعل حال اليهود في المدن بصير إلى الأسوأ . فقد أدى التوجه نحو الصناعة ، الذي بدأ بالتدرج أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر ، إلى التقليل من أهمية أنواع الأعمال التقليدية التي تحتاج إلى مهارة . بعد أن تم "طرد" الكثير من أفراد الجماعة اليهودية من مجال إنتاج وبيع الكحوليات وتأجير الأراضي بالقرى والآن أيضا من الأعمال التي تتطلب مهارة ، علق المجتمع اليهودي في عملية إعادة هيكلة اقتصادية - اجتماعية مستدامة . لقد قدم الشاعر الشهير شوليم أليشيم وصفا قويا لعملية إعادة الهيكلة هذه في قصته "عيد الفصح اليهودي في القرية" إذ يقول:

في الوقت ذاته لم يكن لناشيم ويريبجوكر حياة بائسة كهذه في ويريبجوكا . بطبيعة الحال ، لا وجه للمقارنة مع الأوقات الماضية . حين كان الجد أري لازال حيا ، كان كل شيء مختلفا . نعم ، كانت تلك هي الأيام بحق ! في ذلك الوقت تقريبا كانت جميع أراضي ويريبجوكا ملكا له . لم تكن لديه مشروعا واحدا بل عدة مشاريع حانة وبقالة وطاحونة ومخزن للحبوب ؛ وبذلك لم ينقصهم شيء .

بيد أن هذا كان في الماضي ولم يعد الحال هكذا. لم يعد هناك حانة ولا بقالة ولا مخزن حبوب. لا شيء... لا شيء على الإطلاق بقي له. قد تتساءل لماذا لا يزال اليهود يعيشون في ويريجوكا. لكن، في أي بلد آخر ينبغي أن يعيشوا؟ تحت الأرض؟ حتى وإن كانت الفكرة خطرت ببال ناخمان بأن يبيع بيته الصغير، فلم يكن ليكون ويريجوكر بعد ذلك. كان الناس سينظرون إليه كمستطفل على التجارة وغريب. على الأقل، لديه ركنه الخاص به وحجرته الخاصة وحديقته التي تعني بها كل من زوجته وابنته. بمعونة الرب، لدى المرء من الخضراوات ما يكفي فصل الصيف ومن البطاطس ما يكفي فصل الشتاء إلى ما بعد عيد الفصح اليهودي. غير أنك لا يمكنك أن تقتات على البطاطس فقط. فالمرء يحتاج أيضا إلى الخبز ولم يكن ناخمان يملك الخبز. لذا، فقد أخذ عصاه وهام على وجهه في القرية. إنه يقط على الدوام تحسبا لأي شيء يمكن التجارة فيه وعندما كان ناخمان يهيم على وجهه في القرية من أجل التجارة، لم يعد أبدا خاوي الوفاض. كان يبيع ما ينعم الرب به عليه - لوجا حديدا صغيرا، أو إناء به بعض من حبة الدخن أو جوالا قديما أو حتى أحيانا فراء. كان يقوم بفرد الفراء وتجفيفه ثم أخذه لصانع الفراء أفرام إلياهو في المدينة. غير أنه في جميع تلك المعاملات التجارية يمكن للمرء جنى الأرباح ويمكنه أيضا تكبد الخسائر. لهذا يتاجر المرء "فالتاجر كالقناص"^٩ كما يقول ناخمان الذي دائما ما كان يتفوه بأمثلة روسية.

^٩ شوليم أليشم، "الفصح اليهودي في القرية"، في حكايات يديشية كتبها مينديل موخير سفوريم وأيزاك لايب بيريتز وشوليم أيشيم، تحرير ليو نادلمان (زيورخ، ١٩٨٤)، ص. ٣١٠ - ٣٢٥، هنا ص. ٣١٣ بالكامل.

في فقرة أخرى من أشهر رواياته "تيفر بائع الحليب"، يصور شوليم أليشيم مدى التدهور الذي كان من الممكن أن تصل إليه أوضاع بعض الحرفيين. تسائيل، ابنة بائع الحليب ستزوج من قصاب ثري، ثم يقرر الرحالة الفقير موتل كاميزول زيارة تيفر وأن يطلب شخصيا يد ابنته التي كان يحبها لفترة طويلة خلافا للعادة السائدة آنذاك بإرسال وسيط الزيجات أولا.

حين تقوه بهذه الكلمات، قفزت من مكاني وكأني سكب على ماء ساخن. لقد قفز هو أيضا من مكانه، وبدأ وقفنا يواجه كل منا الآخر كدبكين... كنت أفضل لو أن شخصا طعنني في قلبي بسكين على أن أسمع هذه الكلمات... كيف استطاع هو، موتل، الخياط أن يصبح صهر تيفر؟ ثم يقول موتل:

"لقد أردت... مرارا أن أحادثك بهذا الشأن، غير أنني دائما ما كنت أوجل الحديث حتى استطعت أن أدخر روبلات قليلة فاستطعت شراء ماكينة خياطة ومن ثم أجهز نفسي بالصورة اللائقة. لأن الشاب الذي يفخر بنفسه يحتاج إلى بزتين وصدورية هذه الأيام... قلت له "يجب على الأرض أن تنشق لتبلعك فأنت تفكر كالأطفال! ماذا ستفعل بعد الزواج؟ هل ستموت من الجوع أم ستطعم زوجتك من صدرتك؟" فقال لي: "آي! إنني مندهش منك يا حاخام تيفر لقولك مثل هذا الكلام! أعني أنك لم تكن تملك منزلك الذي كنت تقيم به حين تزوجت. وكما ترى لقد سارت الأمور على ما يرام. على أي حال، فالذي سيحل ببني إسرائيل أجمعين سيحل أيضا بالحاخام إسرائيل... على أي الأحوال، أنا حربي."

سمح تيفي لنفسه بأن يقتنع بهذا الحديث وتمكن من إقناع زوجته جولد بالحيلة رغم أنها في البداية تعجبت: سألتني جولد

"كيف يتسنى لخياط أن ينضم إلى أفراد أسرتنا؟" "في أسرتنا؟" أعادت القول. "لقد كان بعائلتنا مدرسون وأئمة للصلاة وحراس لبوابات المدارس وموظفون بجمعية مراسم الدفن وآخرون من الفقراء، ولكن -معاذ الرب- لم يكن من بينهم أبدا لا خياطون ولا إسكافيون."

تزوج موتل وتسايتل وقال تيفي: ويعيش الزوجان الشابان معا - لله الحمد- في سعادة غامرة. هو خياط يذهب إلى بوبيريك متنقلا منزل صيفي إلى آخر ويأخذ طلبيات العمل، وهي تزرع تحت نير الزوجية ليل نهار. فهي تطبخ وتخبز وتغسل الملابس وتقوم بأعمال التنظيف وتجلب المياه، ورغم كل هذا فهم بالكاد يملكون شيئا لياكلوه. إن لم أجلب لهم بعض الجبن والحليب أو بعض عملات الجروشن من وقت لآخر، لواجهوا المصاعب.

لوقمينشن (رجال الهواء) في الواقع كان المجتمع اليهودي متمايزا بشكل جلي على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، وعانى المجتمع اليهودي انقساماً داخليا. فقد أضحت غالبية اليهود أكثر فقرا. لقد ناضلوا كتجار صغار أو باعة جائلين أو حتى كلوقمينشنين. فلنقرأ كلمات تيفي مرة أخرى:

الآن في هذا الوقت كنت شحاذاً تماماً. لأقول الحق، لم أعد رجلاً ثريا حتى الآن... ولكن على أية حال، مقارنة بتلك الأيام، فانا رجل ثري فانا أملك حصاني وعربتي وأيضا - امسك الخشب. لدي بعض البقرات التي يمكن حلبها وقريبا ستلد إحداها. لأقول الحق، كل يوم أحصل على الجبن والحليب والقشدة الطازجة، وكل شيء أصنعه بيدي لأننا جميعا نعمل ولا يجلس أي منا عاطلاً.

^{٦٠} شوليم أليشيم، تيفي بائع الحليب (ليبزيغ، ١٩٨٤)، ص. ٦٤ و ٦٨

بالكامل.

فزوجتي - بارك الرب فيها - تحلب الأبقار. أما الأطفال فيحملون أقساط الحليب ويصنعون الزبد، وأنا بممكنكم رؤويتي هناك أذهب إلى السوق كل صباح وأعبر بويديك لآتقل من منزل صيفي إلى آخر وأحيانا أبرم اتفاقات حتى مع أكثر الرجال تميزا من يهوئيسر. وحين تختلط بالناس وتجادهم، تشعر أنك فرد في هذا العالم أيضا ولست فقط خياطا نزقا... [كان هذا قبل أن يحظى بصره! هـ. هـ.].

نعم، في هذا الوقت بمعونة الرب كنت شحاذا بأئسا كنت أموت من الجوع ثلاث مرات في اليوم الواحد أنا وزوجتي وأبنائي. كنت أعمل كالحصان وكنت أجر ألواحا من الخشب من الغابة وحتى السكة الحديد؛ حمولة عربات كاملة من ألواح الخشب ومقابل هذا كنت أحصل على، أتمنى ألا تعترضوا على المبلغ، ٣٠ كوبك في اليوم ولم أكن أحصل على كل هذا المبلغ كل يوم. وبهذا المبلغ، كان على، امسك الخشب، أن أعول حجرة كاملة ممثلة عن آخرها بأفواه جائعة وبالطبع هناك فارق بين الناس والحيوانات والحصان أيضا...!

على ما يبدو قدم مندل موختر سفوريم مفهوم لوقمينشين إلى الأدب اليديشي حين قدم قاطني الشتيل في قصته "خاتم التمني" التي نشرت عام ١٨٦٥. سريعا ما أصبح هذا المصطلح ذاتعا، ثم لقي رواجا بعد ذلك كوصف لهؤلاء الذين عانوا من الفقر المدقع؛ الذين لم يعرفوا في الصباح كيف سيبقون على قيد الحياة حتي المساء. هؤلاء الذين استغلوا جميع الفرص لكسب بعض المال أو الطعام، ولكنهم أيضا حاولوا التكيف مع ظروفهم الجديدة وأن "يقوموا بالمضاربة". كما ينطوي هذا المصطلح على معنى السخرية من الذات وشيء من الثقة والرقى إلى جانب الافتقار إلى الثقل الذي وصفه مارك شجال (١٨٨٧ - ١٩٨٥) عدة مرات ما بين عامي

^{٦١} أعرب عن امتناني لديسانكا شفارا لهذا المصدر.

١٩١٤ و ١٩٢٢ مع صور لليهود ينتقلون فوق أسطح فابتسك بعضا في أيديهم وحقيبة مدلاة من فوق أكفهم.^{٦٢} في نهاية القرن التاسع عشر في الكثير من الجماعات اليهودية، "تكون حوالي ٤٠ بالمائة من إجمالي عدد السكان اليهود ممن يطلق عليهم اسم أسر اللوفتمينشين:

^{٦٢} لعب هذا المصطلح أيضاً دوراً مهماً بالنسبة للصهاينة. في المؤتمر الصهيوني الأول ببازل عام ١٨٩٧، تحدث ديفيد فاربشتاين عن الفقراء الذين "يقتاتون على الهواء" (مؤتمر الجماعات الصهيونية في بازل) [٢٩ و ٣٠ و ٣١ أغسطس ١٨٩٧]، البروتوكول الرسمي [فيينا، ١٨٩٨]، ص. ١٠٤. وفي المؤتمر الخامس في بازل عام ١٩٠١ وصف ماكس نارودو "لوفتمينشين" بأنها "نمط يهودي متفرد". فمعاً يشكل "الكثير من رجال الهواء أمة الهواء". لهذا احتاج اليهود في النهاية إلى وطن خاص بهم (ماكس نورودو، كتابات صهيونية، تحرير لجنة العمل الصهيونية [كولونيا، ليبزيغ، ١٩٠٩]، ص. ١١٧-١١٨، قارن مع ص. ١٢٩). على الجانب الآخر، فكر في الاستعمار لفلسطين دون ضمانات سياسية- في عبارة وجهت ضد يهود شرق أوروبا الصهيونيين- باحتقار وصفوا [بعمل من الهواء يقوم به رجال الهواء] (من مقابلة نشرت عام ١٩٠٧ في صحيفة العالم، أوردتها أنجيليكا مونتييل، هيرتزل، حول تأسيس العالم. عن التغيرات والمثالب. من "عالم" هيرتزل حتى "توضيح عالم جديد" ١٨٩٧-١٩٩٧، تحرير جوانا نيتنبرج وأنطون بيلينكا وروبرت س. فيستريش [فيينا، ١٩٩٧]، ص. ١٩-٦٦، هنا ص. ٤٣). نعت الصهيوني الماركسي بير بوروخوف العمال اليهود بأنهم "بروليتاريا الهواء" لأنهم كانوا يعثرون بالكاد على وظائف في الصناعة الحديثة (ماتيتياهو مينتز، "بير بوروخوف"، في دراسات حول الصهيونية ٥ [١٩٨٢]، ص. ٣٣-٥٣، هنا ص. ٣٦). لتوضيح نطاق استخدام المصطلح، سأستشد بكلمات هانا أرينديت، التي أشارت إلى أولئك "رجال الهواء" المفكرين "بين اليهود الغربيين" الذين على الرغم من تمتعهم بالأمان الاقتصادي لم يستطيعوا أن يجدوا مكاناً لهم في المجتمع اليهودي أو غير اليهودي (هانا أرينديت، أزمة الصهيونية، مقالات وتعليقات، تحرير أيكه جايزيل وكلاوس بيترمان [برلين، ١٩٨٩]، ص. ٦٤).

أي أناس بلا تعليم أو رؤوس أموال أو أية تجارة بعينها.^{٦٣} إلى جانب هؤلاء الذين "أكرهوا على ترك" حرفهم السابقة والذين يقاتون الآن على الهواء أو الذين انخرطوا في "تجارة الهواء"، كتب إسحاق بابل يقول: "كما تقول أمي باركها الرب: 'الهواء يصيبك بالبرد'^{٦٤}" في مدينة أوديسا طوف "اللوتمينشين" بين المقاهي من أجل كسب روبل واحد لإطعام أسرهم، لكن لم يكن هناك ما يكسبونه وبأي حال ما الذي يجعل أي شخص يبذل أي عطاء لشخص عديم النفع، "لوتمينشين"؟^{٦٥} بصفة متكررة، استطاعت هذه الفئة البقاء فقط بفضل الإحسان اليهودي الجماعي والفردى. التغير في الهيكل الوظيفي وأنشطة وساطة جديدة يمكن تفسير هذا التمايز والانقسام بشكل أوضح قليلاً من خلال النظر إلى الهيكل الوظيفي قرابة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وفقاً لتعداد أجري عام ١٨٩٧، عاش ٥.٢ مليون يهودي في الامبراطورية الروسية وهو ما يمثل حوالي ٤% من إجمالي السكان. من بين هؤلاء ٤.٩ مليون - أي ١١.٥% من إجمالي السكان هناك - عاشوا في منطقة الاستيطان. وفي هذه المنطقة بمملكة بولندا وحدها عاش ١.٣ مليون يهودي (١٤% من إجمالي السكان). لم يعيش سوى ١٣.٥ بالمائة من اليهود بالريف، بينما عاشت النسبة المتبقية - حوالي ٨٦.٥% - في المدن. في هذا الوقت، كان الكثير من اليهود نشطين في مجالين رئيسيين للأعمال - التجارة والصرافة والائتمان من جهة والحرف اليدوية

^{٦٣} سالو و. بارون، اليهود الروس في عهد قيصرين والسوفييت (نيويورك، ١٩٨٧)، الطبعة الثانية، ص. ٩٥.

^{٦٤} شوليم أليشيم، ميناحيم مينديل المضارب، (ميونيخ، زيزريخ، ١٩٦٤)، ص. ١٢.

^{٦٥} أيزاك بابل، أعمال، تحرير فريتز ميراو، الجزء الثاني (برلين، ١٩٧٣)، ص. ٩٣.

والصناعة والنقل من جهة أخرى- فقد انخرط في هذه المجالات ما يزيد عن ٤٠% من اليهود في أي وقت. بهذه الطريقة، أصبحت التجارة تدريجياً أهم مصدر للدخل بين اليهود، بينما في بدايات القرن أصبحت الحرف اليدوية أكثر أهمية. كان العدد المتزايد للمهن الحرة في الحقيقة بلا أي أهمية وكذلك لم تكن هناك أهمية للفرص المتقلصة للعمل بالزراعة أو بأي قطاعات اقتصادية أخرى.

هل يعني هذا أن وظيفة الوساطة التي اعتمد أن يضطلع بها اليهود كانت تقوم الآن على أساس مختلف؟ بنظرة أولية تكون الإجابة بالإثبات. عملت نسبة كبيرة من اليهود في بعض فروع التجارة: في تجارة الحبوب والفراء والجلود والباعة الجائلين. تمكن اليهود حتى من إحرار تقدم في إنتاج وبيع المشروبات الكحولية ولو بصفة مؤقتة على الأقل. في الوقت ذاته، تتضح عملية تركيز رؤوس الأموال في ذلك الوقت بشكل جلي. وقعت التجارة تحت هيمنة عدد من كبار التجار. أما عامة التجار من اليهود فقد أضحوأ أشد فقراً. تعرض "جوال القرية"، وهو الوسيط النموذجي الذي كان يشتري غرضاً من هنا ويبيع غرضاً صغيراً هناك ويعمل كوكيل لكبار التجار ويقوم برحلات مكوكية بين القرية والمدينة - لمصاعب أكثر جسامة. لقد ازدادت صعوبة عملية تقصي الثغرات في السوق وأضحت فرص تمويل المعاملات التجارية أقل بكثير. حتى التجارة المحلية في منتجات صناعة الملابس الجاهزة أو منتجات الحرفيين اليهود كانت تنتقل إلى أيدي كبار التجار.

من الاستثناءات المثيرة في هذه العملية التجارة بالمدينة في المنتجات الجاهزة. بينما قام اليهود بتأسيس متاجر كبيرة في أوروبا الغربية وبولندا وروسيا، زالت المخاوف الشديدة ليحل محلها تراكم صغار التجار شديدي التخصص في الأسواق أو في الشوارع. وقف تجار التجزئة محتشدين إلى جانب بعضهم البعض ومعهم غالباً مجرد

القليل من المسامير والأحذية والمنتجات ذات الطابع الديني أو بعض الفاكهة. على البوابات وقف التجار اليهود ليعرضوا بضاعتهم للبيع على موائد ضيقة أو في صناديق للعرض. كانت المنافسة شديدة الضراوة والدخول شديدة الانخفاض. مرة أخرى، لعبت السمعة التي جعلت للتجار اليهود في السابق ميزة على غيرهم من التجار دورا كبيرا: أقصد هنا بساطة احتياجاتهم التي - على النقيض من الفكرة الدائنة عنهم - لم تكن تعبيرا عن نهمهم للمال أكثر منها تعبيرا عن التكيف مع الظروف المحيطة مما مكن اليهود من التكيف مع هوامش الربح المنخفضة للغاية. في النهاية، أدت هذه المزية إلى تلاشي قيمة حركات المقاطعة التي وجهت ضدهم والتي كانت إشارة إلى تزايد موجة العداء ضد السامية في بولندا. غير أن هذا الأمر وقف عائقا أمام تنظيم المنافسة الداخلية بين اليهود بعضهم البعض. في نهاية القرن التاسع عشر أفادت الملاحظات المسجلة أن التجار اليهود لم يعرضوا سلعهم للبيع بأسعار زهيدة فحسب، وإنما أيضا: كانت التجارة في المدن اليهودية أكثر لامركزية وأكثر تأقلا مع احتياجات المستهلك، خلافا للحال خارج منطقة الاستيطان. في الأقاليم المركزية تركزت التجارة بشكل رئيسي في "مجالات" بعينها أو في المنطقة المحيطة بمكان السوق، بينما في المدن اليهودية كانت توجد محال أكبر في جميع المناطق. كانت المدن اليهودية أيضا أكثر تقدما من المدن في الأقاليم المركزية من حيث التخصص. ... تستطيع التجارة المتخصصة هنا أن تقدم للجمهور خيارات أوسع في كل غرض من الأغراض.^{٦٦}

بشان الانقسام المتزايد الذي شهدته المجتمع اليهودي، فقد احتل الصرافون الذين - بطريقة ما - كانوا يواصلون دورهم التقليدي

^{٦٦} أنسيلم هيلمان، الأنظمة التعاونية اليهودية في روسيا (برلين، ١٩١١)، ص. ٣٣.

كوسطاء مالين للحكومة والأمراء - قمة الهرم. لقد استغل الصرافون فرصة تزايد الحاجة إلى السيولة المالية حيث ازدادت التعاملات المالية مع تطور الاتجاه إلى الصناعة وإنشاء خطوط السكك الحديد وتطور تجارة الجملة. رغم أنهم ظلوا أقلية من حيث العدد، كان الخبراء الماليون أكثر اليهود ثراء ونفوذاً وفوق كل ذلك تركزوا في مدينة وارسو. من بين هذه الفئة الصغيرة، تواجد في المدن الكبرى وكذلك المدن الصغيرة عدد كبير من الصرافين لتغيير العملات المالية إلى جانب الكثير من مقرضي الأموال الذين كانوا يحملون معهم "مصرفهم" في جيوبهم.^{٦٧} وبشكل ما كسبوا رزقهم. بهذا الشكل، ازدادت المهمة الوظيفية لليهود كوسطاء تعقيداً. لم تعد التجارة تقوم على المقايضة المباشرة لسلعة بسلعة - العملية التي يلعب فيها المال دوراً ثانوياً فقط - بل حل محلها الوساطة وتجارة الجملة المالية الرأسمالية.

حدثت عملية تمايز مماثلة في ثاني المجالات الرئيسية لأعمال اليهود: أي الحرف اليدوية والصناعة والنقل. بينما تارحت أهمية الحرفيين اليدويين في الاقتصاد القومي، اشتدت المنافسة بينهم. عاش الكثير منهم في أكثر الظروف تأساً.

لقد عانى الخياطون والحائكون والإسكافيون - جميعهم مثلوا العاملين بالحرف اليدوية - من صعاب جمة. وردت سجلات من الشيتل بكارازنوبول في مقاطعة موجيليف التابعة لروسيا البيضاء مفادها إمكان تقسيم الحرفيين اليدويين إلى ثلاث مجموعات:

كانت المجموعة الأولى تعمل حسب الطلب. وقد بقي قسم منها في المدينة لخدمة أهل المدينة، أما القسم الآخر فكان يرحل بين القرى

^{٦٧} بيرنارد د. فاينريب، التاريخ الاقتصادي الحديث لليهود في روسيا وبولندا. منذ التقسيم الأول لبولندا إلى رجيل ألكسندر الثاني (١٧٧٢-١٨٨١) (هيلدشليم-نيويورك، ١٩٧٢)، الطبعة الثانية، ص. ٥٦.

الحديقة ويبحث عن الزبائن هناك. عادة ما كان الخياطون والإسكافيون والتجارون والحدادون وصانعو الأواني القصديرية ومصالحو المواعيد وصانعو الزجاج يعملون في منازل الزبائن. كانوا يجوبون القرى والضياع يعملون في مكان ما اليوم ثم يمكن آخر في اليوم التالي ويعودون إلى ديارهم يوم "السبت". أحيانا، خاصة قبل العطلات المسيحية قبل عيد الفصح وعيد الميلاد كان يخرج الصناع بورشهم الكاملة من أجل إنجاز أعمال موسمية محددة. على وجه الخصوص، كان الحائكون والخياطون يفعلون هذا وكان الإسكافيون يقومون بهذا بشكل أقل. كانت المجموعة الثانية من الحرفيين اليدويين تعمل بدوام جزئي فقط على أساس الطلبات، لكنها غالبا ما كانت تعمل من أجل البيع بالأسواق الذي كانت على اتصال مباشر به. على سبيل المثال، كان الإسكافيون والسمكريون وصانعو القبعات يعرضون منتجاتهم للبيع في أكشاك بالأسواق أو في كبائن بالأسواق وفي السوق الأسبوعي بالمدينة نفسها وفي القرى القريبة. لم تكن للمجموعة الثانية من الحرفيين اليدويين أية علاقة مباشرة بالمستهلك. لقد فقدت هذه المجموعة أيضا استقلاليتها، وعوضا عن هذا عملت هذه المجموعة لصالح أصحاب الأعمال. ضمت هذه المجموعة بصفة رئيسية الإسكافيين الذين كانوا يصنعون أحذية رخيصة الثمن كان يطلق عليها اسم "أحذية مسيرة" للفلاحين الذين لا يشترطون معايير عالية. في الوقت المعاصر، بدأ الخياطون والحائكات والمطرزون وصانعو الجوارب وصانعو القبعات في انتهاج نفس الطريق الذي سار فيه الإسكافيون.^{٦٨}

تمكن قسم من الحرفيين من العثور على وظائف في الصناعات الموسعة وفوق كل شيء في صناعة النسيج التي تركزت في مدينة

^{٦٨} هيلمان، الأنظمة التعاونية اليهودية في روسيا (برلين، ١٩١١)، ص. ١٠١ بالكامل (على نسق ل. روشلن، ١٩٠٩).

لودز والمناطق المحيطة بها . لكن على ما يبدو كان العمال اليهود يتم توظيفهم بأعداد كبيرة من جانب اليهود في المصانع غير الميكنة أو الميكنة بصورة طفيفة . كان رجال الأعمال الألمان في مدينة لودز يفضلون جلب عمال متخصصين من ألمانيا . في هذه الحالة ، كان الاحترام الصارم للقانون الديني لا يعمل لصالح العمال اليهود . انطلاقاً من المخاوف من الميكنة ، لم يكن رجال الأعمال مستعدين لإغلاق الماكينات يوم السبت . من الحقائق المتصلة بهذا الصدد أنه في الغالب كان اليهود يملكون مصانع أكبر من تلك المملوكة لغير اليهود غير أنه في الوقت ذاته كانت مصانعهم أقل ميكنة وبالتالي أقل تحديثاً ونتيجة لذلك كانت قدراتها الإنتاجية أقل .

مرة أخرى ، كانت هناك مجموعة صغيرة من أصحاب الأعمال اليهود الذين برزوا ضمن أهم الشخصيات في البلاد . كان الكثير منهم يواصل الدور التقليدي الذي كان يقوم به اليهود العظام بتوريد المؤن للجيش ، هؤلاء الموردون الذين شكلوا في النصف الأول من القرن التاسع عشر الأساس الذي قام عليه الارتقاء الجماعي لعدد من الأسر وكانوا على صلة وثيقة بتجارة اليهود ورأس المال المصري . بهذه الطريقة استطاعوا الوفاء بالاحتياجات الضخمة لرأس المال التي كان اليهود بحاجة إليها لتحقيق التقدم في عملية الاتجاه للتصنيع .

كان أصحاب الأعمال اليهود يكتسبون قوة خاصة حين يستطيعون مواصلة الأنشطة التقليدية . لقد توازى انخراط اليهود في صناعة النسيج - هنا يجب أن نأتي على ذكر أحد أهم رجال الأعمال في مدينة لودز ويدعى بوزنانسكي - مع التطور المستمر الذي شهدته تجارة الملابس اليهودية . أما عن صناعة السكر - التي نشط فيها أسرة إيشتاين وكروينبرج وغيرها من الأسر اليهودية من وارسو - فإن الأنشطة السابقة التي قام بها اليهود في الريف في هذا

الجال على سبيل المثال على أراضي النبلاء قد كفلت لهم مكانة جيدة. أما الجال الثالث، جال النقل فقد ظهر مثلاً "ملوك السكة الحديد" بولياكوف وبلوخ بطبيعة الحال من تحت عباءة الدور اليهودي التقليدي في التجارة. في واقع الأمر، كانت مساعي رجال الصناعة والسماسة اليهود لتحقيق التكامل بين المجالات الاقتصادية المزدهرة بطرق متباينة ذات صلة بتجربتهم التاريخية. لقد لعبوا دوراً في تغيير مسار الأمور في الامبراطورية الروسية.

استمر سقوط عامة اليهود في هاوية الفقر بسرعة رهيبية. حاول الكثير من الحرفيين اليهود المفلسين كسب رزقهم من تجارة التجزئة رغم أن أفق النجاح لم تكن أفضل بكثير. لقد خسر المزيد من اليهود وظائفهم الاقتصادية. ففي الكثير من المدن بلغت نسبة اليهود الذين لا يملكون وظائف ثابتة ٥٠% أو أكثر بحلول نهاية القرن. في النصف الثاني من تسعينيات القرن السابع عشر ارتفع عدد هؤلاء الذين كانوا بحاجة إلى المساعدات بمعدل الثلث تقريباً. لم يزد تأثير المنظمات الخيرية اليهودية عن قطرة في بحر حتى حين انخرط الأثرياء من اليهود من أمثال بوزنانسكي أو بلوخ الذين اعتنقوا أولاً البروتستانتية ثم الكاثوليكية. حتى الهجرة لم تحقق أي تحسن ذي قيمة. لقد قام الحاخام الألماني عمانويل كارلياخ بزيارة وارسو أثناء الحرب العالمية الأولى. وحين أرسل خطاباً للوطن في الخامس من فبراير ١٩١٧، عبر عن ذعره مما رأي قائلاً:

في الأيام القليلة الماضية قمت بزيارة الكثير من المدارس العليا للتوراة والتلمود حيث كان الأطفال والمدرسون - جميعهم دون رواتب - حفاة الأقدام وأنصاف عراة عملوا في غرف بلا مدفئة. صادفت في طريقي - حيث بلغت درجة الحرارة ٢٠ أو ٢١ درجة [مئوية تحت الصفر] في ظني رجلاً رث الثياب [واحد من بين آلاف الأشخاص] فاقتربت منه وأنا مغطى بالفراء والقفازات الفرو

وسألته: "ألا تشعر بالتجميد تماماً؟" فأجاب "ألا يشعر أنفك بالتجمد؟" فقلت: "ليس الآن" فرد بسرعة بديهية، "ليس لدى الفقير سوى لحمة أنفه".^{٦٩}

يجب أيضاً دراسة الدور الوسيط متعدد الأوجه لليهود ببولندا وروسيا في ظل خلفية الانقسام الاقتصادي والاجتماعي بين صفوف اليهود. في عام ١٩١٢ كتبت جمعية موسكو لرجال الصناعة مذكرة دعت فيها إلى رفع القيود المفروضة على اليهود: "في النظام الاقتصادي للبلاد، يؤدي اليهود وظيفة حلقة الوصل بين مستهلكي السلع ومنتجها".^{٧٠} ويتذكر إسحاق بابل في العشرينيات من القرن العشرين: "وثق اليهود عرى الربح بين الفلاح الروسي والاسياد البولنديين، بين الاستعماري التشيكي ورجل الصناعة في لودز".^{٧١} هنا يوضح بابل أنه رغم كل التغيرات كان لا يزال هناك بقايا "نظام التداول الاقتصادي" التقليدي الذي يشمل رجال الأعمال والمصرفيين وتجار الجملة والتجزئة و"جوالي القرية" والباعة الجائلين من اليهود أو بالأحرى كان هذا التداول يستمر على أساس جديد. في كل من القطاعات الرأسمالية وقبل الرأسمالية للاقتصاد، قام اليهود بدور الوسيط بين الإنتاج والمبيعات بما فيها المعاملات المالية بين اليهود

^{٦٩} ألكسندر كارلباخ، "حاخام ألماني يتجه شرقاً"، في الكتاب السنوي السادس لمعهد ليو بايك (١٩٦١)، ص. ٦٠-١٢١، هنا ص. ١٠٨. تبين الخطابات بقوة الظروف التي أحاطت بيهود وارسو وتجربة مقابلة يهود شرق أوروبا.

^{٧٠} إ. م. ديجور، اليهود في الاقتصاد الروسي، في اليهود الروس (١٨٦٠-١٩١٧)، تحرير جيكون فرومكين، جريجور أرونسون وأليكسيس جولدن فايسر (نيويورك- لندن، ١٩٦٦)، ص. ١٢٠-١٤٣، هنا ص. ١٤٣.

^{٧١} بابل، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، ص. ٦٨.

بعضهم البعض، وبين اليهود وغير اليهود، وبين غير اليهود بعضهم البعض. غير أنهم لم يعد لديهم احتكار لهذا الدور. المنافسة لإخراج المنافسين من السوق ومعاداة السامية لقد أدى التغير الذي اعتري دور الوسيط وفقدان احتكار اليهود لهذا الدور إلى تعريض اليهود لصراع اقتصادي ضار على النفوذ. في روسيا، ربط عدد كبير من طبقة النبلاء ورجال البلاط بين اليهود وخطر الرأسمالية والتحديث وحتى خطر الثورة. أصبح لعداء لسامية أيديولوجية تتسم بالعداء لكل من السامية والاشتراكية في الوقت ذاته بهدف تحقيق التماسك للنظام القائم بالفعل. في بولندا أسفرت "المسألة القومية" عن زيادة حدة التنافس من أجل الحصول على حصة في السوق. كثيرا ما نظرت الطبقة البرجوازية البولندية الصاعدة إلى اليهود كغرباء يقفون كعقبة كئود أمام أفضل الفرص المتاحة. في مدينة لودز كثيرا ما تم الخلط بين اليهود والألمان وكانت تحوم حول اليهود الشكوك بالتواطؤ مع القوة الاستعمارية الروسية، رغم أن الكثير من رجال الأعمال اليهود لم يفتقروا إلى حس الوطنية البولندي.

في بداية روايته العظيمة "العقار" يصف إسحاق باشيفيس سينجر كيف تم نقي الكونت جامبوليسكي إلى سيزيا نتيجة لاشتراكه في ثورة عام ١٨٦٣ وتم نقل ملكية أراضيه إلى أمير روسي. طلب تاجر الحبوب اليهودي كالمان جاكوبي - الذي سبقت له التجارة مع الثوار - من الإقطاعي الجديد تأجير الأرض ونجح في استجارها في النهاية. "لقد أثار غضب فلاحي جامبول هذا اليهودي الكافر الذي استطاع باسم مستعمر غريب أن يتسيد أرضا بولندية." كانت أنشطة كالمان التجارية ناجحة فقد فتح حانة وحاتوت بشكل غير شرعي غير أن السلطات الروسية تذرعت بالصبر والتسامح معه. أصبح الفلاحون - الذي كان يدفع مقابل

فائض منتجاتهم أسعاراً جيدة - زبائنه الرئيسيين. بعد ذلك قام كالمان بفتح محجر للحجر الجيري وحظي بنصيب في السكة الحديد - التي تديرها الحكومة الروسية - وينظمها "والينبرج أحد أقطاب وارسو ... وهو يهودي اعتنق المذهب الكاثوليكي " هنا من الواضح أن سينجر اتخذ من "ملك السكة الحديدية" جان جوتليب بلوخ (أرجع لما سبق) مثالا له ^{٧٢} في ظل الظروف المتغيرة، ألهم النجاح الاقتصادي للطبقة العليا اليهودية المناخ المناهض لليهودية. علاوة على ذلك، لم يتسم المصرفيون وتجار الجملة اليهود بصفات غير ملموسة وواضحة كذلك التي كان يتميز بها يهود القرية الذين وثق بهم الفلاحون أو كرهوهم بوصفهم اليد اليمنى للسيد الإقطاعي. في ظل الإنتاج الرأسمالي وعملية التوزيع التي كان من الصعب إدراكها، كان من الممكن في كل من بولندا وروسيا تقديم اليهود ككبش فداء تقليدي في أوقات الأزمات بوصفهم مسئولين عن الصعاب الاقتصادية أو العواقب السيئة للتوجه نحو التصنيع. هذه انطلاقة هامة لفهم العلاقة بين التوجه نحو الصناعة والعداء للسامية.

لقد قدم الشاعر بولسلو بروس (١٨٤٧ - ١٩١٢) وصفاً للمناخ السائد بعد ثورة عام ١٨٦٣ الفاشلة الذي أراد فيه البولنديون أن يحظوا بـ "سيادة داخلية" بعد الازدهار الاقتصادي. في نفس الوقت، لم يكن بروس نفسه خلوا من المواقف المناهضة لليهود لأنه خشي من أن اليهود الذين لم يتصرفوا كما أراد هو وغيره من "الإيجابيين" كان من الممكن أن يزعموا مسار التنمية الاقتصادية. في روايته "الدمية" التي تدور أحداثها في مدينة وارسو في الثمانينيات من القرن التاسع عشر يقول بروس على لسان إحدى شخصيات الرواية: "اليهود، أقول، اليهود ... لقد أبقوا على كل شيء مقيد

^{٧٢} أيزاك باشيفيس سينجر، العقار (ميونيخ، ١٩٨١)، ص. ١١-١٦.

وتأكدوا من عدم اعتراض أي وكوليسكي (تاجر بولندي صاعد) لطريقهم ما دام ليس يهوديا ولا حتى ميك (يهودي منصر). " ثم يقوم هذا الوكوليسكي بتعيين يهودي يدعى شلابجاوم كمندوب للمبيعات لم يكن يستطيع إيجاد وظيفة بشركة يهودية بسبب الفاض في العمالة بالسوق. في ظل جو من العداء المتزايد للسامية التي تبرز بطرق عديدة، في النهاية يبيع الوكوليسكي شركته له لأغراض شخصية. يأتي رد فعل صديقه بقوله: "من المريع كيف يخرجنا اليهود ... في يوم ما سيكون هناك أعمال عنف أخرى بسبب اليهود. " يسأل يهودي مندمج، يعمل طبيبا، الوكوليسكي أن يظل ممسكا بعنان الأمور بينما لا زال يستغل قدرات اليهود: "شعب عبقرى اليهود لكن بالهم من أوغاد ... فكلهم محالون سيئو الطالع، بيد أنني لأبد وأن أعترف بعبقرتهم ولا يمكنني إنكار أنني أتعاطف معهم. أشعر أن يهودي صغير قدر أفضل من رجل بالغ من الإقطاعيين البروسيين ... " ولكن

العرق والوضع المشترك يربط بيننا غير أننا تقسمنا آراؤنا. نحن [اليهود المتعلمين والمندمجين - ه. ه. ه.] نملك المعرفة؛ لديهم التلمود ولدينا الفهم، لديهم المكر ... من ثم فإنه من مصلحة الحضارة أن يبقى بين أيدينا تقرير في أي اتجاه نسلك. يمكنهم فقط أن يلوثوا العالم لا أن يسروه بقطانهم وبصلهم. لاحقا، قام الصديق سابق الذكر مرة أخرى بتسجيل المناخ العام السائد قائلا:

برحيلي أخبرني [بائع سابق في تجارة وكوليسكي - ه. ه. ه.] أنه قريبا لن يكون هنا سوى يهود وسيتم تهويد الباقي ... إن المناخ السائد يضطرم ضد اليهود. كل ما يحتاج إليه هو الشائعات بأن

اليهود يقومون بحطف أطفال مسيحيين ويقتلونهم من أجل عمل خبز
الماتسو [خبز غير مخمر من أجل عيد الفصح اليهودي - ه.ه.].^{٧٣}
الهاسكالاة: التنوير اليهودي

في أعقاب ظهور الفلاسفة اليهود الألمان حول موسى مندلسون،
حين غزت أفكار التنوير أوروبا الشرقية، لم يكن لهذه الأفكار أثر
يذكر على السكان اليهود هناك. وإن كان "البرلينيون" قد تمكنوا من
بناء "أورشليم التنوير" الجديدة في مدينة فيلينوس فقد ظلوا غرباء
من منظور الأسلوب التقليدي للحياة ليهود شرق أوروبا
[أوستيودن]. لم يكن لغالبية الأوست يودن أية صلة بالنصوص
المكتوبة باللغة العبرية لأنها لم تكن لغتهم. طالب رجال التنوير،
المسكيليم - الذين يمثلهم إسحاق بير ليفينسون (١٧٨٨ - ١٨٦٠)
المعروف باسم "مندلسون اليهود الروس"^{٧٤} - أن يندمج اليهود
بشكل تام في المجتمع القائم وأن يشاركوا في النظام التعليمي العلماني
وأن يغيروا أساليب حياتهم التقليدية وبهذه الطريقة يتوصلون إلى
هوية يهودية جديدة؛ لم يكن هذا المطلب مقنعا بشكل خاص بالنظر
إلى الظروف المحيطة. كان يبدو أن الحسيدية وحتى الأرثوذكسية
لديهما إجابات أفضل في هذا الصدد.

رغم ذلك، أصبح تغير القناعة باديا للعيان بشكل تدريجي. كان
للمدرسة الحاخامية التي افتتحت في وارسو في ١٨٢٦ والمعاهد
اللاهوتية الحاخامية في مدينتي فيلينوس وزيتومير في ١٨٤٧ لها أثر

^{٧٣} بوليسلاف بروس، الدمى (برلين، ١٩٥٤)، ص. ٨٧، ٦٥٨،
٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٦، ٨٣٤ بالكامل.

^{٧٤} إرجع إلى إينجه بلانك، الهسكله والتحرير. طبقة المفكرين
الروسية اليهودية و"المسألة اليهودية" على أعتاب "الإصلاحات
العظمى"، في اليهود في وسط وشرق أوروبا. منذ التحرير وحتى
الحرب العالمية الأولى، تحرير جوتهودل رودي (ماربورج، ١٩٨٩)،
ص. ١٩٧ - ٢٣١، هنا ص. ٢١٣.

خاص كنوع من بديل للمدارس الثانوية وكثقل مواز للياشيفوت التقليدي (أكاديميات المعرفة التلمودية) . لقد أسفر الصراع الطويل بين الحسيديين وأتباع الهاسكالا عن ظهور شكل مختلف من أشكال يهود شرق أوروبا والذي دافع في ذلك الوقت بشكل واع، وإن كان من منطلق آراء مختلفة، عن قومية يهودية شرق أوروبية مستقلة.

قراءة منتصف القرن التاسع عشر أدرك جيل جديد من المفكرين اليهود أن التنوير والتحرر لا يمكن فرضهما بالقوة "من أعلى" أو "من الخارج" وإنما ينبغي أن ينبثق عن الهوية التاريخية والثقافية للشعب. تمثلت إحدى نتائج هذا الإدراك في بدء الناس الكتابة باللغة اليديشية وازدهار الأدب اليديشي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وصل هذا الازدهار إلى أوجه على يد الشعراء شوليم أليشيم (١٨٥٩ - ١٩١٦) ومندل موختر سفوريم (١٨٣٦ - ١٩١٧) وإسحاق ليب بيريز (١٨٥٢ - ١٩١٥) وفيما بعد شالوم آش (١٨٨١ - ١٩٥٧). من مظاهر إحياء الثقافة اليديشية إصدار مجموعات من الأغاني والنوادر والنكات اليديشية إضافة إلى الموسيقى والعادات والممارسات اليهودية. قامت الجمعية الإثنوجرافية التاريخية اليهودية الروسية التي تأسست في سان بطرسبرج عام ١٩٠٨ بالتوسع في دراسة الثقافة الشعبية اليديشية ووضع قواعد لها . يرجع اسم هذه الجمعية إلى البارون هوراس جينزبرج (ناقتالي هيرتز جينزبرج، ١٨٣٣ - ١٩٠٩) وهو أحد المصرفيين وفاعلي الخير ومن الشخصيات القيادية المحنكة بالجماعة اليهودية في سان بطرسبرج. كانت الدراسات الميدانية التي أجريت في منطقة الاستيطان على يد س. أناسكي (يكتب أيضا أن سكي - شلومي زينفيل رابوبورت، ١٨٦٣ - ١٩٢٠) مؤلف المسرحية اليديشية الشهيرة "Der dibek" (١٩١٩)؛ ترجمت

تحت عنوان "الدبّاك"^{٧٥} ذات أهمية كبرى. لم يتوقف استهداف إقحام اليهود في الثقافة الإنجيلية-العبرية وكذلك في الثقافة القومية البولندية والروسية أي "التثاقف المزدوج" وإنما اتخذ هذا الهدف مكانة مختلفة. لقد نشأ معظم رجال التنوير الجدد في الطبقة الاجتماعية الفقيرة وقد عاشوا خلال الصدامات بين الحسيديّة والتنوير وفي خضم الصراعات التي نشأت عن فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على اليهود وغيرها من القوانين الصارمة في عهد القيصر نيقولا الأول. علاوة على ذلك، تعرف رجال التنوير الجدد أيضا على الجدل الناتج في الدوائر الواقعية-النقدية الروسية في هذا الوقت حيث قامت بالهجوم العنيف على الحالة الراهنة للمجتمع: هم أنفسهم كانوا ينتمون لما يطلق عليهم "الرجال غير الضروريين" وهو مفهوم رئيسي كان موضعاً للنقاشات والمسااعي الأدبية في ذلك الوقت ويقصد به الرجال الذين كانوا دخلاء اجتماعيين وكانت لديهم فرصة ضئيلة للتقدم الاجتماعي. إبان العصر الليبرالي في عهد ألكسندر الثاني، تمكنت هذه الحركة في البداية من أن تتطور. كانت مدينة أوديسا هي مركز هذه الحركة. ظهرت أول صحيفة يهودية ناطقة بالروسية هنا لفترة وجيزة. شهدت مدينة وارسو وغيرها من المدن تطورات مماثلة. بعد إخضاعها للمزيد من القيود بعد الثورة البولندية في عام ١٨٦٣، أصبح مصير الحركة التنويرية اليهودية الجديدة في شكلها آنذاك بعد عام ١٨٨١- عام اغتيال ألكسندر- هو الإخفاق التام. رغم هذا الإخفاق، فقد أدت الهاسكالا إلى المزيد من التطورات. لقد أصبح أتباعها جزءاً من مختلف المجموعات اليهودية الثورية الاشتراكية التحررية الصهيونية القومية. كان يربط بين

^{٧٥} ارجع إلى الحياة في شتيتل روسي. على خطى أنسكي. المجموعة اليهودية لمتحف الدولة للأعراق في بطرسبرج، كتالوج لأحد الشتيتلات (كولونيا، فرانكفورت، ١٩٩٣).

كل هذه الجماعات أمر واحد ألا وهو الوعي بوجود قومية يهودية شرق أوروبية.

الاندماج والتآلف

لم يكن رد فعل اليهود واحداً تجاه التغير الاقتصادي الاجتماعي الجذري والشكل الجديد الذي اتخذته العداء ضد السامية الذي كان يحقق انتشاراً. رأت مجموعة صغيرة - بالاشتراك مع غالبية اليهود الغربيين - فرصة للعشور على مخرج من ظروف حياتهم البائسة والاضطهاد المطرد من خلال الاندماج أو التآلف والتخلي عن ثقافتهم الخاصة عبر تحالفها مع ثقافة أخرى أو مواجهة الثقافة المغايرة على أمل التوصل إلى ثقافة جديدة تجمع بينهما. في هذا الصدد، تكون المؤشرات الأولى لإصلاح الممارسات الدينية في المعبد اليهودي وفي الحياة اليومية ذات علاقة. كان اليهود المقصودون بالإصلاح هم هؤلاء الذين حققوا نجاحاً اقتصادياً أو الذين تأثروا بأفكار حركة التنوير. لقد انطوت الأفكار على شعور بالتقاول أنه على المدى الطويل يمكن تحقيق الاندماج التام في المجتمع البولندي أو الروسي. كان لابد وأن يسبق هذا التحالف الثقافي بطبيعة الحال القضاء على التمييز ضد اليهود. سعى هذا الرأي إلى تحقيق التكامل، بينما أصر على الحفاظ على الهوية اليهودية.

تساعد بيانات التعداد حول اللغة الأم والجنسية على توضيح بعض من هذا الوعي بأهمية الاندماج. فائناء تعداد اجري في وارسو عام ١٨٨٢، حاولت الجماعة اليهودية - تحت زعامة دعاة الاندماج وفقاً لمعتقداتهم - نتيجة لأعمال العنف التي حدثت قبيل هذا التعداد أن تحض اليهود على إعلان انتمائهم للجنسية البولندية. وقد كللت هذه المحاولات بالنجاح إذ لم يعلن سوى ٢.٧ % من سكان وارسو أنهم يتمتعون بالجنسية اليهودية. اختلفت الأمور كثيراً عام ١٨٩٧. هذه المرة طرح سؤال حول اللغة الأم للشخص: فأجاب

٢٨.٣% من سكان وارسو أنها اللغة اليديشية مما يشكل ٨٤% من إجمالي عدد اليهود بينما أجاب ١٤% بأن لغتهم الأم هي اللغة البولندية. يمكن للمرء - مع توخي الحذر - أن يعتبر هذا إشارة لرغبة اليهود في الاندماج. علاوة على ذلك بين ١٤% هذه كان هناك من يقطعون صلاتهم بالجماعة الدينية وينضمون للحركات "العلمانية" - الاشتراكية أو الصهيونية. لآزال الكثيرون منهم يشعرون أنهم يهود وإن كانوا تحولوا بعيدا عن معتقدهم الديني، وهو ميل اشتد بعد نهاية القرن. أما النسبة المتبقية من يهود وارسو ٢% فتوضح أيضا أن القومية واللغة الأم كانت متغيرات مستقلة: لقد كان معظم الذين أتوا إلى مملكة بولندا عبر ليتوانيا من روسيا من اللاتفيين بسبب الكارثة الاجتماعية والاقتصادية التي لحقت بهم أو كانوا هاربين من أعمال العنف التي جرت ضدهم أو كانوا يهودا طردوا من مناطق خارج منطقة الاستيطان فاعتبروا أنفسهم يهودا وليسوا روسا. في المدن الكبرى مثل مدينة وارسو ولودز حيث تشابه الشخص، كانت الجهود المبذولة لقطع الصلات مع الجماعة الدينية أقوى بطبيعة الحال منها في المدن الأصغر. في مملكة بولندا ككل لم يقر سوى ٣.٥% من اليهود بأن البولندية هي لغتهم الأم.

يهود رابطة العنق ويهود القفطان

ارتحل اليهود المندمجون بعيدا عن عالمهم التقليدي وتحلوا إلى حد ما حتى عن الديانة اليهودية. ليسوا جميعهم ولكن الكثير منهم - ممن يوصفون في الأدب أحيانا بأنهم جويش ييدن، "اليهود ذوو رابطة العنق" - ارتأوا أن اليديشي ييدن أو من يطلق عليهم اسم "يهود القفطان" كانوا حجر عثرة أمام اعتلائهم سلم النجاح.^{٧٦} في ذلك الوقت تردد في بولندا وروسيا ما تردد من قبل عن اليهود المهاجرين

^{٧٦} ارجع إلى فيرسونكينيا فيلت [العالم الضائع]، تحرير جواشيم ريدل (فيينا، ١٩٨٤)، ص. ٧٧ - ٩٠.

إلى الغرب: اليهودي القذر، غير المتحضر، صاحب الحرفة اليدوية، الخانع في قفطانه المهلهل الرث بسوالفه المدلاة في التواء حتى تصل إلى كتفيه، و تفوح منه روائح الثوم والبصل المنفرة، المتسول والنشال والقواد، الواقف في طريق الاندماج والمسئول حتى عن العداء للسامية. هذا الاستمزاز وصل إلى حد الكراهية لأصل اليهودي. كل هؤلاء اليهود "الأوروبيون" بروحهم المتضائلة وأفقه الضيق ... لا يمكنهم التحرر من فكرة أننا أقاربهم الفقراء حتى حين نكون أغنى منهم! هذا الافتراض الداخلي الذي يستشعرونه تجاه كل شيء الذي يأتي من الشرق أصابني في الصميم ... مهما كان المكان الذي جئنا منه فما نحن سوى "أوسيت يودن" بالنسبة لهم!^{٧٧} ازداد الوضع تعقيدا لا فقط لأن "يهود ربطة العنق" نظروا بازدراء "ليهود القفطان" بل لأن يهود شرق أوروبا كانت لديهم مشاكلهم اليهودية الشرق أوروبية الخاصة بهم. مثلما قابل الكثير من يهود غرب أوروبا المملوئين بالرعب يهود شرق أوروبا المهاجرين إليهم بالرفض، نظر عدد من اليهود البولنديين خاصة الساعين للاندماج - إلى اليهود المهاجرين من روسيا بشيء من عدم الثقة وحتى النفور. هؤلاء اليهود المهاجرون الذي وصل إجمالي عددهم إلى حوالي ٢٥٠.٠٠٠ شخص تحدثوا بلهجة أخرى من اللغة اليديشية ولم يستخدموا اللغة البولندية خارج الجماعة اليهودية بل تحدثوا الروسية. إلى حد كبير، كان اليهود المهاجرون من روسيا منعزلين عما يحيط بهم. بدا كل من مظهرهم الخارجي وسلوكهم متماشيا مع جميع التحيزات ضدهم. سارع كل من اليهود وغير اليهود في بولندا إلى إلصاق مسؤولية إخفاق التعايش بين البولنديين واليهود وتزايد

٧٧ بانايت استراتي، عائلة بيرلموتر، في قضية العمل، الجزء الثامن، تحرير هاينريش شتيلر (فرانكفورت، ١٩٨٨)، ص. ١٦٥.

موجة العداء للسامية بالليتفك. ترك الناس أيضاً لأنفسهم العنان للتنفيث عن كراهيتهم للروس في شخص اليهود.

كان رأي جدي أن العلاقات بين القسم المسيحي من المجتمع البولندي واليهود البولنديين كانت قد أصبحت أكثر تناغماً منذ زمن طويل. لقد اندمج جزء من اليهود البولنديين في المجتمع، غير أنه حتى اليهود الذين لم يندمجوا جعلوا أنفسهم في وضع يمكن من خلاله تحقيق التعايش التام مع البولنديين. دمر هذا التعايش - وفقاً لجدي- الليتفك الذين لم يتحرروا من "وطنيتهم المزدوجة" حتى بإذلالهم من جانب إدارة القيصر... لم يكن جدي الوحيد الذي تبنى هذا الرأي بل شاركه فيه الكثير من اليهود البولنديين.

غير أنه يجب عدم إغفال حقيقة أن الليتفك كانوا أكثر اندماجاً في المجتمع البولندي اليهودي مما أقر به الكثير من معاصريهم. كما أنهم أسسوا منظمات فعالة. إضافة إلى ذلك، كان هناك في وقت لاحق الكثير من المؤيدين للصهيونية بينهم.

مثال:

اليهود في وارسو ولودز

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت وارسو ثم من بعدها لودز مراكز جذب لليهود الذين كانوا يهاجرون من الريف تحت وطأة الضغوط التي تمارسها عليهم السلطات أو لأن الوضع الاقتصادي لم يترك لهم خياراً آخر بالفعل. بدء التوجه نحو الصناعة، ازدادت المدن الكبرى جاذبية في أعين كل من اليهود المعدمين والفلاحين سعياً وراء الرزق.

لقد اشتملت وارسو، عاصمة المملكة الثرية بتقاليدها وأكبر مدينة في بولندا (لا فقط في منطقة التقسيم الروسية)، على

^{٧٨} ميكال ستيرزيمسكي، المحادثة التي لم تكتمل. مذكرات (ليبيزيج، ١٩٨٥)، ص. ٨٦.

السلطات الرئيسية في البلاد وأهم المؤسسات الثقافية والكثير من الصناعات الخدمية وخدمات النقل والخدمات الاقتصادية. نتيجة لذلك، كانت هناك فرصة جيدة للعشور على وظيفة هناك بأجر مرتفع. ارتفع إجمالي عدد السكان من حوالي ٢٢٣.٠٠٠ عام ١٨٦٤ إلى ٨٨٤.٠٠٠ عام ١٩١٤ وارتفع عدد اليهود من ٧٣.٠٠٠ إلى ٣٣٧.٠٠٠ وارتفعت نسبتهم بالنسبة إلى إجمالي السكان من ٣٣% إلى ٣٨%. حدث الارتفاع الرئيسي في عدد اليهود بعد عام ١٨٩٠. استمر هذا التزايد السريع في عدد السكان اليهود بالنسبة لإجمالي عدد السكان في إثارة المخاوف من أن اليهود "سيغرقون" المدينة بالتأثيرات الأجنبية كما أثار مشاعر العداء للسامية. من العوامل التي أسهمت في ذلك أن الزيادة في عدد اليهود لم ترجع فقط للهجرة، فهناك مزاعم أن معدلات المواليد لدى اليهود كانت أعلى منها عند المسيحيين. لذا، فعلى المدى الطويل كان من الحتمي أن يقلص عدد المسيحيين.

يمكن أن يؤيد هذا الرأي التوجهات التي ذاعت في الماضي. كان يقال أن اليهود في المتوسط يتزوجون في سن مبكرة عن المسيحيين لأسباب دينية، وبذا ينجبون عددا أكبر من الأطفال. بيد أنه إن تأمل المرء الحقائق عن كثب، يجد أن هذا لم يعد الحال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. رغم أنه لا يمكن الاعتماد على أساس إحصائي في هذا الصدد، يمكننا القول بأن عدد الزيجات في سن مبكر انخفض وأن عادات الزواج اليهودية والمسيحية بدأت في التقارب. يمكن تفسير حقيقة ارتفاع معدل الإنجاب عند اليهود عن المسيحيين بأن عدد الزيجات بين اليهود كان نسبيا أكبر منه بين الكاثوليكين. علاوة على ذلك، كان التركيب السني للجماعة اليهودية أصغر منه عند الكاثوليك مما أدى إلى زيادة عدد المواليد. أخيرا يبدو أن ارتفاع عدد الأبناء يمكن أن يعزى-

فوق كل الاعتبارات الأخرى - إلى انخفاض معدلات الوفيات بين الأطفال اليهود . يبدو أن مستوى الرعاية ومعايير النظافة الشخصية والأوضاع الصحية كانت أعلى عند اليهود منها بين المسيحيين . إضافة إلى ذلك كان عدد أطفال السفاح عند اليهود أقل منه عند المسيحيين والأطفال غير الشرعيين كانوا يتوفون كثيرا على وجه الخصوص .

في لودز يمكن ملاحظة عملية مماثلة في مناح كثيرة منها رغم تباين الظروف بشكل كبير . في هذه المدينة المصنع التي تأسست بقرار حكومي عام ١٨٢٠ كانت صناعة النسيج هي السائدة . حيث لم يكن هناك في الحقيقة أية مسؤوليات إدارية مركزية ، لم تكن لودز إلى هذا الوقت عاصمة إقليمية - كانت الوظائف الشاغرة والخدمات والثقافة المتاحة أكثر تجانسا بشكل ملحوظ منها في وارسو . جعل التوسع السريع لصناعة النسيج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من لودز أكبر تجمع للعمال في بولندا . تعقد الهيكل السكاني من بسبب أن الألمان من عمال وحرفيين ورجال أعمال تواجدوا هنا بأعداد غفيرة رغم تقلص عددهم بعد أن كانوا يمثلون ثلاثة أرباع السكان بعد إنشاء المصانع مباشرة إلى ١٠% فقط من إجمالي السكان بعد نهاية القرن . لا عجب - بالنظر إلى طبيعة المدينة - أن سكان مدينة لودز تزايدوا بصفة أسرع من سكان وارسو . فقد ارتفع عدد السكان من أقل من ٤٠.٠٠٠ في ستينيات القرن التاسع عشر إلى حوالي ٤٨٠.٠٠٠ بحلول بداية الحرب العالمية الأولى . ارتفعت نسبة اليهود أثناء هذه الفترة من ١٩.٥% إلى ٣٦% . غير أن هذه الأرقام تشير فقط إلى أصحاب الأصل اليهودي . فقط ٣٣% من السكان اعتنقوا الديانة اليهودية . من ثم يمكننا استنتاج أن بعض اليهود اعتنقوا البروتستانتية - الأمر الذي قربه من الألمان في لودز .

نوعاً من رغبته في الاندماج الكامل في المجتمع البولندي تحول الكثير منهم لاحقاً إلى الكاثوليكية.

بينما تشابه الهيكل الديموجرافي لكلتا المدينتين، أشارت النسبة الأعلى لليهود المندمجين إلى اختلاف جوهري في الهيكل الاجتماعي والوظيفي. في وارسو قرابة نهاية القرن التاسع عشر عمل أغلب اليهود أو حوالي ٤٠% منهم بالتجارة ونظام الائتمان الذي تسيدوه رغم أن هذا الأمر قل تدريجياً. كان ثاني أهم مجالات العمل لليهود الصناعة والحرف اليدوية التي كان يشكل اليهود ٣٠% من العاملين بها، غير أن إسهام اليهود في هذا القطاع شهد ارتفاعاً ملحوظاً. كانت جميع القطاعات الأخرى في حقيقة الأمر بلا أهمية كبرى. في الجمل، جاءت الظروف في وارسو كرد فعل على التطورات العامة التي شهدتها اليهود في بولندا الروسية. هنا أيضاً كان من الممكن ملاحظة الانقسام المتزايد بين القلة من الأثرياء والكثيرين من الفقراء الذين تركزوا في مجالات تجارة التجزئة والبيع بالتجوال والمهن الصغيرة. من المدهش أنه كان هناك عدد قليل من أصحاب الأعمال الصناعية من اليهود الأغنياء - غالباً المندمجين - غير أن معظم رجال الصناعة هؤلاء كانوا يملكون مشاريع صغيرة غالباً ما استعملت عمالاً يهود.

كان هذا في البداية أيضاً ملمحاً من ملامح الوضع بمدينة لودز. بوجه عام، كانت المصانع المتمتعة بأعلى مستويات الميكنة ملكاً لغير اليهود. في صناعة القطن التي كانت تتطور إلى صناعة حديثة واسعة النطاق، انخفض عدد العاملين من اليهود عنه في الفروع "الأقدم" لصناعة النسيج. بصفة عامة، وجد اليهود عمالاً في المؤسسات غير الميكنة أو الميكنة بشكل بسيط حيث يمكنهم أداء فروضهم الدينية. علاوة على ذلك، غالباً ما كان يعتمد رجال

الصناعة اليهود المندمجون أو النازعون إلى الاندماج توظيف عدد قليل من اليهود .

يقول إسرائيل جوشوا سينجر، الأخ الأكبر لإسحاق سينجر، في وصف مشروع يهودي كبير إلى حد ما رفض صاحبه التطور مع العصر وتحويله إلى العمل بالطاقة البخارية:

كانت قعقة أجهزة النول تترد أصداؤها في الفناء... في ليلة السبت كان العمال يعملون لفترات أطول من المعتاد، لأنه يتعين التعويض عن العطلة التي لا ينجز فيها عمل. في ضوء الشموع المصنوعة من الدهن التي كانت توضع على الأنوال، أنتج العمال الخمسون الأشداء أغطية للرأس... كان مصنعه يهودي العمالة تماما. على كل عضادة باب تجد ميزوزا [رقية صغيرة مطوية أو ملفوفة منقوش عليها آيات من الكتاب المقدس - ه.ه.ه.] وبين كرات الخيوط الصوفية والصناديق في مخزنه كانت لديه مقراة قائمة بجانب شمعدان معدني كي يستطيع العمال لديه تلاوة صلوات العصر والمساء دون ترك المصنع. في الشتاء حين كانوا يعملون قبل ارتفاع نجم الصباح كانوا أيضا يقيمون صلاة الصبح هناك.

تأكد تشيم ألتر من أنهم يلتزمون بجميع شرائع اليهودية. حتى حين يكون الحر قانظا، لم يجرؤ أي شاب يهودي أن يجلس على النول عاري الرأس - حتى وإن استخدم كيسا ورقيا لتغطية رأسه. كان شال الرأس إجباريا وتأكد تشيم ألتر من أن العمال الشباب لم يشذبوا لحاهم أو يرتدوا معاطف مدنية بل القفطان التقليدي.

تبرع تشيم ألتر بالمال لمعبد بالوتر اليهودي للنساجين الذي أطلق عليه اسم "حب الأصدقاء" وكان يتردد على المصانع وساحات الأخشاب ومحازن الفحم. حتى أنه أبدى غضبه على أحد المعلمين لتدريسه العمال عصر السبت. في الصيف كان يأخذهم في جولة بين "أقوال الأسلاف" وفي الشتاء فصول من "سفر المزامير". كان رجلا

متعلماً واسع المعرفة في كل شيء يمكن للمرء أن يتوقعه في العالم الآخر. كان يلقي محاضرات حول الحق الإنساني وخيلاء البشر وحوله عمال النسيج المنهكون.^{٧٩}

حتى الحرب العالمية الأولى، كانت غالبية المصانع اليهودية في كل من وارسو ولودز قديمة وصغيرة نسبياً أو منظمة على أساس العمالة اليدوية. كان القليل منها مؤسسات كبرى على مستوى عالٍ من الميكنة.

تنوع الهيكل الداخلي للمشروع اليهودي (بمعناه الأوسع) في كلتا المدينتين. في حوالي عام ١٩٠٠، ربما ظلت نسبة اليهود في هذه الجماعة الاجتماعية ثابتة. للوهلة الأولى تكون هذه هي الحال حين يميز المرء بين الصناعة والتجارة: في الإحصاءات تتراوح الأرقام المسجلة ما بين ٣٠% و٤٠% بالترتيب. حيث أنه في لودز انخرط بعض الألمان - ٢٣% من رجال الصناعة - من اليهود الذين اندمجوا في المجتمع الذين لازالوا ينظر إليهم كيهود في إقامة مشاريع صناعية هنا أكثر منها في وارسو.

اندرج الكثير من هؤلاء اليهود المندمجين تحت طبقة تدعى لودز هيرمينش ["رجال لودز"] الذين وفقاً للأراء المعاصرة كانوا أصحاب أعمال مأكرين، رفض المجتمع الاعتراف بنجاحهم رغم أنه في العموم كان هذا الرفض موجهاً لأنشطتهم الشيطانية التي غالباً ما تفقر إلى الرحمة. ظهر هذا النوع من رجال الصناعة إلى حيز الوجود من خلال التوسع المحموم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرع واحد من فروع الاقتصاد والمنافسة الضارية بين الألمان والبولنديين واليهود - وايضاً بين أعضاء كل من هذه الجماعات بعضهم البعض. لم يكن هذا ممكناً في وارسو مع التنوع والتمايز اليهودي

^{٧٩} إسرائيل جوشوا سينجر، الأخوة الأشكيناز (ميونيخ- فيينا، ١٩٨٦)، ص. ٥٩ بالكامل.

الثري. ظهر أكثر اليهود الناجحين اقتصادياً واجتماعياً بين الأشخاص الأكثر ثراءً في المجتمع. على الجانب الآخر، تشبث عامة اليهود الفقراء بالمذهب الأرثوذكسي - غالباً بالحسيدية. حتى حينما كان بعض رجال الأعمال يتحولون إلى الديانة المسيحية، كانوا يشعرون بالارتباط بعامة اليهود بسبب التقاليد الراسخة. على سبيل المثال، أصبح بلوخ منخرطاً بشكل كبير في عدد من التحقيقات والمذكرات ومشاريع أخرى من أجل تحسين الوضع الاقتصادي لليهود كما قام بوزنانسكي بوصفه رئيساً للجمعية الخيرية اليهودية في لودز وغيرها من المنظمات بالكثير من أعمال الخير لصالح الفقراء.^{٨٠} كانت الأعمال الخيرية ضرورية للغاية ولكنها لم تقم سوى بتخفيف وطأة البؤس. شكل اليهود حوالي ٩٠% من بائعي وارسو وتزايد عدد اللوتمينشين الذين لم تكن لهم أية وظيفة اقتصادية تزايداً مطرداً. توضح ظروف السكن المستوى المعيشي المنخفض بشكل كبير. رغم أنه في ذلك الوقت لم تعد توجد هناك أية جيوشات واضحة المعالم، عاش اليهود في كل من وارسو ولودز في نفس الجزء من المدينة. بطبيعة الحال، حدث هذا الأمر وفقاً للتقاليد اليهودية. وحدهم يهود وارسو المندمجين انتقلوا إلى الشوارع الراقية التي كانت لا تزال "خالية" من اليهود في النصف الأول من القرن التاسع عشر. في عام ١٨٦٢ رفعت هذه القيود ولكن حتى في عام ١٩٠٠ هناك تشتمل وثائق في أرشيف ولاية وارسو على تفاصيل جمّة حول إقامة اليهود في تلك الشوارع. بصفة عامة، سعى اليهود المهاجرون إلى

^{٨٠} بنهاية القرن التاسع عشر، تأسست مدافن يهودية جديدة في مدينة لودز بمساعدة إسرائيل بوزنانسكي الذي دفن هناك في ١٩٠٢ وتم تشييد ضريح مهيب وضخم لتخليد ذكراه. ارجع إلى المدافن اليهودية في لودز، أقدم مدافن يهودية بأوروبا، تحرير موتسيم ستوكي و. لودزي (لودز، ١٩٨٨).

الإقامة في مناطق وجدوا بها سكاناً يدينون باليهودية. ربما اثر في وجهتهم أيضا روابط تتعلق بالأسرة والموطن الأصلي. بهذه الطريقة، في عام ١٩١٠ تمركز حوالي نصف السكان اليهود ١٥٠.٠٠٠ نسمة في الجزء الشمالي الغربي لمدينة وارسو. في وارسو شكل اليهود حوالي ربع السكان في المدينة وفي المنطقة الرابعة ألفوا أكثر من ٩٠% من السكان.

كان شارع نيلوكي المركز التجاري بوارسو. حين قام ألفريد ديبلين بزيارة المدينة عام ١٩٢٤ لاحظ ما يلي:

يشق شارع نيلوكي شمال غرب وارسو مثله في ذلك مثل شارع مارشال وضاحية كراكو. يعد شارع نيلوكي الواسع الشريان الرئيسي للقسم اليهودي بالمدينة. يتفرع منه على اليمين واليسار شوارع طويلة ومنها تتفرع شوارع وحوار أخرى. ويزخر كل مكان بالتأكد باليهود. تهدر السيارات بشارع نيلوكي. واجهات مبانيه تشبه إلى حد كبير بقية مباني وارسو؛ منهارة وقذرة. تظهر الساحات في كل بناء. دخلت في إحداها كانت مربعة مثل سوق مليء بأشخاص يثيرون الجلبة: يهود معظمهم يرتدون القفطان. توجد في المباني في الساحة محال الأثاث ومحال تبيع جلود الحيوانات. وبينما كنت أمر من داخل أحد هذه المباني، وجدت نفسي مرة أخرى في ساحة مكتظة بالناس مليئة بالصناديق. بأزواج من الجياد يقوم الحمالون اليهود بتحميلها أو إنزال حمولتها. نيلوكي كان يحوي أيضا مقار مشاريع ضخمة. لافتات مشاريع زاهية الألوان تعلن عن العديد من المؤسسات: تعمل في جلود الحيوانات والفراء والبزات والقبعات والحقائب والصناديق. توجد تجارة بالحال والطوابق العليا. في اتجاه المدينة في الجزء الجنوبي بشارع الدلوجا، توجد محال كبيرة حديثة مفتوحة: محال لبيع العطور، والأختام المطاطية والسلع المصنعة. قرأت بعض الأسماء غير المألوفة هنا مثل وايزنليفش وكلوبفهيرد

وبلومينكرانتس وبراندفاين وفارستانديش وجولدكوبف وجيليفيش جوتبيستاند . لقد أطلق على أعضاء هذا الشعب المنيوز أسماء تهكمية.^{٨١} أقامت نسبة كبيرة من السكان اليهود أيضا في مناطق بجنوب غرب ووسط وجنوب وارسو ومناطق ببراغا . حين يفحص المرء هذه المناطق من حيث الشوارع والمباني، يتضح أن الفصل المكاني بين اليهود وغير اليهود كان صارما للغاية، حتى فيما يتعلق باليهود المتحدثين باللغة البولندية لا اليديشية . لم ينف هذا وجود صلات فوق كل شيء اقتصادية - بين اليهود وغير اليهود . في الواقع، في الفترة التي نحن بصدها بدت أن هذه الصلات قد ازدادت . كان هناك توجهاً مائلاً في لودز . غالبا ما شكل الأطفال من اليهود وغير اليهود صلات أوثق غير أن هذه الصلات كانت تضعف كلما كبوا أو كانت تنقطع تماما في النهاية . كانت معرفة غير اليهود بالثقافة اليهودية تشظى أيضا . قويت صورة اليهود "كغرباء" برداء ولغة مختلفين وعادات وممارسات مختلفة . لقد عكس الفصل المكاني لليهود عزلتهم الاجتماعية . كما بدا أن التعايش كان يجري بصورة أفضل في المدن الصغيرة التي يكون أغلبية سكانها من اليهود .

شهد عامة اليهود ظروفًا معيشية شديدة الصعوبة . في عام ١٩١٠ عاش في المتوسط ١١٦ شخصا في المباني السكنية بوارسو أما في لودز فبلغ عددهم ٤٠ شخصا . بالنسبة لليهود، لا بد وأن وقع الأرقام أسوأ بكثير . يمكننا التعرف من المذكرات المدونة والنصوص الأدبية عدد من كانوا يكتظون سويا في المباني والمساكن التي كانت توجد بها أيضا مكاتب للحسידية وغرف للصلاة ومشاريع بالقبو وورش صغيرة ومخازن . غني عن القول أن مثل هذه الظروف - المماثلة لتلك القائمة في الأحياء العشوائية التي كان يقطنها غير

^{٨١} ألفريد دوبلن، رحلة في بولندا (ميونيخ، ١٩٨٧)، ص. ٧٤.

اليهود- كانت تشجع على الجريمة. زخرت تلك المناطق بجميع أشكال الجريمة من النشل إلى الاتجار بالسلع المسروقة والدعارة والجريمة المنظمة.

أسهمت شبكات الاتصال الوثيقة - في إطار هذه الظروف المعيشية- بشكل كبير في تضامن اليهود في كلتا المدينتين. اعتنق حوالي ثلثي يهود وارسو الحسدية التي- رغم كل الاختلافات الدينية الداخلية بها- كانت أكثر الجماعات وحدة بين اليهود. لفترة طويلة ظل الصدوق جورا كالواريا (ألمانيا) بجبل كالفاري بالقرب من وارسو أحد أكثر الشخصيات احتراماً بين الحسديين الذين كانت تقوم أعداد كبيرة منهم بصفة مستمرة بالحج إلى قصره. في عام ١٨٥٩، قام الحاخام إسحاق ماير روثنبرج ألتر (١٧٨٩-١٨٦٦) بتأسيس جماعة هنا مثلت نمطاً من "الحسدية الشعبية" وسعى إلى التخفيف من شدة الفقر بين الطبقات اليهودية الدنيا.

في الوقت ذاته، كانت وارسو مركزاً فكرياً للحركة الاندماجية بين اليهود. على وجه اليقين، لم يختر هذا الطريق سوى الأقلية - أغلبهم من رجال الأعمال أو الذين يعملون بمشاريعهم الخاصة. من اليسير تخيل الصعوبات التي واجهت هذه الجماعة بما فيها التوتر المرتبط بالتوجه نحو الصناعة والقومية البولندية وبعد ١٨٨١ التمييز المتزايد ضد اليهود من قبل الدولة القيصريّة التي وصلت إلى حد التحريض على أعمال العنف ضد اليهود والمذابح المعادية للسامية.

أوضحت أعمال عنف عيد الميلاد بوارسو عام ١٨٨١ كيف يمكن التنفيث عن المشكلات الناجمة عن التغير الاقتصادي-الاجتماعي الجذري على حساب اليهود وكيف يمكن أن يترجم الحقد تجاه القلة الأثرياء من اليهود إلى عنف ضد جميع اليهود. اندلعت موجة من الذعر أثناء قداس عيد الميلاد أسفرت عن مقتل ٢٠ شخصاً، وقد وجهت الاتهامات إلى أحد اليهود بأنه هو الذي

بدأ الأمر برمته. في ظل الإثارة التي حفزتها موجة العنف في روسيا في أعقاب اغتيال ألكسندر الثاني، اندلعت أعمال النهب لليهود. لم تتدخل الشرطة إلا بعد مرور ثلاثة أيام كاملة. لم ينجح اليهود في الدفاع عن النفس إلا في بعض الأحيان. في إحدى المناطق البروليتارية قام البولنديون بالقتال جنباً إلى جنب مع اليهود ضد الناهبين.

كانت الخلفية الاجتماعية للاضطرابات بمدينة لودز عام ١٨٩٢ أكثر جلاء. فقد تحول ما كان في البداية مجرد حركة إضراب ناجحة إلى عمل مناهض لليهود على الأرجح بتحريض من السلطات الروسية كي يصبح من الأسهل إرسال قوات للقضاء على "الثورة". لم تكن البروليتاريا بالمدن هي فقط من شارك في أعمال العنف، بل قام بها أيضاً الفلاحون الذين أتوا إلى مدينة لودز بعد سماع شائعات حول ما يحدث لمعاقة اليهود على قيامهم بالمزعم بأنشطة مناهضة للكنيسة. علاوة على ذلك، فإن سماح عدد من العمال - بالرجوع إلى الرأسماليين اليهود - لأنفسهم بالابتعاد عن أهدافهم يوضح إلى أي مدى كان من الممكن لليهود أن يلعبوا دور العامل المحفز في الصراعات الاجتماعية التي لا يدركون أعادها بوضوح.

شعر هؤلاء الذين تشككوا من قبل في جدوى الاندماج بأن موقفهم هذا مبرر، وشرع المزيد من اليهود في الانضمام إلى المنظمات الصهيونية أو الاشتراكية. كانت تراود الكثيرين الشكوك بشأن حقيقة مكاتهم في المجتمع.

الأسرة اليهودية

شكلت الأسرة مركز الحياة اليهودية. كَوّن المنزل والمعبد اليهودي وحدة بالمعنى الديني، يمكن من خلالها إضفاء قداسة خاصة حتى على أفقر البيوت اليهودية. شارك هذا بالتأكيد في تحقيق الوحدة الداخلية لليهود.

كان الأب هو عماد الأسرة ولو كان من النادر تواجده في المنزل (بسبب عمله كوسيط بين الريف والمدينة أو بائع جوال أو لوقمينش) لم يتعد الأب عن المنزل في أيام السبت وأيام العطلات الدينية إلا في ظروف ملحة. كان الوالد هو المسؤول عن أداء الطقوس الدينية وتقديم نموذج يحتذى به أبنائه في احترام العادات الدينية. في غيابه، كانت تحل محله الأم في الاضطلاع بهذه المسؤولية. إلى جانب التعليم النظري والتطبيقي للتشريعات والعادات الدينية، كان الأطفال يتعلمون معنى الحب الأخوي من رؤيته بين أعضاء الأسرة الواحدة. في يوم السبت - وغالبا في أيام آخر - كانت الأسر اليهودية تدخل المسؤولين أو عابري السبيل أو الفقراء ليطعموهم ويضيّفوهم. بذلك كان يأكل اليهود الفقراء من حين لآخر مع الأسر ميسورة الحال التي بهذه الطريقة قدمت إسهاما ماديا هاما لحضورهم بالمدارس أو حتى لدراساتهم المختلفة. في البيت اليهودي التقليدي بأوروبا الشرقية تكامل الدين والحياة اليومية تكاملا تاما.

أما في الأسر اليهودية الليبرالية النازعة إلى الاندماج، فقد ابتعد العالمان عن بعضهما البعض. لم تبد هذه الأسر احتراما كبيرا لليدشية وكانت تهتم بشكل أكبر باتقان اللغة والسلوك القومي. تلقى أطفالهم أفضل تعليم علماني ممكن. رغم ذلك احتفظت هذه الأسر برموز وعادات يهودية كثيرة بيد أنه يتعين اعتبارها مجرد شكليات. نتيجة لذلك، عاش الكثير من اليهود في صراع داخلي: لم تعد العادات والديانة اليهودية تقدما لهم أي دعم، غير أن اليهودية العلمانية لم تقدم بديلا له نفس القيمة لمساعدتهم على التأقلم مع كونهم "مختلفين" عن الثقافة المحيطة.

كان من الممكن تمييز المنزل اليهودي من الخارج من خلال الميزوزا، وهو أنبوب ضيق صغير مصنوع من الزجاج أو الخشب أو المعدن معلق بزاوية بالثلث العلوي من عضادة الباب بحيث تشير

طرف الميزوزا إلى داخل المنزل . يقال إنه بوضعها (الميزوزا) بميل، كان اليهودي يحاول إرضاء مذهبين مختلفان في وجوب وضع النصوص المقدسة بشكل قائم أم على جنب . يوجد في الأنبوب الصغير رُقِيَّة ملفوفة أو مطوية بجذر، منقوش عليها آيات مقدسة من أسفار موسى الخمس (سفر تثنية الاشتراع إصحاح ٦ : آيات ٤٩ و ١١-١٣ و ٢١) . يمكن للمشاهد فقط رؤية كلمة "شداي" (تعني: القادر) على ظهر ورقة الرقية . بوجه عام، كانت هناك الكثير من الصور والأغراض داخل المنزل أيضا - يزيد عليها في منازل الحسدين علامات القبالة- التي كانت تعبر عن ارتباط صاحب المنزل بالدين والتاريخ . غالبا ما كان يحتفظ أصحاب اليهود في منازلهم أيضا بلفائف التوراة المكتوبة بخط اليد في دولا ب خاص، الأمر الذي مكّنهم من إقامة الشعائر الدينية بالمنزل مادام هناك على الأقل عشرة ذكور -سنيان- مجتمعين .

كانت التشريعات الدينية - ناهيك عن إيقاع الصلاة- تحدد مسار اليوم . لهذا الغرض كان اليهود يلفون أنفسهم في شال الصلاة - الطاليت - قطعة من القماش الصوف أو القطن بها خطوط سوداء أو زرقاء داكنة وتثبت بها الشراشف (تسييتسيت) في الأركان الأربع وفي لحظة معينة بصلاة الصبح يجب أن يرفع المصلي هذه الشراشف إلى فمه . على الأقل أثناء صلاة الصبح، يرتدي اليهودي الملتزم على جبهته وذراعيه بأسلوب تحدده النصوص الدينية تعويذة أو تيفيلين مثبتا بها حقيبة صغيرة مكعبة الشكل تحوي نصوصا من التوراة مكتوبة على رقية . تكون الرأس واليد والذراع كلها في خدمة الرب . الرجال والنساء في المجتمع اليهودي

"أبي، ماذا سأصبح حين أكبر؟" سألت ديبورا أباهذا ذات يوم بمزيج من الجدية والتهكم، لأنها بقدر ما تذكر لم يقم الخاخام أفرام بير بامداحها عند أمها أبدا .

أصيب الحاخام أفرايم بير بالدهشة. كان الرأي السائد بين اليهود الورعين يقول أنه لا يمكن أن يكون لحياة المرأة سوى هدف واحد تأمله وهو إدخال السعادة على المنزل بخدمة زوجها وحمل أطفاله. لذا فهو لم يجب عليها حتى. لكن عندما ألحت عليه بالسؤال قال ببساطة: "ماذا ستكونين حين تكبرين؟ لا شيء بالطبع!"^{٨٢}

كانت الزوجة مسئولة عن رعاية الأسرة وبدأ هذا بالالتزام الصارم بالتشريعات الدينية ثم تعليمها للأطفال. شكلت هذه القوانين عماد التربية الأسرية ولم يكن من المقبول أن يقاومها الأبناء. حددت هذه الصرامة أيضا طبيعة العلاقة بين الآباء والأبناء. نادرا ما كان يسود المنزل جو غير رسمي وغالبا ما كان الأبناء يستخدمون أساليب الخطاب الرسمي مع آبائهم.

غالبا ما كان العبد الرئيسي لكسب رزق الأسرة يقع على عاتق الزوجة أيضا. كانت أغلب الأسر اليهودية فقيرة وفي كثير من الحالات كان الزوج يكسب اقل القليل، أو كان يستمر في دراساته الدينية التي لم يكن يكسب منها شيئا. من ثم، نجد الكثير من النساء اللاتي عملن كناجرات بالأسواق أو مديرات للمحال الصغيرة أو بائعات جائلات. بطبيعة الحال، كان من المتوقع من المرأة إلى جانب هذا القيام بإدارة المنزل.

قد يبدو في الظاهر أن الزوجة اليهودية تتمتع بمكانة أدنى من لزوجها. كان هذا هو الحال غالبا في الواقع العملي. رغم ذلك، كانت الأمور مختلفة من المنظور الديني. بينما كان الزوج يتعبد في المعبد اليهودي ويتقرب من الرب من خلال دراسة الكتاب المقدس في المنزل، كانت الزوجة تؤدي المهام التي أوكلها إليها الرب؛ أن تجعل من المنزل مركزا للحياة الدينية. لأن هذا الالتزام شكل عبئا كبيرا

^{٨٢} لستير كرايتمان، ديبورا- الحمقى يتراقصون في الجيتو (فرانكفورت، ١٩٨٤)، ص. ٦.

على الزوجة فقد أعفيت من تشريعات دينية أخرى ولم تكن مطالبة بإجهاد نفسها بالمشاركة الفعالة في العبادة بالمعبد . تماشيا مع هذا الفهم، ارتبطت تربية الإناث بقواعد منزلية دينية صارمة.

في رواية إسحاق سينجر "أسرة موسكات"، يستجوب الحسيدي موشي جابرييل ابنته المتحررة لوتي التي تقيم بالولايات المتحدة الأمريكية وتزوره في بولندا فيقول:

"إذن، كيف حالك يا ابنتي؟ في أمريكا تتحدثين ... ماذا يطلقون عليها الإنجليزية؟"
"لكنني أتحدث أيضا اليديشية."

"سمعت أنك أصبحت فتاة متعلمة هناك. هل تذهبن إلى الجامعة؟"

"نعم يا أبتى أنا الآن في السنة الثانية."
"وماذا تدرسين؟ أترغبين في أن تكوني طبيبة؟"
"كلا يا أبي فأنا أدرس العلوم الطبيعية."
"ماذا تقصدين؟ الكهرباء؟"

"شيء من كل شيء."
"هل تذكرين على الأقل أنك ابنة يهودية؟"
"لا تقلق يا أبت فعداة السامية يعملون على ألا تنسى هذا أبداً."

نعم هذا صحيح. حتى حين يكون اليهودي آثماً فلازال يهودياً.
من أقوال يعقوب.

"يقال أنه يوجد الكثير منا في الكليات."
"بهذا الشأن هم على صواب. ما جدوى الكاهن في المدافن؟
وما جدوى اليهودي في مدارسهم؟"

"لكن لا يمكنني الدراسة في معبد يهودي."
"إن واجب الابنة اليهودية هو الزواج لا أن تعبت في المدارس."

"وما النفع من الزواج؟ أود أن أتعلم شيئاً وأن أكتسب المعرفة."
"لماذا؟"

"كي أستطيع كسب رزقي"
"إنه واجب الزوج أن يكسب الرزق أما الزوجة فمسئوليتها أداء
مهامها المنزلية" ابنة الملك مجيدة بالداخل" واليهود معروفون بأنهم
"أبناء الملوك".^{٨٣}

كقاعدة، ظلت حركة التنوير النوعي غريبة على المنازل اليهودية
الصارمة بأوروبا الشرقية. كانت الفتيات ينعمن بالحماية من كل
الأشياء "غير المهدبة". كان طهر الفتيات من أرفع الواجبات: كان
يجب إبعاد أي شيء من شأنه تهديد ذلك. في الواقع لم يكن هناك
سوي حالات قليلة من ممارسة الجنس قبل الزواج أو خارج إطاره.
مما أسهم في هذا أن الزواج المبكر كان لفترة طويلة هو القاعدة بين
اليهود مع تقديم الوالدين للمساعدة المادية للزوجين الشابين. غالباً ما
كانت الفتيات يتزوجن في سن الخامسة عشر أو السادسة عشر أما
الرجال ففي سن الثمانية عشر. منذ النصف الثاني من القرن التاسع
عشر فقط بدأت هذا العادة تدريجياً في التغير حيث بدأت الأسر
اليهودية بشرق أوروبا في الانصياع إلى العادات الاجتماعية غير
اليهودية.

كان اليهود لا يزالون يرون المثل الأعلى في صورة اليهود البولنديين
التي قدمها سولومون ميمون في نهاية القرن الثامن عشر:
مما يستحق الذكر قداسة زيجاتهم والعاطفة المتجددة دائماً التي
تقوم على هذه القداسة. كل شهر يفصل الزوج تماماً عن زوجته
لمدة أربعة عشر يوماً (التطهير الشهري المفروض من قبل القانون
الحاخامي)، لا يسمح لهما فيها بلمس بعضهم البعض أو الأكل من

^{٨٣} أيزاك باشيفيس سينجر، عائلة موسكات (ميونيخ، ١٩٨٧)، الطبعة
الثانية، ص. ٥٧٣.

نفس الطبق أو الشرب من نفس القدح. وبهذه الوسيلة يتم تحاشي التخمّة في المشاعر. تظل الزوجة دائماً في عيني زوجها بنفس الصورة التي كانت عليها في عيني حبيبها.

أخيراً، بالهذه البراءة التي تسود هنا بين غير المتزوجين! غالباً ما يحدث أن فتاة أوفتي في السادسة عشر أو الثامنة عشر من العمر يتزوجان دون أن تكون لديهما أدنى فكرة عن الغرض من الزواج وهو أمر غاية في الندرة بين الأمم الأخرى.^{٨٤}

كان انفصال الزوجين أثناء فترة الطمث يدوم خمسة أيام. إضافة إلى ذلك كانت هناك سبعة أيام للتطهر. تختم هذه الفترة بحمام انغماس طقسي في الميكفاه، في بركة من المياه الطبيعية.

كان الزواج عن حب مخالفاً للتقاليد اليهودية رغم أنه بمرور الوقت تكرر حدوثه: "ماذا؟ حب في أسرتي؟ مثل الموسيقيين؟ لا أرغب حتى في سماع ذلك!" كان الوالدان يبحثان عن شريك حياة لأبنائهم بمعونة الشادخان، وسيط الزواج. لم تكن أهم معايير زوج المستقبل بأي حال من الأحوال قدرته على إعالة أسرته بل اتساع معرفته الدينية.

كانت العادة السائدة بين اليهود الورعين تزويج أبنائهم قرابة سن الخامسة عشر ثم إبقاءهم في المنزل حتى يستطيعوا إعالة أنفسهم. حتى رايسيل، أقرب بناته إلى قلبه، تزوجت في سن الخامسة عشر. كان الزوج الذي وقع الاختيار عليه شاباً يكبرها بعام واحد يدعى الحاخام أفرام بير. جاء الاختيار بسبب تحمسه للدراسة وسمعته الطيبة، حيث أن بعض أسلافه كانوا من أعظم الأشخاص بين شعب

^{٨٤} قصة حياة سولومون ميمون، من تأليفه وتحرير كارل فيليب موريتس. حررها حديثاً تسيفي باتشا (فرانكفورت، ١٩٨٤)، ص. ٢٣٠. تزوج ميمون نفسه في عمر الحادية عشرة وأنجب أول أبنائه في الرابعة عشر؛ ارجع إلى ص. ٥٢-٦٦.

إسرائيل وكانوا مشهورين في العالم اليهودي من جميع المناحي . علاوة على ذلك، زعم أفرام أنه ينحدر من سلالة الملك داوود . لذلك، بدا هذا الزواج مبشرا . بيد أن الحاخام أفرام بير كان اختيارا غير موفق . من المؤكد، لم يكن هناك الكثيرون الذين يمكن مقارنتهم به في حماسه للمعرفة . غير أنه لم يكن يهتم بالشئون الدنيوية ويتعين العناية به كالأطفال الصغار . خارج مملكة التلمود، كان ببساطة شخصا أحمق.^{٨٥}

غير أنه تدريجياً ازداد الاتصال المباشر بين زوجي المستقبل . في البداية، كانوا يتبادلون المراسلات الكتابية - عادة من النوع الرسمي - وكانت تقوم في جزء كبير منها على مجموعة من الخطابات الرسمية . ثم بالتدريج أصبحت طقوس الاتصال هذه أكثر فردية حتى تولى الزوجان زمام أمورهما بين أيديهما وكانا يتبادلان الخطابات الغرامية و يلتقيان سرا . أدى هذا إلى صراعات مريرة داخل الكثير من الأسر . قيل الزفاف، كان من المعتاد قص شعر الفتيات، وهو إجراء غالبا ما كن يبغضنه . لكن عادة ما كانت تنتهي محاولات التمرد كي تحتفظ الفتاة بالاستقلالية فيما يتعلق بجسدها بالإخفاق . بعد ذلك، كانت الفتيات يضطرن لاستخدام الشعر المستعار الذي كان ينقسم إلى نوعين: البعض يلبس في الحياة اليومية والبعض الآخر يلبس فقط أيام السبت والعطلات . بعض الحسيدين لم يستخدموا حتى الشعر المستعار لأنه غير حقيقي . كان على النساء الحسيديات تغطية رؤوسهن بشكل كامل عند الخروج . كانت الفكرة من وراء ذلك أن شعر المرأة له تأثير مثير للشهوة عند الرجال . بعد الزواج، يتعين على المرأة أن تكون متحفظة مع الرجال الآخرين . لا يجب حتى أن تصافحهم باليد، فقد يؤدي هذا إلى تدمير الزواج وإن انطوى الأمر

^{٨٥} إسرائيل جوشوا سينجر، الأخوة الأشكيناز، ص. ١٣٦.

على رجال لا يدينون باليهودية قد يؤدي هذا إلى إخراجها من زمرة اليهود تماما .

بطبيعة الحال، يتطلب الزواج استعدادات مهمة. بصفة عامة، كان الاستعداد للدخول في الحالة المزاجية المناسبة للحياة الزوجية يتم في الميكناه (الحمام الطقسي) الذي كان يعين على العروس زيارته الليلة التي تسبق الزواج.

جاءت زوجة الحاخام كي تعلمها كيفية حساب الأيام بعد انقضاء الطمث كي تعلم متى يجوز لها مضاجعة زوجها، وكيف تحافظ على الطهارة الزوجية من خلال الاغتسال المفروض في حمام النساء .

كانت الخطية تتم تحت الهوبا، وهي الظلة التي كانت تتم تحتها مراسم الزواج أيضا. كانت المراسم تنتهي بأن يطأ العريس كوبا بقدمه، وهو ما يرمز إلى أن المتعة يجب أن تكبح إلى حد ما بسبب الحزن على فقدان اورشليم. بعد الزواج - وفقا للتركيب الأموي للأسر اليهودية - كان يذهب الزوجان للإقامة مع والدي العروس اللذين كانا يعولانها لعامين فيما يسمى (كيسر) كي يتسنى للزوج الشاب استكمال دراساته الدينية بلا ازعاج.

من العادات التي تستحق الدراسة ما يطلق عليه اسم طلاق الهاليتسا . وفقا للكتاب المقدس، يجب على شقيق المتوفي أن يتزوج من أرملته إن كان الزوج بلا أطفال أو ما يطلق عليه ليفيريت . إن لم يكن أي من شقيق الزوج أو الأرملة راغباً في ذلك، لا تكون هذه الرغبة سارية من الناحية القانونية دون القيام بمراسم أمام مجموعة من الحاخامات ومينيان (نصاب)، الحد الأدنى من الرجال، لتمثيل "جماعة من بني إسرائيل" لأغراض تتعلق بالطقوس الدينية (عشرة

^{٨٦} أيزاك باشيفيس سينجر، حب قديم. قصص حب (ميونيخ- فيينا، ١٩٨٥)، ص. ١٣ ("جوشنا وشميلكه").

رجال). يضع أخو الزوج فردة حذاء توجد في المجمع الحاخامي لهذا الغرض في قدمه اليمنى. بهذه الطريقة يكون قد انتهك بشكل رمزي شروط التقوى والورع لأن أقرب أقارب الشخص المتوفى يجب أن يسيروا بلا أحذية لمدة سبعة أيام حدادا عليه. ثم تتخلع الارملة هذا الحذاء عنه وتلقي به بعيدا وتبصق في وجه شقيق زوجها الراحل. يطلق على طقس خلع الحذاء هذا هاليتسا مما يخول للأرملة الحصول على شهادة بالطلاق التي بدونها لا يمكن أن تزوج مرة أخرى. حتى الطلاق نفسه يجب أن يتم أمام مجمع حاخامي ومينيان (نصاب). في هذا الصدد، يجب الالتزام بقواعد شديدة الدقة والتعقيد؛ من المحتمل أن تكون قد وضعت لتزبد من صعوبة الطلاق. إحدى هذه المشاكل كانت تثيرها حالة الأجونا، الزوجة التي اختفى زوجها. لا يمكن في هذه الحالة اعتبار الزوجة أرملة ولا مطلقة لأنه وفقا للتشريعات الدينية يجب على الزوج أن يضطلع بدور ما. من ثم لا تستطيع الزوجة أن تزوج مرة أخرى إلا إذا أكد عدد من اليهود المتدينين وفاة الزوج. في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد أن أصبح الكثير من اليهود في عداد المفقودين كانت هناك مساعي لتخفيف هذه القوانين الصارمة. على سبيل المثال، بدأ قبول شهادة غير اليهود في هذه الحالة.

مع ظهور المثل العليا البرجوازية، بدأت التغيرات أيضاً تمتد إلى الزواج. حتى الآن كان من أحد واجبات الزوجة العمل على أن يحاكي زوجها الأتقياء والورعين. أجبرت الظروف المزيد من الأزواج على اكتساب طرق علمانية للبقاء. من المذكرات المدونة، نعرف أنهم غالبا ما تخلوا بسرعة وبشكل جذري عن دينهم ودين آبائهم وأعلنوا عن أن التعليم العلماني هو معيار التقدم ومنعوا زوجاتهم - اللاتي غالبا ما كن متفوقات عليهم في هذا الصدد - من لعب أي دور بالأنشطة التجارية وبدأوا حتى بالتدخل في إدارة زوجاتهم

لشؤون المنزل. لقد انقلبت مقاييس السلطة التقليدية في العلاقة الزوجية رأساً على عقب. لإضفاء الشرعية على أفعالهم وإراحة ضمائرهم الفاسدة، أجبر الكثير من الرجال زوجاتهم على عدم ممارسة الشعائر الدينية. نتيجة لذلك، ضاعت هذه الوظائف الأساسية التي كانت تقوم بها المرأة في مجال التجارة وفي إطار أسرة. نتيجة لهذه التغيرات، تهربت بعض اليهوديات من الدور الذي كان يناط بهن. من قراءتهن، بدأن يكوّن أفكاراً أخرى عن الحب والزواج والحياة عامة. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قامت المزيد من الفتيات - حتى في الأسر المتدينة الصارمة - باختيار شريك حياتهم، ليس هذا فحسب بل تركوا أيضاً والديهم من أجل الدراسة أو السعي وراء التحرر في مكان آخر. انضمت الكثيرات منهن إلى جماعات اشتراكية؛ يمكن أن تبين هذا بنظرة إلى الحركة الثورية في روسيا. أما نساء الطبقات الاجتماعية الدنيا، فقد مثل العمل بأجر أحد طرق تحقيق الاستقلال. غالباً ما ارتبط هذا بالفقر وخاصة مع قلة فرص العمل المتاحة. أما نساء الأسر "التي انضمت إلى الطبقة البرجوازية"، فقد تجسدت الأزمة التي أثرت على الطريقة التي دوماً ما نظروا بها إلى أنفسهم في الإصابة ببعض الأمراض البسيطة والاضطرابات العاطفية. تصور هذه الأزمة رواية "تيفي بائع الحليب" التي كتبها شوليم أليشيم:

يقول: "هناك أشخاص في يهوديتس كانوا حتى وقت قريب سيرون حفاة الأقدام، أشخاص كانوا بالأمس فقط سماسرة ومدرسين وخدم أما اليوم فهم يملكون منازل وتعاني زوجاتهم من شيء ما في أمعائهن وتتجهن للعلاج في منتجعات بالخارج...^{٣٨} إن كان بوسع المرء تحمل النفقات، كان الذهاب إلى المنتجعات الصحية

^{٣٨} أليشيم، تيفي بائع الحليب، ص. ٣٨.

صرعة العصر، لأن هذا ما كانت تفعله النساء البرجوازيات من غير اليهوديات. توجهت العديداً إلى فيينا "للأطباء العظام" الذين كان بوسعهم أيضاً علاج الأمراض العقلية. لا عجب إذن أن نسمع أن الكثير من مريضات وطالبات سيجموند فرويد وغيره من المحللين النفسيين كن من يهوديات أوروبا الشرقية.

هناك استراتيجية أخرى تبنتها اليهوديات محاكاةً لغير اليهوديات، ألا وهي رعاية الفقراء والقيام بأعمال الخير واستراتيجية جديدة لتعليم الآخرين كيفية مساعدة الذات. اعتنق البعض أيضاً الصهيونية كفرصة لإقامة الجسور بين جذور اليهود والقيم الحديثة. بهذه الطريقة تمكنت الأم اليهودية من تربية أبنائها في ظل اليهودية "المحضة" ونجحت الزوجة في العودة بالزوج إلى حظيرة اليهودية. في الجمل، لعبت النساء دوراً شديداً الأهمية في تشكيل هوية يهودية شرق أوروبية جديدة تتسم بالاستقلالية والتضامن والوعي بالذات.

التربية اليهودية

بطبيعة الحال، كانت أسس تربية الأطفال تعتمد على الأسرة. كان حجر الزاوية في عملية التربية هو الالتزام بالشرائع والطاعة والتقوى. بقدر الإمكان كان لابد وأن يشكل المعتقد الديني وأفعال المرء وحدة تبدأ من داخل الأسرة. لذا فقد ارتبطت تعاليم التوراة والتعاليم الدينية التقليدية بشكل وثيق باحترام الوالدين والذي اتسع في ذلك الوقت ليشمل احترام المعلمين ومعلم الحرفة والعلماء وغيرهم من الأشخاص المبجلين.

منع الكثير من الإناث من متابعة الدراسة وتلقي التعليم التقليدي ذي التوجه الديني. نتيجة لذلك، اكتسبت النساء اليهوديات في كثير من الأحيان المعرفة العلمانية واطلعن على الأدب غير اليهودي في وقت مبكر وبشكل أكبر من الرجال وبدان في المشاركة في الحياة العامة. على الجانب الآخر، كان تعليم الأبناء الذكور خارج المنزل

يبدأ حين يصل الصبي إلى سن الرابعة. كان والده يصحبه إلى الحيدر (المدرسة الأولية الخاصة)، "الكلمة تعني بالعبرية الغرفة"، التي تكونت عادة في شرق أوروبا من مبنى خشبي ذي طابق واحد. غالبا ما اتخذ هذا الحدث شكلا شعائريا ذي مراسم احتفالية خاصة. في المنزل ...

كانت تبسط مائدة عامرة بالمخبوزات والمشروبات. كنت أحتل مكان ضيف الشرف وكانوا يشربون نخبتي؟ كانت أمي تعني بالضيق بنفسها. ناولني شخص ما كتاب صلوات، صفحتان منه ملطختان بالعسل وكان يفترض بي أن ألعقهما. حين أحنيت رأسي طاعة في خضوع، انهار علي وابل من العملات الفضية والنحاسية. لقد منحها لي - حسبما قال جدي - الملائكة. لأن الملائكة آمنت بي - على حد قوله - عرفوا أنني سأكون تلميذا نابها، ولهذا السبب أرادوا أن يمنحوني هبة حين أوشك الاحتفال على الانتهاء، قام والدي برفعي وغطاني من رأسي حتى أخص قدمي بالطايت [شال الصلاة]، وحملني بين ذراعيه حتي وصلت إلى الحيدر (المدرسة الأولية الخاصة). لم تستطع أمي أن تصحبنا إلى هناك؛ فقد كان هذا أحد الشؤون المخصصة للرجال. كانت هذه هي عادتنا؛ كان على الأب أن يحمل ابنه طوال الطريق إلى الحيدر بين ذراعيه. لم يكن لدى الوالدين أي إدراك^{٨٨} للفكرة من وراء ذلك: كان الطفل قربانا يقدمونه إلى الحيدر ...

كان الأولاد يجلسون في مجموعات من الصباح وحتى المساء مكرسين أنفسهم لدراسة الكتب الدينية. هناك كانوا يتعلمون قراءة

^{٨٨} شميرا ليفن، ب"شعرك الرمادي يا سليمان. قصص يهودية شرق أوروبية، تحرير أولف ديدريش بالاشتراك مع أوتوم. ليليان وجيرمانيا جودايشا (ميونيخ، ١٩٨٨)، طبعة جديدة، ص. ١٣٥-١٤٢، هنا ص. ١٤.

الكتاب المقدس والكتابة والصلاة بالعبرية إلى جانب القيام بالعمليات الحسابية الأربعة وتعلم أسس الأخلاقيات اليهودية. لم تكن العملية التعليمية تجري في صمت، بل كانت النصوص تغنى أو تتلى بطريقة تشبه الغناء. الأمر الذي قد يبدو للملاحظ الغريب وكأنه مجرد "تسميع سريع" للنص، كان يعد وسيلة خاصة لمساعدة الطلاب على التركيز. في الحيدر كان يشرف على الطلاب/الميلاميد "العلماء". لم يكن الميلاميد قد تلقوا تعليما أكاديميا بخلاف معلمي المستوى العالي أو من يطلق عليهم /المور. كان الميلاميد، الذي يعيش عادة مع أسرته في مبنى الحيدر، يتلقى المال من الآباء لتعليم أبنائهم أكبر قدر ممكن بأسرع وقت. لذا، كان يقع تحت ضغوط الحصول على نتائج سريعة ومن ثم كان الميلاميد صارما للغاية. لم يكن العقاب الجسدي نادرا. لم يكن بوسع الكثير من الآباء لفقرهم توفير أفضل ميلاميد لأبنائهم. نتيجة لذلك، كان حضور الحيدر ضربا من ضروب العذاب لهؤلاء الأطفال. كثيرا ما كان الوضع أسوأ من ذلك في المدارس الأولية الخيرية، التي كانت النقيض من الحيدر تديرها منظمات خاصة أو الجماعة اليهودية. كانت المدارس الأولية الخيرية مقامة للأيتام أو أبناء الأسر المعوزة. في نفس المبنى أو في مبنى قريب، كانت تقام البيت ها ميدراش، "بيت الدراسة" الخاص بالجماعة اليهودية الذي كانت تتم فيه الدراسات الدينية.

حين كان الابن يبلغ عامه الثالث عشر، يجب أن يكون قد اكتسب معرفة دينية كافية ليلقى قبولا من جانب المجتمع بوصفه "ابن الوصايا" أو بار ميتسفاه (بلغ سن التكليف الديني). كانت هذه المراسم - التي ترمز للانتقال إلى مرحلة البلوغ - تتم في المنزل والمعبود اليهودي. كان ينادى على البار ميتسفاه (بالغ سن التكليف الديني) أثناء القداس الديني للقراءة من التوراة ولأول مرة يمكنه تلاوة الصلاة.

بعد الحيدر أو المدرسة الأولية الخاصة يمكن للأبناء استكمال الدراسة في *البيشيفاه* (الحلقة التلمودية) أو الأكاديمية الدينية. كانت هذه *البيشيفوت* توجد في الجماعات اليهودية الكبرى أو في المراكز الحسيدة. في تلك الأكاديميات، كان الحاخامات البارزون المتفقهون في التلمود يلقون محاضرات. إن أصبح الابن متفقهًا في التلمود، لكان هذا أعظم ثروة يمكن أن تملكها أسرة يهودية فقيرة من شرق أوروبا. غير أن اكتساب التعليم الديني والانخراط في الدراسات الدينية التي تستمر مدى الحياة غالباً - من منطلق المكانة الاجتماعية - أصبحت عادة قاسية التزمها الكثير من الشباب بدلاً من محاولة تحسين الظروف المعيشية لأسرهم. لم يكن تعلم الحرف اليدوية أو التجارة يحظى بتقدير كبير. كمعادة، لم يكن هناك تعلم جاد للحرف اليدوية وغالباً ما خرج المتدرب من فترة التعلم برغبة في تعلم شيء ما. من المؤكد أن التجار الناجحين كانوا يلقون كبير الاحترام. غير أن القلائل فقط هم الذين استطاعوا تحقيق النجاح. لم يتمكن سوى الآباء الأثرياء من توفير التعليم الجيد لأبنائهم فيما يتعلق بشؤون التجارة إلى جانب تعليمهم الديني. حاول اليهود الليبرالون النزاعون إلى الاندماج أن يكفلوا تلقي أبنائهم لنفس التعليم العلماني الذي يحظى به غير اليهود. وقفت القيود التي فرضتها الحكومات المتعددة - مثل تحديد حصة الطلاب اليهود في روسيا القيصرية - كعقبة كئود أمام هذه المحاولات. لذا قام الكثير من اليهود الميسورين بإرسال أبنائهم إلى مدارس غرب أوروبا أو هاجروا إلى هناك.

حيث ساد الاستعداد للاندماج كما هو الحال في المدن الكبرى بالاتحاد النمساوي-المجري، زالت أهمية تلقي التعليم اليهودي. بدلاً من *البيشيفوت*، تم تأسيس كليات لاهوتية يهودية حديثة في بيرسلاو على سبيل المثال عام ١٨٥٤. في الأماكن الأخرى كان اليهود ينظرون إلى خريجي هذه المؤسسات بشيء من عدم الثقة. أحاطت

الشكوك أيضاً مجزئجي كليات تدريب المعلمين المؤسسة حديثاً لليهود الذين رغبوا في التدريس في المدارس الحكومية اليهودية التي وفرت تعليماً شاملاً. سرى الخوف من تلاشى الثقافة اليهودية التقليدية خاصة في تلك المدارس اليهودية التي اعترفت بها الدولة. كانت الحكومة تحدد المناهج الدراسية لهذه المدارس. لذا لم تلعب الثقافة اليهودية سوى دور ثانوي في هذه المدارس.

العادات الدينية اليومية

مثلت إدارة المنزل وإعداد الطعام الشرعي (الكوشير) جانباً هاماً من الفروض الدينية كما لعبت هذه المهام دوراً تعليمياً. كان يتعين على الطعام والشراب وأيضاً عملية تخزين مواد بعينها أن تتفق مع التشريعات الحاخامية كي تكون مناسبة للاستعمال. هذا هو ما يطلق عليه كوشير أو الطعام الشرعي.

كانت مسؤولية الحفاظ على الكوشير (الطعام الشرعي) تقع على عاتق الزوجة ولا يسمح للزوج بالتدخل. كانت وجبات الكوشير وإعدادها تضيء شعوراً بالنظافة الداخلية والتحكم في النفس والإشباع الديني. من ثم، كانت العادات التقليدية تحظى باحترام كبير أثناء إعداد الطعام الشرعي. اندمج كل من الدين والتقاليد لتصبح شيئاً واحداً. كانت ولا زالت أهم مناسبة في الحياة اليهودية يوم السبت. يتم تنظيم يوم العطلة هذا بكل الواجبات المفروضة فيه حتى أدق التفاصيل ويجب احترامه نبوعاً من الرغبة الشخصية في ذلك لا بهدف تلقي شيء من الرب في المقابل. بين يهود شرق أوروبا، كان هناك التزام صارم بتعاليم التلمود وتعليمات الكثير من الحاخامات المبجلين. على سبيل المثال، كانت الألعاب محرمة وكذلك النزهاء والرحلات الطويلة (التي تزيد على ٢ كيلومتراً). كان هناك أيضاً تحريم للأنشطة غير الضرورية في تناول الغذاء مثل الكتابة والقطع والتمزيق وإشعال النار وحتى الطبخ. كان يسمح في

هذا اليوم بالخلود للراحة والأكل والشرب والصلاة وقراءة الكتب الدينية. كما تتوقف الأنشطة التجارية - مهما كان نوعها - من ظهر يوم الجمعة وحتى مساء الأحد. غالبا ما كانت تغلق الطرقات بالسلاسل لإيقاف حركة السير. حتى الأطفال والشباب لم يكن يسمح لهم باللعب أو ممارسة الرياضة أو الذهاب للمسرح. كان اليهود الأرثوذكس يتحاشون اليهود الليبراليين في يوم السبت. للتخفيف من الشروط الصارمة ليوم السبت - أو شروط أيام العطلات كان مسموحا بالإيروف أو "الاختلاط" في المنطقة المحددة؛ مع وجود حبل السبت كان من الممكن التوسع في المناطق الخاصة باليهود على حساب عامة الناس من أجل التمكن من حمل الأشياء إلى تلك المناطق. رغم ذلك، كانت القواعد الصارمة تضمن ألا يتعد اليهود أكثر من اللازم. رغم كل المحرمات، من المفترض أن يكون السبت يوم مرح وبهجة. في هذا اليوم كان الناس يتهجون بالخلوص ويختبرونه قبل حدوثه. كان يقال:

في ليالي الجمع والسبت كان يتعين على الأزواج إيلاء رعاية خاصة بواجباتهم الزوجية لأن هذا أيضا يعد بهجة السبت. (كان أتباع القبالة وخاصة الحسيدين يضاجعون زوجاتهم فقط ليالي الجمع)^{٨٩} في صباح يوم الجمعة تقوم ربة المنزل بكل التجهيزات الضرورية للإستعداد ليوم السبت من تنظيف وطبخ وخبز. كان عليها أيضا أن تخضع للميكها وهو حمام طقسي من أجل أن تكون طاهرة من خلال الانغماس الكامل في الماء. تذكر بيلا شاجال طفولتها قائلة:

^{٨٩} أولريش جير هارد، الحياة اليهودية في الطقوس اليهودية. دراسات وملاحظات ١٤٠٢ - ١٩٣٣. مراجعة وتعليق تسيفي سوفر. تحرير ديتريش جير هارد ومالوين ميزر وبيتر ميزر (هايدلبرج، ١٩٨٠)، ص. ١٤٥.

كانت الحرارة تلفحني في فمي وتدمي قلبي. " هذا هو الجحيم لجميع من اجترحووا الكثير من الآثام " كنت أقول هذا لنفسي ثم أهرول مسرعة خلف أمي تجاه الحمام الطقسي والآن أنا في غرفة مظلمة كالزنزانة. على منصة صغيرة تقف العجوز التي تقوم بغسلنا حاملة في يديها مصباحا وقطعة قماش من الكتان. أمي - التي أخشى عليها - تهبط صامئة الدرج الزلق لتغمس أكثر وأكثر في المياه حتى تصل إلى عنقها.

حين تلو العجوز كلمات ما لتبارك بها، تضطرب أمي كشخص مدان. تغلق عينيها وتكتم أنفها وتغمس نفسها بالكامل تحت الماء كما لو كانت ستظل هناك للأبد - معاذ الرب.

"كوشير" تصرخ العجوز بصوت كأصوات الأنبياء. اضطرب كما لو كنت قد صعدت بعاصفة رعديّة وأنتظر هناك وفرائصي ترتعد. سرعان ما تنزل صاعقة من البرق من الروافد المعمّنة للسقف وترديننا جميعاً قتلى أو تجتاحنا الفيضانات من الجدران الحجرية لتغرقنا جميعاً.

"كوشير" تصبح العجوز مرة أخرى. أين أمي؟ فأنا لم أعد أسمع صوتها.

ثم فجأة، وكأن مياه المسبح انشقت، تظهر رأس أمي من الأعماق. إنها تقطر ماء وترتعد كما لو كانت آتية من قاع البحر. لا أطيق الانتظار حتى توقف العجوز عن الصياح حتى لا تضطرب أمي للنزول تحت الماء ثانية. فهي مرهقة بالفعل والمياه تدفق من بين شعرها ومن أذنيها.

"فلتنعمي بالصحة والعمر المديد يا ألتا!"

الآن تبسّم العجوز أيضاً. ترفع يديها النحيلتين قطعة القماش الكثانية. تلفها امي حول جسدها كما لو كانت أجنحة بيضاء وتبسم كالملاك.

يجب أن تبسط المائدة من أجل وصول ملكة يوم السبت. يجب على الزوجة والأطفال التزين، فوق ثياب العطلة الخاصة بها ترتدي الزوجة غالباً صدرية غالية الثمن تدعى القاميصول (رداء نسائي قصير بلا أكمام). كانت القبعات تزدان في هذا اليوم بشيرتيشل مطرز بالؤلؤ. في الظهيرة، يعود الأب إلى المنزل ويعد نفسه للاحتفال. كان الأب مثلاً يرتدي قفطاناً أسود اللون وجوارب بيضاء والشترايميل، "القبعة اليهودية" السوداء المصنوعة من الفراء التي يرتديها الحاخامات وبها ثلاثة عشر ضفيرة سوداء. حتى ملاسهم - التي بمرور الزمن اختلفت تماماً عن ملابس غير اليهود - كان دورها التعبير عن التقوى والورع. علاوة على ذلك، يمكن للمرء في تفاصيل الملابس أن يعبر عن عضويته بجماعة اجتماعية معينة أو بجماعة الصدوقيين. كان الشينزريد ("اليهودي الجميل") هو اليهودي الورع العالم - وبشكل نموذجي - ميسور الحال الذي يظهر هذا للعالم الخارجي من خلال رداءه.

كان الوالد يتجه إلى المعبد مع أبنائه حيث تقام المراسم بصورة احتفالية. بصفة عامة، كانت الزوجة تبقى بالمنزل وتشعل شموع السبت حين ترتفع النجوم الثلاث في السماء - ويكون هذا قبل غروب الشمس بحوالي نصف الساعة - تكون هذه إشارة إلى بدء يوم العطلة.

نذكر هناك كلمات بيلا شاجال مرة أخرى حيث تقول:

^{١٠} بيلا شاجال، الأضواء المتوهجة (راينبك، ١٩٦٦)، ص. ٣٠. بالكامل.

ترك أمي الحبل حتى نهاية اليوم. تأكد من أن كل شيء مغلق بشكل جيد. الآن أسمع خطواتها الصغيرة. تغلق الباب الحديدي بالخلف. الآن أسمع حفيف ثوبها. الآن تأتي إلى غرفة الطعام بجذاتها الناعم. تبقى على عتبة الغرفة للحظة كما لو كان مفرش المائدة الأبيض والشمعدان الفضي ذي الشعب قد أعيا عينيها. ثم تسرع بغسل يديها ووجهها وترتدي الياقة الدانتيل المغسولة التي دائما ما ترتديها ليلة الجمعة؛ أم جديدة تماما تسير الآن إلى الشمعدان وتشعل شمعة تلو الأخرى يعود ثقاب. الشموع السبع تلالاً متوهجة الآن. تعكس الشموع ضوءها على وجه أمي من أسفل وكما لو كانت مسحورة تخفض عينيها. ببطء، ثلاث مرات واحدة تلو الأخرى تحيط أمي بيديها كل شعلة على حدة كما لو كانت تحيط بقلها. كانت هموم الأسبوع تذوب مع الشموع. كانت أمي تغطي وجهها بيديها وتبارك الشموع. كانت دعواتها الخفيفة التي تهتم بها تمر عبر أصابعها وتضفي على اللهب الأصفر قوة أكبر. كانت أيدي أمي تتوهج في ضوء الشموع كالوالمح التشريعات في تابوت العهد.

في الشتاء، كان تساقط الجليد يوم السبت له تفسير خاص. كم هم محبوبون بنو إسرائيل حتى أن الملائكة أنفسهم يندفون أجنتهم على شرفهم ويفرشونها بساطا من مدخل دار العبادة وحتى مدخل بيوتهم بينما يخرجون للجلوس لوليمة الملك داوود عليه السلام.

في يوم السبت كانت البهجة تمتزج بالوعي بالواجب. تناولت الكثير من الروايات "شاعرية" يوم السبت. دعم السبت التضامن

^{٩١} المرجع السابق، ص. ٤٢. بصفة عامة كان يتم إشعال شمعتين ليوم السبت.

^{٩٢} شاموئيل يوسف أجنون، المنبؤ (فرانكفورت، ١٩٨٨)، ص. ٢٣.

الأسري؛ ناهيك عن التضامن بين اليهود بصفة عامة. لقد شكل يوم السبت مصدرا هاما تستمد منه القوة اللازمة لمجابهة أعباء الحياة اليومية.

لقد سلب ألباب عدد كبير من اليهود الإعجاب الذي أثاره السجل بين المتعة والسكينة والتدبر في الذات من جانب والالتزام بصرامة أكبر بالتعاليم التقليدية على الجانب الآخر. في الوقت ذاته، كانت هناك أعداد متزايدة من اليهود الذين ضعف التزامهم بيوم السبت تدريجيا - بسبب علاقاتهم التجارية مع غير اليهود أو استعدادهم للاندماج معهم. على سبيل المثال، كان هؤلاء اليهود يديرون أعمالهم من الباب الخلفي، أو لم تعد نساؤهم يذهبن إلى الميكناه بشكل منتظم. تحجرت شعائر يوم السبت لتصبح مجرد شكليات. فقدت الطقوس التقليدية مصداقيتها في ظل هذه الظروف، خاصة عند الأطفال. نتيجة لذلك، عانت البنية السلطوية للجماعة اليهودية.

كان أهم الأعياد الدينية هو يوم كيبور في نهاية سبتمبر أو بداية أكتوبر، وهو يوم التوبة والتصالح بين الرب وأفراد اليهود. كان يفرض في يوم كيبور الصوم التام من مغرب الشمس إلى غروبها في اليوم التالي. لم يكن مسموحا حتى شرب رشفة من الماء. عادة ما كان اليهود الورعون يقضون هذه الليلة في المعبد حيث تبدأ العبادة بالكل نيدر، وهو تصريح يلغى به الفرد جميع العهود التي تعهد بها للرب بسرعة أثناء العام المنصرم - طالما تتعلق هذه العهود بالفرد نفسه (تستثنى الالتزامات نحو الآخرين على النقيض مما يشاع غالبا عن اليهود بشكل مشين).

يصف إسحاق سينجر الاستعدادات ليوم كيبور في وارسو إبان الحرب العالمية الأولى فيقول:

كان الحاخام يتجول في الشقة جيئةً وذهاباً برأس أشعث تقريباً. كانت الشقة بالطابق الرابع وكانت النوافذ تطل على الشارع والساحة. يمكنك سماع قعقة العربات بالشوارع والشاحنات وصياح البائعين الذين يعرضون بضاعتهم للبيع في الأكشاك. كان الموسيقيون بالشوارع يعزفون ويغنون. الأطفال يصيحون. الآن فقط أصبحت المعنى الكامل لهذه العبارة من التلمود جلياً للغاية: "من الصعب العيش في المدن الكبرى."

كان من الصعب الإقامة في وارسو. كانت الساحة ملحق بها دار للعبادة لكن الميكهة كان يقع على الجانب الآخر من الشارع، وحين يعبر المرء الشارع فهو يحمل روحه على كفيه. في المطبخ، كان ينبغي طهي الطعام بشعلة غاز، ومن بوسعه ان يتيقن من ان الغاز قد تم إنتاجه تحت إشراف يهود صارمين ام لا؟ كانت المياه تأتي من الصنبور ولكن من كان بوسعه أن يعرف إن كانت الأنابيب غير مملوئة بجميع أصناف النجاسة؟

رغم كل هذه الصعوبات، كانت تجري الاستعدادات ليوم كيפור. في اليوم الذي يسبق يوم العطلة كان الحاخام دان يذهب إلى دار العبادة، حيث كان يتجرع كأساً من النبيذ مع غيره من المؤمنين بعد صلاة الصبح ويتناول قطعة من الكعك. في الظهيرة تكون زوجته قد أعدت سمك الشبوط، والزلايا، واللفت الأصفر. في الظهيرة، يرتدي الحاخام دان قفطانه الحريري ورداء الحاخامات الأبيض ومعطف الصلاة بذيله المطرز بالذهب. كانت زوجته ترتدي أحلى ثيابها وتغطي رأسها بغطاء رأس مطرز باللؤلؤ. وتظهر بناته وزوجات أبنائه أيضاً في أردية العطلات الخاصة بهن. بعد أن يتلو الحاخام بركاته، يتوجه إلى دار العبادة ليشترك في الكول نيدر. كانت الساحة تصخب بالضوضاء. كانت النساء اللاتي تم تجنيد أزواجهن يولولن وينتحن. تبادلن بعض النسوة الأكبر سناً - اللاتي ترتدين شعرا

مستعاراً تحت الشيلان ويحملن كتب الصلاة الزخرفة بالذهب بين أيديهن - التهانئ الحارة بقدوم السنة الجديدة. لم يكن الغسق قد أتى بعد، غير أن دار العبادة كانت بالفعل توهج بالضوء. كانت الأرض مفروشة بالقش ونشارة الخشب. اجلس الشماش (القندلفت الذي يتقاضى أجراً في المعبد اليهودي) الحاخام دان على مقعد بجانب الحائط الشرقي....

بينما عاد المؤمنون أدراجهم إلى منازلهم، ظل الحاخام دان وعدد قليل من الرجال المسنين في دار العبادة لقضاء الليلة هناك. دفن الحاخام رأسه في مخطوط قديم وأطال التفكير في المجد الزائل لبني إسرائيل....

أزت الشموع و تراقص لهيبها. تمدد رجل مسن بوجه متغضن ولحية بيضاء كثة على أحد المقاعد وغط في النوم. من النافذة، يمكنك التطلع إلى السماء الباهتة الممتلئة بالنجوم وثلاثة أرباع البدر. بينما انتظر هنا مرتدياً رداءه الأبيض ومعطف الصلاة، نبح الحاخام دان في نسيان أنه تم طرده من تيراسبول. كان في مكان مقدس يحيطه أبناء جلدته من اليهود وبجانبه كتب الشريعة المقدسة التي يأنس لها. كلا، لم يكن وحده. لازال هناك رب في السماء وملائكة وساروفيم ولازال هناك عرش الرحمة. لم يكن بحاجة سوى لأن يمد يده ليمس أحد الكتب المقدسة التي كانت كلماتها صوت الرب الحي والرموز التي خلق بها العالم.

كان يسبق يوم كيبور الاحتفال برأس السنة اليهودية (رووش حاشانا) لعشرة أيام. في ليلة العام اليهودي الجديد، كان الأطفال يتركون خطابات لأبائهم في المكان الذي سيجلسون عليه على المائدة العامرة، يعدونه فيها بأن يظهروا طاعة أكبر لوالديهم في العام الجديد

^{٩٣} سينجر، عائلة موسكات، ص. ٣٦٠ - ٣٦٣.

ويسألونهم الصفح لتجاوزاتهم في العام المنصرم. تقول بيلا شاجال أنه في الظهيرة بعد أداء العبادات توجه الناس إلى النهر لتلاوة صلاة تطهير ويلقوا "بخطاياهم في الماء المتدفق".^{٩٤}

كانت هناك اعياد أخرى للاحتفاء بأحداث تاريخية مذكورة في الكتاب المقدس. فعيد الفصح في أبريل يحتفي بخروج اليهود من مصر. لمدة ثمانية أيام فقط يمكن فقط استخدام أنية فخارية خاصة وأدوات تقطيع وأواني طهي معينة. يتم إعداد الطعام وفقا لقوانين صارمة خاصة الخبز غير المخمر أو (الماتسو). يجب إخراج أنواع الطعام المعتادة وأواني الطهي المعتادة التي اتصلت بها من المنزل بحذر شديد. في الكثير من الأماكن، كان من المعتاد إبرام عقد بيع زائف مع غير اليهود فيه يبيعونهم الأشياء التي يستعيدونها لاحقا. يبحث الأب عن بقايا اي خبز مخمر أو هاميت هو وأبناءؤه على ضوء الشموع ويحرقونه وفقا لطقوس صارمة. بطبيعة الحال، تكون الأم قد أعدت فئات الخبز بالفعل.

كان السيدر هو ذروة الاحتفال وهي وجبة احتفالية دسمة. سير "ترتيب الاحتفال" تبعا لما ورد في الكتاب المقدس بشأن الوجبة احتفالية والتي تطورت منها أيضا فكرة العشاء الرباني في المسيحية. يجلس الوالد جلسة مسترخية مضطجعا للوراء في كرسي يشبه العرش، مزين لهذا الغرض. عموما، إن كان أصغر الأبناء قد تعلم قراءة اللغة العبرية يقوم بطرح أربعة أسئلة على الوالد بشأن معنى الأحداث التي يحتفي بها الفصح اليهودي. يجيب الأب على هذه الأسئلة بتلاوة أجزاء من الهاجاده (التفسيرات القصصية الأسطورية) التي تحوي الرواية المقدسة عن خروج اليهود من مصر، التي تم نشرها وترويجهما بروايات كثيرة وفي كتب مزينة بشكل جميل.

^{٩٤} بيلا شاجال، الأضواء المتوهجة، ص. ٦٦.

ينتهي الجزء الرسمي من السدر بأمنية : "العام المقبل في أورشليم". كان الكثير من الحسيدين يعلقون الخبز غير المخمر (الماتسو) ليتدلى من أسقف منازلهم أو في المعابد حتى حلول عيد الفصح التالي كي تظل المناسبة حية حاضرة في الأذهان.

في يونيه كان يتم الاحتفال بعيد الشفوعات ("أسابيع") ويحتفي هذا العيد بنزول الوحي بالتوراة في سيناء. كان هذا هو الاحتفال بالتوراة. يعتبر أيضا من أعياد الحصاد وله أصل في الكتاب المقدس كيوم ثمار الفاكهة الأولى. لذلك كان الأطفال يزينون المعابد بأفرع الأشجار والأغصان وقمم الأشجار.

عيد السوكوت ("المظال") ويحتفي بتيه اليهود أربعين عاما في البرية والخيمة السعف التي أوى إليها اليهود بعد الخروج. من ثم، كان رب الأسرة يبني أكواخا صغيرة من ألواح الخشب بالأغصان والأوراق لتغطية الأسقف. كانت الابنة في الأسرة تزين هذه الأكواخ. كان اليهود الملتزمون أيضا ينامون في هذا الكوخ طوال الليل أثناء أيام الاحتفال في أكتوبر. كان نهاية الاحتفال هو الاحتفال بسميحات توراة (بهجة التوراة). هذا واحد من أبهج الأعياد وأكثرها صخباً. ينطوى هذا الاحتفال على الرقص والغناء. في الحقيقة كان شرب الكحوليات ضروريا في هذا العيد.

في عشرينيات القرن العشرين شهد جوزيف روث على أحد هذه الاحتفالات في أحد الشتيلات ويصفه قائلاً:

أمسك الحسيديون بأيدي بعضهم البعض ورقصوا في دائرة وصفقوا بأيديهم ولوحوا بأيديهم إلى اليسار وإلى اليمين مع الإيقاع وأمسكوا بلفائف التوراة وأرجحوها خلال الهواء كما لو كانت فتات وضموها إلى صدورهم وقبلوها وصرخوا من السعادة. كانت هناك مشاعر شهوانية في هذه الرقصة. أثر في تأثيرا بالغاً أن شعباً بأكمله يمكنه تكريس متعته في متعة الحياة لربهم وأن يجعلوا من الكتاب الذي

يحمي أكثر القوانين صرامة عشقتهم وأنهم لم يعودوا يستطيعون التمييز بين الرغبة الجسدية والمتعة الروحية بل وحدوا بين الإثنين. كانت الشهوة والحماسة، كان الرقص هو عبادة للرب وكانت الصلاة إفراطاً في المتعة. كانوا يحتسون شراب الميد من الأوعية الضخمة... شاهدت أيضاً كيف كان اليهود يفقدون الوعي... بعد خمسة آنية من الميد القوي لا فرحاً بالانتصار ولكن بهجة بأن الرب قد منحهم الشريعة والمعرفة.

عيد هانوكا - عيد الأنوار أو عيد التدشين - الذي يحل في النصف الثاني من شهر ديسمبر - له أصل تاريخي بمغزى ديني. فهو عيد يحتفل بانتصار المكابيين في عام ١٦٧/١٦٤ ق.م. على الحكم السوري واستئناف العبادة اليهودية في الهيكل. وفقاً للتقاليد، عندما دخل اليهود المعبد الذي انتهك السوريون قداسه، وجدوا برطماناً من الزيت المقدس يكفي ليوم واحد. بيد أنه من الإعجاز أنه بقي لثمانية أيام حتى تمكنوا من الحصول على إمدادات جديدة من الزيت. نتيجة لذلك، يقوم الأولاد وغالباً أيضاً النساء والفتيات على مدى ثمانية أيام بإشعال شمعة جديدة كل يوم على شمعدان الهانوكا ذي الشعب وكانوا ينشدون أغاني الهانوكا. لهذا فإنه إلى جانب الشمعدان ذي الشعب الذي يستعمل أصلاً في المعبد، شمعدان المينورا ذي الأذرع السبعة، يوجد الآن في المعبد اليهودي وفي منازل اليهود في عيد الهانوكا - وأيام السبت - المينورا ذات الأذرع الثمانية التي يحملها شماش (خادم) إضافي معه شعلة تستخدم في إشعال الشموع.

من الأعياد المثيرة عيد النصيب (بوريم) الذي يحل في مستهل مارس. يحتمي هذا العيد بنجاة اليهود الفارسيين من الهلاك وفي

^{١٥} روث، يهود التيه، ص. ٢٩٣ - ٣٦٩، هنا ص. ٣١٥.

الوقت ذاته يحثني بحقيقة أن الرب يساعد في المواقف الحالكة إن لم يفقد المرء إيمانه. هذه الظروف التاريخية المذكورة مدونة في سفر إستر. من أهم الفروض في هذا العيد الاستماع إلى تلاوة من الجيلاه (اللفائف الدينية) لسفر إستر المكتوب على هذه اللفائف المزينة بشكل جميل. بينما يذهب الرجال إلى المعبد لهذا الغرض، يقوم قاريء خاص بزيارة النساء والأطفال في المنازل. حينما يذكر اسم هامان في التلاوة يقوم الأطفال بإحداث جلبة مخيفة بشخايل. في هذا العيد يتم تناول عجائن مثلثة تسمى هاماناشن ("جيوب هامان"). كانت قصة عيد البوريم تروى أيضا في الدراما الشعبية. كانت تقام الاحتفالات في مناخ مفعم بالحياة مع الموسيقى والرقص والأغاني والألعاب. غالبا ما كان الشباب وكذلك رجال الدين يضعون الأقنعة. لم يكن ينظر إلى الاختلاف في المنزلة والعمر وكان يسمح حتى بتبادل الملابس بين الرجال والنساء والسكر.

نتيجة لذلك، يتحدث الناس غالبا عن "كرنقال يهودي". ربما كان هذا فقط تشابه سطحي يتطلب المزيد من البحث. نعم، هناك أثر لعالم صاخب غير أن أهم ما في الأمر هو السعادة النابعة من حقيقة أنه رغم أشكال المعاناة الناجمة عن الظلم يكون النصر دائما حليف المرء بمعونة الرب. من المحتمل أن تكون بعض ملامح عيد البوريم قد أثرت على الكرنقال المسيحي.

كانت مراسم الدفن أيضا منضبطة للغاية. يصف سينجر عملية دفن ميشولام موسكات الثري فيقول:

كي يبقوا الحشود تحت السيطرة، كانت الشرطة تحضر مراسم الدفن. كانوا يصيحون بأعلى صوتهم ويفرقون الحشود بسيوفهم. كان من المقرر أن يتقدم موكب الجنازة ممثلون من أطفال المدارس الخاصة الأولية التي كانت تعتمد على تبرعات ميشولام. نوحث النساء كما لو كن يبكين قريبا حميميا. أغلق معظم أصحاب المحال

بشارع جيريزيو محالهم. ولأنه كان من المحتمل تزايد الطلب على سيارات الأجرة في مثل هذه الجنازة الضخمة، فقد توافد أصحاب العربات من جميع أنحاء المدينة إلى منطقة جيريزيو. همس بعض العجائز الخرفن لبعضهم البعض أن الراحل لم يكن يستحق مثل هذا التكریم.

في حوالي العاشرة برزت عربة الموتى للعيان. قامت الجياد - التي تلمحت بالسواد بفتحات للرؤية عند العينين - بجر العربة وراءهم ببطء. امتدت مسيرة العربات المشاركة في الجنازة خلال شوارع جيريزيو وتواردا وكرو شمالنا وجنوجنا. جفلت جياد العربات وأخذت في الصهيل. تلقى بعض الصبية الصغار الذين كانوا يبحثون عن نزهة على الألواح التي تجرها الجياد في العربات ضربة على رؤوسهم بالسوط. لم يتمتع يهود وارسو بشيء أكثر من استمتاعهم بجنازة ضخمة. قبل دخول عربة الموتى إلى المقابر بوقت كبير، كان حشد كبير من الناس قد تجمع هناك. كان الشباب قد تسلقوا شواهد القبور للحصول على رؤية أوضح. كانت جميع الشرفات في شارع جينشا مليئة بالبشر. خدم المدافن الذين كانوا يرددون قبعات بقمم لامعة وعباءات بأزرار لامعة أحضروا معهم ألواحاً ومجاريق. أحاط المتسولون والمعاقون ببوابات المدافن وحفوا الطريق إلى القبر. كان المشاهدون المطلون من الشرفات والنوافذ يبخشون من أن تقوم الحشود المتدافعة في المدافن بقلب عربة الموتى أو الدفع بالحاخام إلى القبر المفتوح. غير أن يهود وارسو اعتادوا على الاحتفاظ برباطة جأشهم وسط هذه الحشود المزدحمة. رغم الارتباك، تم كل شيء وفقاً للتشريعات والعادات اليهودية. لفت الجثة في الكفن ثم في معطف الصلاة لتدفن. تم وضعت قطع من الوحل على عينيه ووضعت عصا بين أصابعه كي يستطيع الراحل عند قدوم المسيح أن يحفر طريقه للخروج إلى الأراضي المقدسة. تنهد المعزون

وانفجرت النساء في نوبات من اللولة. تلا حفارو القبور المقولة التقليدية: "إنه من الحجر. أتم عمله لأن كل ما يفعله هو عدل رب الحق تنزه عن اي شيء، العادل الحق."

حين تم ردم التراب على القبر تلا أبناء ميشيليم القاديش (التسابيح). هؤلاء الذين تجمعوا حول المقبرة اقتطفوا حشائش ذابلة وألقوها وراء ظهورهم...

في منزل الراحل أقام أبناؤه الثلاثة/الشيغا (أسبوع الحداد). الأربعة جميعهم جويل وبينجي وناثان ونجوني أقعوا على مقاعد خفيضة للسبع أيام المحددة [شيغا تعني سبعة بالعبرية] دون أحذية. تمت تغطية مرآة الحائط وعلى النافذة لازال هناك حوض صغير مليء بالماء ومنشفة من الكتان كي تتمكن روح الراحل من أداء الوضوء. في شمعدان زجاجي كانت هناك شمعة احتفائية مشتعلة. باكرا في الصباح وفي العصر كان يتجمع نخبة من الرجال لأداء الصلاة.^{٩٦} غالبا ما كان يلقي بعض التراب من أرض إسرائيل المقدسة في القبر مع جثمان المتوفى. وفقا للمعتقدات الشعبية، كان يقصد بهذا الحؤول دون تعفن الجثمان كي يتمكن المتوفى من النهوض حيا مرة أخرى عند قدوم المسيح دون أية عوائق.

المعبد اليهودي ومنظمات الجماعة اليهودية
كان المعبد اليهودي دارا للتجمع والصلاة والدراسة ولذلك فغالبا ما يعرف باسم شول (مدرسة). كانت هاتان الوظيفتان الرئيسيتان لتحديدان الرسم التخطيطي للمبنى. يجب أن يكون محور الصلاة مائلا نحو الشرق تجاه الهيكل المفقود في اورشليم الذي سيستعاد يوما ما. في أحد طرفي هذا المحور يوجد تابوت العهد حيث تحفظ

^{٩٦} سينجر، عائلة موسكات، ص. ٢٥٣ بالكامل.

لفائف التوراة. في وسط هذه الحجرة، بموازاة هذا المحور يوجد رمز الحكمة - مائدة التوراة. لابد أن تشكل الشريعة مركز الحياة. غالبا ما لم يكن المعبد بمستوى الأرض بل كان يغوص في الأرض إلى حد ما. لأزال من الممكن مشاهدة هذا الأمر في المعبد القديم الحديث في براغ. كانت هذه محاولة لاتباع كلمات المزمور ١٣٠: "من الأعماق صرخت إليك يا رب". غالبا ما كانت هذه العادة أيضا ترجع إلى منع السلطات المسيحية لإقامة معابد يهودية يزيد ارتفاعها عن المباني المسيحية.

جدير بالذكر المعابد الخشبية الكثيرة الموجودة في بولندا بنائها الخارجي الجريء وتصميماتها الداخلية - الزخارف الملونة والتصوير الرمزي والنقوش العبرية والنقوش الخشبية الفخمة - لقد كانت تشع قوة خاصة. لسوء الطالع، لا يمكن الإعجاب بهذه الأشياء في وقتنا الحالي سوى في الصور.

كان على النساء البقاء منفصلين عن الرجال في المعبد. فإما يجلسن على مستوى الأرض خلف حواجز حول الغرفة الداخلية التي يمكن النظر إليها من خلال كوة أو في رواق يفصلهم فيها عن الرجال أبواب شبكية.

في المدن الكبرى - إضافة إلى المعابد اليهودية ذات البناء المميز - كانت هناك خاصة عند الحسيدين غرف متنوعة للصلاة في الغرف الخلفية للمباني السكنية: عكست الشتيبل (غرفة الصلاة) فقر الجماعة اليهودية. غير أن الجو النفسي داخل تلك الغرف يمكن أن يكون احتقاليا ومحركا للمشاعر مثله في ذلك مثل أكثر أماكن التجمع روعة. علاوة على ذلك، فلنكرر أن العبادة الدينية يمكن تأديتها في أي مكان يجتمع فيه عدد من الرجال لا يقل عن عشرة، المينيان (النصاب).

كانت تقود الجماعة اليهودية لجنة غالباً ما تواجد إلى جانبها مجلس. غالباً ما كانت هناك منافسة ضارية على المناصب القيادية في الجماعة اليهودية، خاصة بين اليهود الأرثوذكس والحسيديين ويهوديي الإصلاح. كانت هذه المنافسة تصل إلى حد العنف في أحيان ليست بالقليلة. أدت التوترات الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية إلى استفحال هذه الصراعات. استطاعت الطبقة العليا الحاكمة أن تحتفظ بمكاتها السلطوية لوقت طويل. احتل المشرف على إغاثة الفقراء مكانة تلي في الأهمية مكانة قائد الجماعة اليهودية، البارناس. فكان المشرف على إغاثة الفقراء يجمع المال ويوزعه على الفقراء وينظم وجبات السبت لأفراد المجتمع المعوزين. كان الحاخام هو المعلم والمرجعية الدينية في الجماعة اليهودية. لم تكن له مهام كهنوتية. فقد اختفى الكهنوت بعد تدمير الهيكل في أورشليم وإن كان أحفاد هذه الطائفة من اللاويين وكهنة هارون لازالت لديهم بعض الحقوق والواجبات. كان على الحاخام أن ينشر المعرفة بالتلمود في الجماعة اليهودية بإلقاء المحاضرات في المعبد اليهودي وإقامة المناقشات مع غيره من العلماء. علاوة على ذلك كان الحاخام ينصح المؤمنين بشأن الواجبات الدينية والقضايا الفقهية، كما كان يرأس المحكمة الحاخامية. كان يتلقى مبالغ مالية من الجماعة اليهودية. لم تكن هذه بالمشكلة طالما لم يلقي الشك بظلاله حول سلطته. كلما انخرفت الجماعة اليهودية إلى الانشقاق وتصارعت التوجهات المختلفة لليهودية مع بعضها البعض، علق منصب الحاخام بين الأطراف المتصارعة.

كان الحاخام يساعد الشماش وهو ما يماثل القندلفت في الكثير من مهامه. غالباً ما تحمل الأخير مهام الحزان أو قائد جوقة الترتيل الذي كان يوجه الطقوس الدينية العامة وهي مهمة تستدعي صفات خاصة لأن الطقوس كانت تستمر لمدد طويلة وفي الأعياد كانت

الطقوس المتعددة تقام الواحد تلو الآخر. إن كان الحزان مغنياً موهوباً، أحياناً ما كان فنه يقوده لإضفاء ثقل أكبر على الأداء أكثر من المغزى الديني. إضافة إلى المعلمين وأمناء السر والكتابة وما شابه ذلك من الموظفين في الجماعة اليهودية، كانت الجمعيات المختلفة ذات أهمية أيضاً. كانت الهيفرا كاديشا أو "الجمعية المقدس" أخوية مسئولة عن مراسم الدفن. كانت هذه الأخوية ترعى المصابين بأمراض مميتة وتساعدهم على الاعتراف بخطاياهم وكانت تنفذ جميع الفروض الدينية المتعلقة بالوفاة وتتعاون مع المنظمات المسؤولة عن مراسم الدفن. لم يكن بوسع أي حظر تصدره أية سلطات أن يمنع هذه المنظمة المستقلة من القيام بواجباتها.

إلى جانب هذا الكيان المبجل - الذي غالباً ما كان يشكل لب الجماعة الدينية - ربما كانت الجمعيات الخيرية الأكثر أهمية. كانت لهذه الجمعيات تقاليد عديدة وكانت تتبع مجالس القهال التي كانت تقوم بتوجيه العمل الخيري. حتى بعد انهيار الوحدة الدينية بين اليهود كما يتضح من تعدد المعابد اليهودية والشيتيلن، كانت المسؤوليات الاجتماعية هي المسؤولية المشتركة للجماعة اليهودية كلها في مكان معين. كانت كثير من الأمور تتم بشكل يتسم بالخصوصية. في يوم السبت كان اليهود يستقبلون الضيوف. عندما كانوا يذهبون لصنع الخبز ليوم السبت، كان اليهود يلقون بالعملات المعدنية للفقراء في صناديق جمع الأموال الموضوعة لهذا الغرض. كان يعول طلبة اليشيفا المعدمين أسر موسرة أو كانوا على الأقل يستطيعون أن يتناولوا وجباتهم كل يوم مع أسرة مختلفة. كانت الجمعيات الخيرية تعول الأراامل والأيتام والمسنين والمرضى والمعوقين وكانت تقيم مطابخ لصناعة الحساء وتعني بإعادة تأهيل المسجونين بعد إطلاق سراحهم. كان اليهود الفقراء يتلقون العون كي يستطيعوا الاحتفال في الأعياد الدينية. كانت تقدم للفتيات الفقيرات الملابس والمهور.

علاوة على ذلك، كانت الجمعيات تقدم يد العون في أوقات الشتاء القارص والمرض والطواريء .

سريعا ما دفعت الزيادة السكانية السريعة في القرن التاسع عشر بالأعمال الخيرية في الجماعة اليهودية لأقصى حد . حين نشر مجلس القهال بمدينة وارسو آخر تقاريره عام ١٨٦٩ لم يرد أن يمنح ناقد الأعمال الخيرية التقليدية الفرصة لإثارة هذه الجدل بأنفسهم . لقد اتضح أنه في المتوسط لم يكن متاحا سوى روبل واحد أو اثنين لكل شخص معوز . أصبح هذا الوضع أسوأ بشكل جلي عندما تم الإسراع بالتوجه إلى الصناعة . ما بين عامي ١٨٩٤ و ١٨٩٨ كان عدد هؤلاء الذين بحاجة إلى المساعدة في منطقة الاستيطان - بما فيها بولندا الخاضعة للإمبراطورية الروسية- قد ازداد بمعدل الثلث . حوالي عام ١٩٠٠ كان متوسط نسبة الأسر المعوزة يقل بقليل عن ٢٠% . أما في المدن الكبرى فقد ارتفعت النسبة عن هذا بكثير .

في الصحافة اليهودية كانت تتردد المزيد من الأصوات التي تدين عدم كفاية نظام العمل الخيري . حتى الجهود المتزايدة للأفراد اليهود الأثرياء مثل بوزنانسكي في مدينة لودز فلم تتمكن من تغيير أي شيء . كان المطلب الرئيسي هو أن يبدأ المرء بالأسباب الكامنة وراء ذلك خاصة نسبة البطالة المرتفعة . أصبح من الضروري تحسين التعليم واستحداث مصادر جديدة للوظائف . جاء رد فعل الجمعيات - الهيئوت - سواء كانت تعاونية أو لا وغالبا أيضا ما كانت توصف بأنها أخويات - في شكل محاولة تنظيم المعونة المتبادلة ليتحول الأمر إلى مساعدة النفس بدلا من إمداد المساعدات الفردية وحسب . كونت الهيئوت (الجمعيات) الحسيدية البروليتارية النواة الأولى لحركة العمال من أهم هذه الجهود المبذولة إقامة المصارف الائتمانية التابعة للجمعيات التعاونية للحرفيين وصغار التجار . لقد طورت هذه المصارف إجراءات للتطوير الهيكلي للتجارة بشكل

خاص. كانت أهم هذه المنظمات جمعية تحسين الحرف اليدوية والزراعة بين اليهود في روسيا (ORT). بيد أن كل هذه الجهود لم تزدد عن كونها قطرات في محيط لأن الظروف المحيطة باليهود وخاصة الطبقات الدنيا من اليهود في بولندا لم تتحسن. بيد أنه من الواضح أن اليهود لم يلتزموا فقط بالطرق القديمة.

وصلت جهود الإغاثة في الحرب العالمية الأولى إلى ذروتها من خلال عدد من المنظمات المختلفة بما فيها اللجنة اليهودية لمساعدة ضحايا الحرب (EKOPO). تدفقت التبرعات من الجماعة اليهودية بجميع مستوياتها وعلى وجه الخصوص من الأثرياء. غير أنه كان هناك المزيد من الصراعات فيما يتعلق بتسييس الكثير من الجماعات المشاركة. إضافة إلى ذلك، تلقت المنظمات المعيلة الأموال من المؤسسات اليهودية بالخارج وحتى من الحكومة الروسية.

اليهود والبولنديون في جيتو بمدينة لودز
نساء يهوديات في طريقهن إلى المعبد اليهودي
جمالون يهود أمام مسرح المدينة بفلينوس
أسر يهودية عائدة إلى أوطانها

الصراعات المتزايدة مع العالم غير اليهودي
كان للعلاقات الاجتماعية المتغيرة والتغيرات الاقتصادية الاجتماعية الجذرية والتحولات الدينية والفكرية أثرها على الهوية اليهودية. في روايته "العقار"، كان لإسحاق سينجر تلميذ يهودي أدار ظهره للدين جاء على لسانه العبارات التالية:

اليهودي البولندي ... كان له في الماضي مكان حقيقي في المجتمع. قبل تحرير الأقتان (١٨٦٤ في بولندا - ه. ه. ٠) كان يلعب دور الوسيط بين الإقطاعيين والفلاحين. أضحي هذا الدور الآن شيئاً من الماضي والآن أصبح (اليهودي) أكثر قليل من مجرد طفيلي. لم يكن منتجا ولم يتحدث اللغة الرسمية للبلاد التي يعيش بها

وكان يرسل أبناءه إلى الحيدر. لكم من الوقت سيظل اليهودي يأخذ الحمام الطقسي ويتحرك مرتديا التسيت تسيت (الشراشف) ؟
الاندماج مع البولنديين أو الترويس الذي كان الكثير من كبار رجال الأعمال والمفكرين يسعون إليه كان شيئا مستحيلا لشخص مثل تلميذ سينجر حتي وإن كان سيؤدي إلى التغريب عن الطرق اليهودية التقليدية. لقد أتاح لهم المجتمع فرصا قليلة غير أن الاندماج فوق أي شيء آخر بدا - بسبب العداء المتزايد للسامية- غير ملائم وغير ممكن. المذاج في روسيا وأعمال الشغب المتفرقة في المدن البولندية (كلك التي اندلعت في وارسو في ١٨٨١ وفي لودز في ١٨٩٢) الأحداث الكثيرة الصغيرة التي كانت تحدث بصفة متكررة كحملات المقاطعة لليهود (والألمان) - "كل يترك لشأنه" والمقالات الصحفية الناضجة بالتمييز ضد اليهود والملاحظات المهينة في الطرقات وفي حجرات الاستقبال كلها كان لها تأثير.

رغم أن الصلات الاقتصادية بين اليهود وغير اليهود كانت تعمق نتيجة التوجه للصناعة فقد أصبحت الحدود الفاصلة بينهما في الوقت ذاته أكثر حدة. كانت توصف وارسو في هذا الوقت بأنها "مدينة الشعبين". وبالقياس، لا بد وأن لودز كانت تعد "مدينة الثلاث شعوب". في الحياة السياسية كذلك أصبحت الفروق أكثر جلاء. بالكاد يمكن ملاحظة هذا في انتخابات المجلس التي أقيمت عام ١٨٦١. كان يبدو أن اليهود والبولنديين سيعملون سويا ضد حكم القيصر. بيد أنه في انتخابات البرلمان الروسي - الدوما - في وارسو عام ١٩١٢ تصادم الحزب الوطني الديمقراطي البولندي (أكثر الأحزاب نزوعا إلى الوطنية حتى ذلك الوقت) مع اليهود صدامات عنيفة. تم تصوير "الخطر اليهودي" بصورة صارخة. عند انضمام عضو اشتراكي إلى البرلمان بمساعدة أصوات اليهود أثناء إجراءات الانتخاب المعقدة - وفي الوقت ذاته عندما كان يحظى يهودي بأغلبية

الأصوات في مدينة لودز- كان الاضطراب يخرج عن نطاق السيطرة تماما . نظم الحزب الوطني الديمقراطي مقاطعة اقتصادية لليهود . كانت الصراعات الآن تدور علانية .

الاشتراكية والصهيونية وهوية يهودية جديدة أدت الشكوك التي اتبنت الكثير من اليهود بخصوص مكانتهم في المجتمع إلى كره الذات والانتحار . بينما فضل الآخرون المعارضة الثورية وانضموا إلى الجماعات الاشتراكية . في روسيا في بواكير عام ١٨٧٦ حاولت جماعة يطلق عليها اسم نارودنيكي (حزب الشعب) بعد أن لحق الفشل بحركة "الذهاب إلى الشعب" قبل ذلك بعامين- أن يوسعوا من قاعدة مؤيديهم وأسسوا "جمعية اليهود في روسيا" . نشط اليهود أيضا في الجماعات الثورية في السنوات التالية . غير أنه اتضح في أعقاب عام ١٨٨١ أن هذه الجماعات غالبا ما تبنت مواقف محتقرة للثقافة اليهودية حين رحبت بأعمال العنف التي جرت ضد اليهود بوصفها ثورة عفوية من الشعب ضد المستغلين اليهود . بدأت الضغوط تزداد لحصول اليهود على قدر أكبر من الاستقلالية . حاول أولئك الذين كانوا إلى ذلك الحين يتقربون من الثقافة البولندية إدخال هذه الفكرة إلى المنظمات القومية كالحزب الاشتراكي البولندي الذي تأسس عام ١٨٩٢ . لكن هنا أيضا سرعان ما بدأت الخلافات في الظهور بسبب الافتقار إلى احترام "للمسألة اليهودية" وبسبب الميول المعادية للسامية في بعض أقسام الحزب .

نتيجة لذلك ، كانت الجماعات ذات الصبغة الدولية أكثر جذبا لليهود . فقد قدمت وعودا على أساس النظرية الماركسية بأن ثورة العالم لن تحل فقط الصراعات الطبقية ، بل أيضا الصراعات القومية . بعد ظهور عدد من الرواد المهمين ، كانت أهم الحركات الديمقراطية الاشتراكية في المملكة البولندية - الليتوانية (١٨٩٣ ، SDKP) ؛ من عام ١٩٠٠ ، الحزب الاشتراكي الديمقراطي بمملكة بولندا العظمى

SDKPIL، الحزب الاشتراكي الديمقراطي للمملكة البولندية - الليتوانية) ثم بعد ذلك الحركة الديمقراطية الاشتراكية الروسية (في عام ١٨٩٨، حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي). تعطي أسماء مثل روزا لوكسمبورج (١٨٧١-١٩١٩) وجان تيسكا (ليو جوكيشيز، ١٨٦٧-١٩١٩) ويولي أو تسيدر باوم (مارتوف، ١٨٧٣-١٩٢٣) وبول أكسيلرود (١٨٥٠-١٩٢٨) وليف برونشتاين (ليون تروتسكي، ١٨٧٩-١٩٤٠) فكرة عن النفوذ الذي مارسه اليهود في هذا الصدد.

ازداد اليهود نفوذا من خلال الجمعيات التعاونية والرباطات المستقلة للعمال اليهود التي كانت قد ظهرت منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر في مملكة بولندا خاصة في وارسو وفي جاليسيا الحمراء. في عام ١٨٩٧ تشكل أخيرا الاتحاد العام للعمال اليهود في ليتوانيا وبولندا وروسيا والذي أطلق عليه "البوند" في مدينة فيلنوس. أصبحت مدينة فيلنوس مركزا للاشتراكية اليهودية: منذ عام ١٨٤٧ وحتى عام ١٨٧٣ سمحت المدينة بتأسيس المعاهد اللاهوتية الحاخامية التقليدية؛ الأمر الذي كان من شأنه نشر الهاسكalah (حركة التنوير اليهودية) وضمت بين طلابها فيما بعد بعض الاشتراكيين مثل هارون صاموئيل ليبرمان (١٨٤٥-١٨٨٠) وهارون زونديلفيتش. كما كان بمدينة فيلنوس بروليتاريا يهودية. في عدد من الدوائر دارت المناقشات حول التعاون مع المنظمات غير اليهودية والمطالبة بحركة شعبية. بينما في البداية، في ظل روح التنوير والاندماج، كانت تجري حركات العمال باللغة العبرية أو الروسية، كان المقال الذي كتبه أركادي كريمير (١٨٦٥-١٩٣٥) الصادر عام ١٨٩٣ "حول الاضطراب" نقطة فارقة في هذا الشأن: ينبغي أن يكون الشخص معتادا على الحياة اليومية ويهتم بالتجربة اليومية للناس (إلى الشوارع نحو الشعب) كما عبر عنها فالديمر ميدن

(١٨٧٩-١٩٢٣) أحد منظري اتحاد "البوند" في المستقبل. من ثم، كان من الضروري التواصل باستخدام اللغة اليديشية. بهذه الطريقة، ناهيك عن الصحافة اليديشية، تحول البوند إلى منظمة شعبية متفردة لا يمكن تقدير تأثيرها المتعدد الأوجه على حركات العمال الروسية والبولندية. جعل الثبات الذي تمتعت به البروليتاريا اليهودية من الاحتفاظ بصيغة الحزب الشعبي ممكناً، رغم حقيقة أن أنشطة القيادات البروليتارية كانت في عمومها غير قانونية. علاوة على ذلك، أسهم عمل البوند بشكل كبير في تشكيل صورة ذاتية جديدة لليهود في شرق أوروبا.

لم يتخذ القرار المنحاز لليديشية لأسباب تكتيكية وحسب. بين دعاة البوند، من أمثال ميشيل جولدمان (مارك ليبر، ١٨٨٠-١٩٣٧) وويكتور ألتر (١٨٩٠-١٩٤٣) وهنريك إلرش (وولف هيرش ١٨٨٢-١٩٤٢)، ارتبط التفكير الدولي الاشتراكي بقناعة أنه لا بد من منح التفرد الثقافي لليهود التقدير الكافي، ومن ثم كان من الحتمي تحقيق "الاستقلالية غير الإقليمية" الثقافية لليهود. لذا طالب المؤتمر الرابع للبوند في مدينة بيايستوك عام ١٩٠١ بتحويل الامبراطورية الروسية إلى اتحاد فيدرالي بين القوميات المستقلة التي لا تتقيد بأية مقاطعة بعينها. رأى دعاة الوحدة - مثلهم في ذلك مثل الماركسية النمساوية- في هذه العضوية بجماعة قومية كبرى فرصة للحفاظ على الاختلافات الثقافية مع التغلب على القومية التي تهدف لتكوين مقاطعة خاصة بالمرء بنبذ غيره من القوميات الأخرى. وجدت هذه الفكرة الكثير من المؤيدين في كل من بين البروليتاريا اليهودية، التي غالباً ما عانت من المواقف المعادية للسامية على أيدي العمال والمفكرين من غير اليهود. بزغت فرصة للتعاون مع العمال الآخرين مع الاحتفاظ بالثقافة اليهودية، فرصة لتخطي الحدود القومية توطئة لتنحياتها جانباً في مجتمع المستقبل. يمكن تقدير أهمية

إسهام اليهود في الحركة العمالية إذا عرفنا أن عدد اليهود الذين سقطوا في الثكنات في مدينة لودز أثناء ثورة ١٩٠٥ كان أكثر من عدد الذين سقطوا من أعضاء اية جماعة أخرى.

رغم ذلك، تكشف أنه من الصعوبة بمكان التعاون مع هذه المنظمات المتداخلة. في البداية ارتبط البوند بالديموقراطية الاشتراكية الروسية. غير أنه في أحوال كثيرة أسيء فهم مطلبه بالحصول على استقلالية منظمية في ظل حزب قائم على الاتحاد الفيدرالي. في عام ١٩٠٣ حين فشل ممثلو البوند في تمرير هذه المسألة في المؤتمر الثاني لحزب العمال الديموقراطي الاشتراكي الروسي في لندن، انسحبوا من عضوية الحزب. نتيجة لذلك، أصبح الحزب المتعاطف مع أهدافهم حزب الأقلية وسارعت الجماعة المحيطة بلنين بالاستحواذ عليه. فيما بعد، أصبح الحزب يعرف باسم مينشيفيكي ["أصحاب الأقلية"]، بينما اختار الآخرون لهم اسم بولشيفيكي ["أصحاب الأغلبية"]. بعد ثورة عام ١٩٠٥، انضم البوند إلى حزب العمال الديموقراطي الاشتراكي الروسي وعمل فوق كل شيء مع المينشيفيك حتى بداية مرحلة جديدة تماما عام ١٩١٧.

كانت الصهيونية أحد بدائل الاشتراكية، وكانت أكثر من مجرد رد فعل قومي على التهديد القومي الذي تطرحه البيئة غير اليهودية. لمئات السنين - منذ تدمير الهيكل في اورشليم عام ٧٠ وما تبع ذلك من تشتت اليهود في جميع أنحاء العالم - ظل الشوق إلى صهيون؛ للعودة إلى أرض إسرائيل حيا. سيعطي الرب إشارة عندما يوشك المنفى على الانتهاء ويتمكن اليهود مرة أخرى من التجمع في إسرائيل. عندئذ، سيظهر المسيح ويأتي بالخلاص للبشرية كلها. بالنسبة لليهود المتدينين - ومنذ القرن الثامن عشر بالنسبة للحسيديين أيضا - كان حلم الحياة هو السفر ولو لمرة واحدة إلى الأرض المقدسة وإحضار حفنة من ترابها لتصبح المرء في القبر حين يحين الوقت.

لم يفكر اليهود في تكوين دولة يهودية خاصة بهم؛ بيد أنه لا ينبغي الوقوف أمام إرادة الرب .

بدأ هذا في التغير "بالتحول النشط" لليهود تجاه نهاية القرن الثامن عشر. أراد المزيد من اليهود الإسهام في تحقيق الخلاص بمواردهم الخاصة. في المجر، طالب الحاخامات الأرثوذكسيون المتشددون مثل موسى شراير المعروف باسم هاتام سوفر "لقد رفع الكتاب" (١٧٦٣-١٨٣٩) وأكيفا جوزيف شليسينجر (١٨٣٧-١٩٢٢) الذي بالرجوع إلى التوراة، كان يرفض أي شيء جديد؛ طالبوا ألا ينظر إلى اليهود فقط كديانة ولكن كشعب أيضا وأنه يجب اتخاذ الاستعدادات اللازمة للعودة إلى إيريتر إسرائيل ("أرض إسرائيل") . بهذه الطريقة فقط يمكن التحول دون اندماج اليهود - ومن ثم تفكك اليهود في نهاية الأمر. وضع الحاخام جوزيف ناتونيك (١٨١٣-١٨٩٢) برنامجا ملموسا منذ منتصف القرن التاسع عشر للتحرير القومي لليهود من خلال خلق دولة في فلسطين. لا يمكن للذهن أن يخطيء تأثير الحركة القومية المجرية لا يمكن أن يخطئها الذهن. بيد أن وأعظ توروون الحاخام يهوذا بن سولومون هاي الكالاي (١٧٩٨-١٨٧٨) لم يشطح بأفكاره إلى هذا الحد. لقد نادى باستعمار فلسطين من خلال الهجرة المتزايدة ولم يكن لدى اليهود إلى ذلك الوقت فكرة إقامة دولة مستقلة.

من هنا نشأت جذور الصهيونية الدينية التي أرادت الحفاظ على وحدة اليهود ضد فقدان الدين والتحررو الاندماج وأملت في معونة الرب لو شرع اليهود أنفسهم في العودة إلى إسرائيل. تشكلت منظمة مناظرة للصهيونية تدعى "ميزراحي" في مدينة فيلينوس عام ١٩٠٢. في الوقت ذاته، قامت مؤسسات المناهضة الدينية للصهيونية. من وجهة نظر هذه المؤسسات، كان التبكير ببناء الدولة الإسرائيلية على يد حركة علمانية كالصهيونية تجديفا. لاحقا تبنى ممثلو المذهب

الأرثوذكسي والتيارات الحسيدية هذا الرأي، واجتمعوا في مدينة كاتوفيش عام ١٩١٢ لتشكل أجوداس إسرائيل ("اتحاد إسرائيل"). في فلسطين أثناء العشرينيات من القرن العشرين، تمتعت الجماعة الأرثوذكسية المتشددة بزعامة تشايم جوزيف زونينفيلد (١٨٤٩-١٩٣٢) - الذي أتى من المجر واعتبر نفسه خليفة حاتم سوفير- بنفوذ متزايد. بينما عقد "اتحاد إسرائيل" سلاماً مع الجهود الصهيونية بعد الشوه (الهولوكوست)، كان الأرثوذكس المتشددون الذين تركوا تلك المنظمات لا يزالون يرفضون دولة إسرائيل ويعتبرون الصهيونية خطراً قاتلاً على اليهود.

من المصادر الأخرى للصهيونية الهاسكلاه التي ظهرت - مثل التحول إلى الاشتراكية- مما يطلق عليه اسم "التحول النشط". أدى إحباط الآمال في أن تسير حركة التنوير يداً بيد مع التحرر واندماج اليهود بالمجتمع بالكثير من المسكالم إلى العودة الروحية إلى اليهودية وإلى الاعتقاد بأنه لا حل للمشكلة سوى من خارج يهود الشتات. في عام ١٨٥٢ قام أبراهام مابو (١٨٠٧-١٨٦٧) - في الأصل معلم من كوفنو (كوناس) بليتوانيا - بنشر روايته "أهافات تسيون" (١٨٥٢، "حب صهيون"؛ المنشورة باللغة الإنجليزية تحت عنوان "أنو: الأمير والفلاح") باللغة العبرية. بنى مابو روايته على موتيفات من الكتاب المقدس ومعالجة تدريس في التقنية الروائية المعاصرة، خلق مابو صورة مثالية لإسرائيل؛ الأمر الذي عبر عن رغبة يوتوبية في إقامة مملكة للسلام- لها السمات الملموسة لمجتمع الريفي يتمتع بالعدالة الاجتماعية وحق المرأة في تقرير المصير. لاقت الرواية نجاحاً هائلاً ومهدت الطريق لإحياء الفكرة الصهيونية. الآن كان الكثير من الكتاب يروجون لفكرة خلق دولة في فلسطين.

كانت المعاداة للسامية التي اتسمت بالعنف وأخيراً أعمال العنف التي اندلعت في الامبراطورية الروسية حافزاً لتحويل الأفكار والخطط

إلى أفعال. منذ عام ١٨٨١ تشكلت مجموعات صغيرة من الهوفيني تسيون ("أحباء صهيون") الذين ربطوا اسمهم بحركة هيئات تسيون ("حب صهيون"). حاولت أول منظمة طلابية، البيلويم، التي أطلق عليها هذا الاسم، المكون من الحروف الأولى لمقولة من كتاب إشعيا: "يَا بَيْتَ يَعْقُوبَ، هَلَمْ فَنُسَلِّكَ فِي نَورِ الرَّبِّ" (إشعيا ٦٠: ١). (٥)، أن تحرك عملية الهجرة إلى إريتز يسرائيل (أرض إسرائيل). كانت النجاحات الأولى التي شهدتها "الإليا" أو "الصاعدون" الأولى إلى صهيون محدودة. غير أن الرغبة في "التحرر الذاتي" كما عبر عنها ليو (يهوذا ليب) بينسكر (١٨٢١-١٨٩١) ابن مدينة أوديسا في كتابه الذي يحمل نفس الاسم والذي نشر عام ١٨٨٢ أصبحت أقوى بين يهود شرق أوروبا. لقد أجبروا على التوصل لنتيجة مفادها أنه لا يمكن توقع التحرر "من الخارج" في المستقبل القريب وبدأ أن الأمر مهيئاً بشكل متزايد ولا يستحق الانتظار على أمل أن يُمنح المرء ما يريد، خاصة حين لم يكن المجتمع غير اليهودي نفسه متحرراً.

لعب بينسكر دوراً رئيسياً في حركة حييات تسيون (حب صهيون) التي قامت بتنظيم عدة مؤتمرات بدأت في كاتويس عام ١٨٨٤، غير أنها سرعان ما وجدت نفسها غارقة في المصاعب. فقد تعارك المشاركون الدينيون والعلمانيون وكانت الهجرة إلى فلسطين تتقدم ببطء شديد وسريعاً ما شهدت المستوطنات هناك أزمة خطيرة. فقد سافر أحد هأم ("واحد من الناس") في واقع الأمر أشير جينزبرج [١٨٥٦-١٩٢٧] المولود في سكفيرا بالقرب من كييف في الامبراطورية الروسية [الآن في أوكرانيا] إلى فلسطين وفيما بعد انتقد الاستعمار كيهج خاطيء. لم يكن من الممكن بناء الدولة في الوقت الحاضر. بدلاً من ذلك، تبني جينزبرج الرأي القائل بأنه من الأفضل التركيز على عدد من المستوطنات ومحاولة تحويل

فلسطين أولاً إلى مركز روحي يهودي تقوم منه نهضة للشعب اليهودي في الدياسبورا. مثل الكثيرين غيره من يهود شرق أوروبا شدد جينزبرج بشكل خاص على الاستقلالية الثقافية التي يتعين تجديدها. أصبح أحد هالم أحد مؤسسي "الصهيونية الثقافية" التي قدر لها أن تصبح بديلاً مميزاً "للصهيونية السياسية". بعد أن أدخل مارتن بوبر (١٨٧٨-١٩٦٥) وغيره من الشخصيات الهامة على الصهيونية الثقافية المزيد من التطورات، شددت الصهيونية الثقافية - فوق كل شيء - بالإشارة إلى جذور يهود شرق أوروبا - على "اليهودية" وربطت بين تدبر المرء لثقافته الخاصة واعترافه بالآخرين. لذا، نادى الصهيونية الثقافية بالتوصل إلى حل وسط مع العرب في فلسطين.

ربط ناثن بيرنباوم (١٨٦٤-١٩٣٧) من فيينا بين المنحيين الثقافي والسياسي. وقد ناشد - تحت تأثير تعرفه إلى الثقافة اليهودية شرق الأوروبية - اليهود بأن يعيشوا على الوعي الذاتي اليهودي الخاص بهم. منذ عام ١٨٨٥، قام بيرنباوم بنشر مجلة دورية بعنوان "تحرير الذات" ونحت مصطلح "الصهيونية" ليميز الحركة الجديدة عن غيرها من الجهود الوطنية اليهودية والخيرية المحضة، ولتحقيق هدف وحدة جديدة للشعب اليهودي. غير أن محاولته للجمع بين الميول المختلفة لم تتعد مجرد التحضير لاجتماع انعقد عام ١٨٩٤.

رغم أن هؤلاء أعدوا الساحة لاستقبال الأفكار الجديدة، فقد بدأت المحاولات لتشكيل حركة وطنية ترجع أصولها إلى أوروبا الشرقية في الفئور حين قام تيودور هيرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) - المنحدر من أسرة مندجة من بودابست وكان يعيش في فيينا - بإحداث طفرة بكتيبه (الدولة اليهودية، ١٨٩٦). جهلاً بالمؤلفات الصهيونية السابقة ودون طرح أية أفكار جديدة في الواقع، عثر هيرتزل على الوتر الذي يمكن من خلال الضرب عليه إقناع الكثير

من اليهود أن حل "المسألة اليهودية" قد تم التوصل إليه . في المؤتمر الصهيوني الأول ببازل، تم تأسيس المنظمة الصهيونية وتم التصديق على "برنامج بازل". نص هذا البرنامج على أن "الصهيونية تسعى لتخلق للشعب اليهودي في فلسطين وطنًا يحميه القانون العام". الآن، ظهرت الجمعيات الصهيونية في جميع أنحاء العالم، غم أن الصهيونية لم يكن يدعمها سوى أقلية من اليهود.

لم يكن من قبيل الصدفة أن المنظمة الصهيونية والبوند تم تأسيسهما في العام ذاته. فكلا التوجهين تأصل في ظل الأزمة التي واجهت فهم اليهودي لذاته في القرن التاسع عشر، وكلاهما توصل إلى نتائج جذرية بدافع الحاجة للتوصل إلى إجابات جديدة على تحديات العصر، ونبوعا من القناعة بأن هذا يمكنه أن يتحقق فقط من خلال المشاركة الفعالة في الجهود إما لتحسين الظروف أو للتوصل إلى حل . كانت إجابة كل من الاشتراكية والصهيونية أن المسيح لم يأت بعد، غير أن أزمة اليهود كانت تتطلب علاجًا سريعًا: كلاهما كان رد فعل على الاتجاه للعلمانية والتسامح والتحرر والليبرالية والوطنية والمعاداة للسامية والتوجه للصناعة والفقر وتغير نمط الحياة اليومية. كلاهما كان قائمًا على التقليد اليهودي وتضمن عناصر من المشيخانية غير أنهما أيضا أدخلتا شيئًا جديدًا تمامًا على التاريخ اليهودي.

جعلت نقطة الانطلاق المشتركة هذه - رغم كل الاختلافات فيما يتصل بالأهداف والوسائل - التعاون بين هذين البديلين، اللذين بقنان على طريقي النقيض حول قضايا معينة، ممكنًا. مكن من هذا أيضًا حقيقة أنه سريعًا ما ظهر صدع في الصهيونية بين يهود شرق أوروبا ويهود غرب أوروبا (ويست يودن وإيست يودن). في المؤتمر الأول، بدت الوحدة وكأنها ممنوحة لهم، حتى أن زعيم الجناح الديني في حركة هوفيفي تسيون (أحباء صهيون) وحاخام مدينة بيايستوك صامويل موهيليلور (١٨٢٤ - ١٨٩٩) بعث إليهم بكلمة للتحية

وإعلان الموافقة. لكن بينما كان للكثير من يهود شرق أوروبا تأثير على الصهيونية - وعلى رأسهم هيرتزيل - فقد اعتبروا أن العمل السياسي أولوية بما فيه المفاوضات الدبلوماسية وحياسة أراض، وإن حالهم الحظ حياسة دولة كاملة، لم يتعين أن تكون فلسطين. وفقا للقانون الدولي، كان لمعظم يهود شرق أوروبا في الحركة الجديدة أولويات أخرى مثل تقديم المساعدة السريعة للفقراء وهؤلاء الذين يهددهم خطر اتخاذ إجراءات فعلية ضدهم وفوق كل هذا الاستيطان في فلسطين؛ الأمر الذي من شأنه تهيئة الطريق لإقامة نظام اجتماعي عادل في المستقبل. يمكن العثور هنا على أصول الكيبوتس (تجمع سكاني تعاوني يضم جماعة من المزارعين أو العمال اليهود). اعتبر هذا جزءا أساسيا مكونا لعملية الإحياء الثقافي لليهود. كان من الممكن - بالنسبة لهم - أن يكون مركز هذه النهضة والمستوطنات فقط إيرتزل إسرائيل. غير أنهم في الوقت ذاته اعتبروا "العمل الحالي" في البلاد التي قطنوها ضروريا ويقصد بهذا تحسين وضع اليهود إلى أن يعترف بهم كأقلية قومية مستقلة. غالبا ما أدى هذا إلى نشوء الصراعات في المنظمة الصهيونية خاصة لأن الكثير من يهود شرق أوروبا نظروا بامتهان إلى الأوست يودن "المختلفين". لكن الحاجة المادية إلى اليهود كانت قد وصلت إلى الذروة في الشرق؛ مما جعل البعض يرغب في مد يد العون لهم وعلى أي حال لقد كانوا بحاجة إليهم، فرغم كل شيء عاشت أغلبية اليهود هناك. في نهاية الصراع الدائر حول "خطة أوغندا" ما بين عامي ١٩٠٣ و ١٩٠٥، كانت الغلبة للصهاينة الشرق أوروبيين. فقد أصروا على جعل فلسطين الميدان الأوحـد لنشاط الحركة الصهيونية. وقد اقترح المتحدث الرسمي باسم الجماعات الصهيونية الروسية ميناخيم أوسيشكين (١٨٦٣ - ١٩٤١) ضرورة الجمع بين المـيلين - "السياسي" و"العملي" - في صهيونية "مركبة". لقد أصبح هذا

الاتجاه- الذي مثله شايم وايزمان (١٨٧٤-١٩٥٢) منذ حكم
البينسك- الاتجاه السائد في الصهيونية.

كان موقف الجماعات الصهيونية الشرق أوروبية يهدف إلى
تحقيق أشكال عديدة من التعاون مع الجماعات الأخرى، خاصة
فيما يتعلق بالصهيونية الاشتراكية. منذ عام ١٩٠١، بدأت تشكل
في أوروبا الشرقية بوالوتسيون ("عمال صهيون")، ثم تأسس حزب
لها عام ١٩٠٦. كان أهم منظري هذه الحركة الماركسي بير
بوروهوف (١٨٨١-١٩١٧) الذي اشترك في جدل مع الاشتراكيين
اليهود غير المنتمين للجماعات الصهيونية الذين اعتبروا الصهيونية نوعا
من أنواع القومية البرجوازية، حتى أن اليهود عندما يكافحون من
أجل تحسين أحوالهم الاجتماعية في الدياسبورا احتاجوا إلى صهيون
كمقاطعة يمكن أن يدور فيها الصراع الطبقي دون أية عوائق. كان
من المتوقع أن تكون البروليتاريا العربية حليفا للعمال اليهود في هذا
الصدد. في فلسطين، تمتع ديفيد جرون المعروف باسم بن جوريون
(من بلونسكي، ١٨٨٦-١٩٧٣) بنفوذ كبير. ناضل بن جوريون
ضد النزعات الماركسية والمائلة للصراع الطبقي. كان الأكثر نشاطا
في هذا الصدد الجماعات الصهيونية والاشتراكيون المعتدلون تحت
زعامة ناخمان سيركين (١٨٦٨-١٩٢٤) الذين لم يكونوا ملتزمين
بفلسطين كغاية أخيرة. تأسس حزب العمال الاشتراكي اليهودي
متأثرا على نحو أقل بالماركسية والديمقراطية الاشتراكية ومتأثرا
بشكل أكبر بالثوريين الاشتراكيين الروس. لقد طالب بإيجاد حل
"للمسألة القومية" في الدياسبورا من خلال الاستقلالية بالأرض،
وأراد تجديد منظمات الإدارة الذاتية- من مجالس القهال وحتى
البرلمان اليهودي أو "سيم" - لهذا السبب كانوا يعرفون أيضا باسم
"السيميين". لقد مثل الصهيونيون الاشتراكيون بالتأكيد المنافسة
الهامة من أجل تحقيق البوند وكانت علاقات النفوذ الإقليمية غاية في

الاختلاف. غير انه كان هناك غالباً تعاون فيما يتعلق بالقضايا الأساسية التي كان هدفها تحسين وضع البروليتاريا اليهودية. شاركت الجماعات الصهيونية والاشتراكية في ثورة عام ١٩٠٥ ضد مقاومة اليهود الأرثوذكس التي لم تصمد في ظل الانغماس في السياسة. بينما ظهر إلى حيز الوجود نوع من المنظمات المظلية التي لها ميول مختلفة غالباً ليبرالية قاطعها الاتحاد اليهودي في شكل جمعية لتحقيق الحقوق المتساوية للشعب اليهودي في روسيا. في البداية ناضلت هذه الجمعية من أجل اكتساب حقوق الانتخاب لليهود. غير أنه بالتدريج ظهرت على الساحة المزيد من المطالب للاستقلال القومي وجمعية قومية من اليهود فقط. هذا كان يذكر بالفاد في بواكير الفترة الحديثة. رغم أن الجمعية كانت تؤيد الأهداف القومية للبولنديين، حمل الديموقراطيون الوطنيون البولنديون شعار: "البولنديون في خطر! اليهود قادمون!" بعد انتخاب أول برلمان امبراطوري (الدوما) في عام ١٩٠٦، البرلمان الروسي الجديد، حدث انشقاق داخل المنظمة.

تعاون الكثير من الأعضاء مع أحزاب سياسية، بما فيها أحزاب لم تكن يهودية على وجه الخصوص. رغم هذا، ازداد الوعي بأن لجميع اليهود مصالح سياسية مشتركة. تأثر الصهيونيون بشكل كبير بأفكار برنامج الجمعية التي كان أحد أنشط سياسيتها الشخصية التاريخية سايمون دينوف (١٨٦٠ - ١٩٤١) الذي قام بتأسيس حزب الشعب اليهودي عام ١٩٠٦. عبر هذا الحزب بشكل جلي عن مطلب تحقيق السيادة القومية والاعتراف باليهود كإقلية قومية في البلد التي يريدون العيش بها. بدءاً من التسعينيات في القرن التاسع عشر، مثل دوتنوف الرأي القائل بأن اليهود يمثلون أمة تاريخية ثقافية حتى في المنفى، وبالتالي يمكنهم المطالبة بحقوق شعب.

في الجمل، تمت التعبئة السياسية للكثير من اليهود - حتى وإن لم يشترك الكثير من الحسيديين في الانتخابات لأنهم لم يروها تتلاءم مع نمط حياتهم الديني التقليدي. كانت الحركة النشطة لتكون استجابة أكثر ملاءمة للظروف الاجتماعية الراهنة عن الحج التقليدي للناس من الشتيتل أو الأرض الخاضعة للانتداب. أبقى منصب سياسي استحدث عام ١٩١٢ على الصلة مع النواب اليهود في الدوما مما أثبت فاعليته بصورة كبيرة، بينما قام مكتب الاستعلامات التابع له بجمع وثائق حول وضع اليهود في الامبراطورية الروسية. أصبح هذا في غاية الأهمية في الحرب العالمية الأولى حين جرى هناك الكثير من أعمال الشغب ضد اليهود وانتشر مناخ معاد للسامية. كانت مثل هذه التقارير هي التي مكنت نواب الدوما من تقديم بيانات للسلطات أو لطرح الأسئلة على مجلس الوزراء من أجل الحصول على مساعدة جزئية على الأقل.

رغم أن الاشتراكية والقومية اليهودية والصهيونية تبدو معادية للدين للهولة الأولى، كان هناك أيضا عودة إلى الاستبطانية. لأنه مهما كانت الحاجة ماسة، يأتي المستقبل بأروع أشكال الخلاص. الجبن البادي لليهود الذين لا يظهرون رد فعل على حجر يلقي به فتى عابث لا يستمع إلى كلمات السباب هو في حقيقة الأمر كبرياء شخص يعلم أنه في يوم ما سيحالفه النصر وأنه لا يمكن أن يحدث له شيء إن لم تكن تلك إرادة الرب وأنه لا يمكن أن يكون هناك حماية أروع من إرادة الرب.^{٩٧}

يمكن أن يأخذ التدبر في الاستبطانية شكل التقوى الزاهدة المتقشفة أو الالتجاء للناسك إلى الحسيديّة. رغم ذلك في الوقت ذاته تنامت القوى التي كانت على وعي بالثقافة الشعبية اليهودية

^{٩٧} روث، يهود التيه، ص. ٣٠٨ بالكامل.

المميزة والعناصر التحريرية للحسيدة. تعالت نبرة الاقتحار "باليهودية" والتقاليد والقيم بشدة.

من بين هذه الاتجاهات المتباينة، ظهرت حركة جديدة- لم تدرس بعد من جميع مناحيها المتعددة- تدعو إلى قومية خاصة بيهود شرق أوروبا؛ طالبت هذه الحركة بالحكم الذاتي لليهود مما اثار حفيظة القوميين البولنديين والمحافظين الروس. امتدت يد النهضة إلى اللغة اليديشية. في عام ١٩٠٨، أقيم مؤتمر لغة مدينة تشيرنوفيتش؛ نظم هذا المؤتمر ناثان بيرنباوم الذي في الوقت ذاته أدار ظهره للصهيونية. عن وعي، اعتبر عدد كبير من الكتاب والدراميين والمؤرخين وعلماء الاجتماع والصحفيين ناهيك عن العمال وصغار التجار- ولو من منطلق وجهات نظر سياسية متباينة- أنهم أوست يودن (يهود شرق أوروبيين)، ووجدوا هويتهم في غمار التصنيع والتوجه للمدينة وأنماط الحياة الجديدة. ما كان ينكره أغلب اليهود في الغرب- أنهم كانوا أمة- شعريه في بولندا وروسيا عدد متزايد من اليهود وعبروا عنه بشكل واع أيضا.

رغم التدهور النسبي في العلاقات بين اليهود وغير اليهود، ورغم التوجهات المتزايدة المعادية للسامية والفصل القومي، رغم كل ذلك لم يكن حل المسألة اليهودية مستحيلا. قام الوعي المتزايد بتمتع اليهود- الذين لم يكونوا بالقطع موحدين على الصعيد السياسي حتى في أوقات الانتخابات- بقومية وثقافة مختلفتين بإحياء إمكانية تحقيق التعايش الاجتماعي بمعنى أنه يجب أن يخلو مفهوم التحرر من مبدأ الحكم الذاتي وأن يتضمن مبدأ الاندماج التام مع الأمة التي يعيش اليهود بين ظهرانيها. لأول مرة تمكن يهود شرق أوروبا من تصور طريقة تمكنهم من التعايش مع غيرهم من الأمم كأمة و"شخصية ثقافية" بحكم حقهم الشخصي وعلى قدم المساواة. من اليقيني أنه هذا الأمر كان أكثر قسوة على اليهود، غير أنه ربما يكون محبذا

بشكل أكبر في نهاية الأمر. بهذه الطريقة، كان من الممكن ظهور شكل جديد من أشكال وظيفة الوسيط إلى حيز الوجود. زاد المعاصرون من احتمالية الوساطة الثقافية بسبب تحدث أغلب اليهود لعدة لغات. لسوء الحظ لم يثبت إمكانية تحقيق هذا الحل على أرض الواقع.

الهجرة كمحاولة للعثور على وطن جديد كانت أعمال العنف والظلم، التي وقعت على اليهود منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر، القشة الأخيرة للكثير من اليهود الذين قرروا الآن أن يهاجروا. فقد شعروا بعدم الجدوى بسبب فقرهم المتزايد وأيضا عدم رضاهم عن تركيب المجتمع وردود الفعل على مشكلات العصر. أرادوا أن يتخلصوا من "قيود الجيتو" وأن ينووا حياة جديدة في مكان آخر. لذا عبرت الهجرة أيضا عن الكارثة العامة التي أثرت على كيفية نظرة اليهود لأنفسهم. بين التسعينيات من القرن التاسع عشر والحرب العالمية الأولى، رحل ما يربو على مليون يهودي عن الإمبراطورية الروسية. كان أغلب هؤلاء من الحرفيين المدقعين في الفقر والعمال المهرة والتجار والباعة الذين شعروا أنه بوسعهم الخروج سالمين من العاصفة. لم تتحقق أحلام المهاجرين على الدوام. لذا اضطر عدد لا بأس به بعد نهاية القرن - وفقا لعدد من التقديرات المختلف حولها بلغت نسبتهم ما بين ١٥ و ٢٠% - إلى العودة لأوطانهم القديمة. "عاد الكثيرون والآخرين لا زالوا في الطريق. ليس لدى يهودي شرق أوروبا وطن بأي مكان، بل قبور في كل المدافن".^{٩٨}

ارتحل المهاجرون إلى جميع أنحاء العالم. اختار البعض فلسطين لتحقيق الحلم الديني بالرجوع على الأقل ولو لمرة واحدة إلى أرض

^{٩٨} روث، يهود التيه، ص. ٢٩٨.

الآباء. اتبع الكثيرون الأفكار الصهيونية. علاوة على ذلك، اعتبرت الكثير من الدول في أوروبا وغيرها من القارات - على سبيل المثال في أمريكا اللاتينية - أنها مجرد محطة انتقالية حين جوبهوا بتدفق يهود شرق أوروبا إليهم. لم يكن الاستقبال بأي حال من الأحوال يتمتع بالحفاوة على الدوام. كانت غرابة نمط حياة يهود شرق أوروبا - ناهيك عنهم في ألمانيا وسويسرا وبريطانيا العظمى - توضح الأفكار السائدة عن اليهود القذرين الجشعين الذين كانوا "شياطين جنس" ومجرمين. في بريطانيا العظمى، ارتبطت هها الطريقة في التفكير بشكل أساسي بالوظائف الاجتماعية والاقتصادية للمهاجرين اليهود؛ بينما في ألمانيا عادت الثقافة التقليدية المتأصلة المعادية لليهود إلى الظهور. حتى اليهود المقيمون في هذه البلاد لفترات طويلة سابقة على هذه المهجرات لم يبدوا في البداية رد فعل متحمس لأنهم خشوا - ولهم في ذلك بعض الحق - أن يتم تعميم الصورة السلبية ليهود شرق أوروبا على جميع اليهود وهذا من شأنه تهديد وضعهم في هذه المجتمعات. لكن تدريجياً ساندت أغلبية اليهود الأوست يودن واستغرق هذا الأمر فترة امتدت إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. بشكل متزايد بدأ الاعتراف بالأوست يودن كجزء من المجتمع اليهودي عامة، جزء يحمل الثقافة والقيم الخاصة باليهود.

انجحه أكبر عدد من المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ما بين عامي ١٨٨١ و١٩١٤، هاجر ما يربو على مليوني يهودي إلى هناك، ولم يتوقف هذا التدفق بعد. لقد حولت الإبادة العرقية التي كانت تجابه اليهود محور الحياة اليهودية إلى الولايات المتحدة بصورة شبه كاملة. في عام ١٩٨٦ عاش ٤٤% من الشعب اليهودي بالعالم بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يمثل ٢.٤% من إجمالي السكان، مقابل ٢٧.٥% فقط من اليهود في إسرائيل. قابل اليهود المهاجرون من شرق أوروبا اليهود المقيمين من فترات طويلة

بهذه البلاد - ومعظمهم من أصول ألمانية إلى جانب عدد ضئيل من يهود السفارديم الذين أتوا إلى أمريكا الشمالية مع "الببيض" الأول. نظر كلا الفريقين بشيء من الاحتقار إلى اليهود الجدد - الذين كانوا كقاعدة عامة أدنى منهم بكثير من حيث الوضع الاجتماعي وكانت لهم تقاليد دينية وثقافية مغايرة. كانوا "أجانب" بالنسبة لهم. غير أن هذه الثقافة ذاتها هي التي منحت يهود شرق أوروبا الثقة بالنفس. لقد نظروا إلى اليهود الأمريكيين كمن هجروا "إلهودية" الحقبة. كان من الحتمي نشوب الصراعات. غير أنه سريعا ما بدأ يطغى على الاختلافات نوع من التضامن مع المعوزين في خضم الجهود المشتركة لإظهار اليهود بصورة إيجابية في المجتمع.

بعد العداء الذي جوبهوا به في أوروبا، تمكن يهود شرق أوروبا في الولايات المتحدة الأمريكية من تنفس الصعداء. لم يكن هناك في الحقيقة تفرقة أمام القانون، وتمكن معظم المهاجرين من الحصول على الجنسية الأمريكية بسرعة. حتى أنه لم يكن هناك عداء للسامية بصورة كبيرة، على الأقل ليس للوهلة الأولى، غير أن هذا العداء كان يظهر للعيان حين يبحث اليهودي مثلاً عن وظيفة أو يريد الانضمام إلى عضوية ناد راق. ربما خفف من وطأة هذا الأمر تنوع المذاهب الدينية وميل الكثير من البروتستانت إلى يهود العهد القديم؛ الأمر الذي تطور ليتخذ شكل "الصهيونية المسيحية" - التي تقوم على الاعتقاد بأن المسيح سيأتي بالخلاص حين يتحول عدد معين من اليهود إلى الديانة المسيحية أو على الأقل يعودون إلى إسرائيل. بعد الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر في روسيا، أصبحت المعاداة للسامية جهاراً لأن الحقد على والكراهية للرأسماليين اليهود اجتماعاً مع الخوف من الثوريين اليهود. ليس فقط الكوكلاكس كلان ولكن حتى ملك صناعة السيارات هنري فورد قام بتوزيع بروتوكولات حكام صهيون - وهو تقرير زائف عن سلسلة من الاجتماعات

لممثلين عن اليهود من جميع أرجاء العالم يُزعم انه أُقيم في بازل بسويسرا ناقشت خطة ليسود اليهود العالم. أدت هذه المعاداة للسامية من ضمن ما أدت إلى فرض قيود على هجرة اليهود إلى البلاد ما بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٤ ولم ترفع هذه القيود سوى بعد الحرب العالمية الثانية. لقد تم قصر الهجرة الآن على نسبة ثابتة من أعداد كل قومية مقيمة بالفعل في الولايات المتحدة. لم يُنظر إلى اليهود باعتبارهم قومية منفصلة لذا تم احتسابهم مواطنين للدولة التي اتوا منها. أثناء فترة النازي، عوّت هذه القوانين انقاذ الكثير من اليهود من بين برائن الاموت.

رغم كل هذه العوائق والمثالب، مكنت الظروف في الولايات المتحدة الأمريكية معظم يهود شرق أوروبا من ارتقاء السلم الاجتماعي. وجد الجيل الأول وظائف في صناعة النسيج وتجارة التجزئة برواتب منخفضة وظروف عمل بشعة. غالبا ما كان يهود الجيل الثاني قادرين على فتح مشاريعهم الخاصة الأكبر حجما أو الحصول على وظائف أفضل كموظفين برواتب ثابتة. في الثلاثينيات من القرن العشرين لم توظف سوى الأقليات كعمال أو موظفين برواتب ثابتة. يتضح التغيير الهائل الذي حدث منذ ذلك الوقت حين نعلم أن في نيويورك الآن نسب غير متكافئة من المحامين والقضاة وأطباء الأسنان والأطباء لهم أصول ترجع إلى يهود شرق أوروبا.

بالتوازي مع كل هذا، بدأ مجتمع اليهود المهاجرين المتاملين داخلهم في الانفتاح على الآخرين: على سبيل المثال ترك الكثير من الرحالة من الطبقات العليا الجانب الشرقي المتواضع بمنهاتن إلى المناطق الراقية في الضواحي. بيد أن تماسك جماعة اليهود شرق الأوروبيين كان مثيرا للدهشة. فرغم كل آمالهم، ظل العالم الجديد بيئة غريبة لمدة طويلة. شوليم ألشيم، على سبيل المثال، الذي توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٦ ثم توجه إليها مرة ثانية خلال الحرب العالمية

الأولى قدم وصفاً خالداً للصعاب التي تجابه عملية التأقلم هناك، كما كتب شالوم أش أيضاً عن هذا الأمر. من ثم، ليس من المدهش ان المهاجرين انضموا إلى لاندسمانشافتين (جمعيات الرعاية الاجتماعية والثقافية لمن هم من نفس المكان) وفيها يتلقى (الوافدون الجدد) تعليمات من جماعة/الجيلين الآتية من نفس المنطقة ومن خلالها يمكن الحفاظ على الاتصال بوطنهم الأم. أسهمت الجمعيات الإقليمية بهذه الطريقة في الحفاظ على الثقافة اليهودية شرق الأوروبية.

من المؤكد أن الكثير من المهاجرين أرادوا الهروب من سجن الجيتو والثورة ضد القوانين الدينية التي لم يعودوا يحدوها ملزمة والإطاحة بحكم الأوليغاركية من الجماعة الموسرة المتحاملة على الفقراء. تسبب الخوف من ضياع العقيدة ومتابعة التعليم الديني في الولايات المتحدة في أن يحذر الكثير من الحاخامات من الهجرة. في الفترة التي تزامنت مع الحرب، قدم حاخام مدينة مونكأكس (موكاشيفو) تشايم إيلعازر شيرا (شايرا، ١٨٧٢-١٩٣٧) والذي كان في ذاك الوقت المعارض الأكثر تصميمًا للصهيونية بين الحاخامات الحسيدية - وصفاً للبوابات الثلاثة للجحيم بأنها: "الافتقار إلى العقيدة بين الكثير من العناصر اليهودية الأوروبية، والعبودية المطلقة للمال في أمريكا، والصهيونية التي كانت تسود في أورشليم!" كانت أمريكا أضخم هذه المخاطر. في الواقع اختار الكثيرون سبيل الاندماج التام.

رغم ذلك، ظلت الغالبية متشبثين "بيهوديتهم". حتى مع تعاظم عدد كبير من يهود شرق أوروبا المهاجرين مع الاشتراكية ولاحقاً مع الصهيونية، فقد استمسكوا على الأقل ببعض عاداتهم التقليدية وكانوا في الغالب يتحدثون اللغة اليديشية كما ارتادوا المسارح والملاهي الليلية اليديشية وقرأوا الصحف اليديشية واستأجروا فرق الكليزميز في أفراحهم وأعياد البوريم وغيرها من الاحتفالات بما فيها

مهام الجمعيات الإقليمية. أعيدت ولادة الشتيتل اليهودي الشرق أوروبي في الكثير من مدن الولايات المتحدة الأمريكية.

بالطبع، برزت تناقضات في الصورة الذاتية الجديدة لليهود. ظهرت مشكلات التأقلم من خلال تفكك الكثير من الأسر - لم يكن من قبيل الصدفة أن تلعب اليديشية مام (الأم اليديشية) دورا ذا أهمية خاصة في التماسك والترابط الأسري. ظهرت هذه التناقضات أيضا في المعدلات المرتفعة نسبيا للجريمة - أي الدعارة والمقامرة والاحتيال والعصابات الإجرامية وحتى الاشتراك في المنظمات الإجرامية الشهيرة في العشرينيات من القرن العشرين بصفة عامة غير أن الجريمة العنيفة كانت أقل انتشارا بين اليهود.

على الصعيد السياسي كان غالبية المهاجرين من يهود شرق أوروبا يؤيدون البوند وغيره من الجماعات الاشتراكية. في عام ١٩٢٥، شكل اليهود حوالي ١٥% من أعضاء الحزب الشيوعي في أمريكا. كانت هذه هي الاستمرارية لما بدأ في أوروبا الشرقية. غير أن المزيد من اليهود كانوا ينجذبون إلى الصهيونية التي تبيح لذلك أصبحت منظمة يجب أخذها على محمل الجد. لم يكن العامل المحدد في هذا الصدد هو الرغبة في العودة إلى الأراضي المقدسة بل الرغبة في التضامن مع يهود فلسطين ومع هؤلاء الذين أرادوا أن يهاجروا إلى هناك من شرق أوروبا. كان يمثل هذا الاتجاه لويس د. برانديس (١٩٥٦-١٩٤١) الذي ينحدر من أسرة من بوهيميا وكان على صلة بالفرانكية. في عشية الحرب العالمية الأولى، تقلد برانديس زعامة الصهيونيين الأمريكيين. إلى جانب مساندته لاستعمار فلسطين، بذل برانديس جهودا - بالتضافر مع غالبية الجماعات الصهيونية في أمريكا - للمساعدة في تأسيس مراكز يهودية لثقافتهم الخاصة هناك أيضا. أكد برانديس على رفضه لإلقاء اللائمة على "انقسام ولاء" للصهيانية - ما بين الوطن الأم وإسرائيل. كان برانديس

متفقاً تماماً مع المثل الأمريكية التي تقول بالنضال من أجل حياة أفضل. في هذه المرحلة بالتأكيد كان من واجب اليهود الأمريكيين الانضمام إلى الحركة الصهيونية. في عام ١٩١٢، قامت الصهيونية هنريتا سولد (١٨٦٠ - ١٩٤٥) التي تنحدر من أسرة ذات أصول مجرية بتأسيس منظمة الهاداساه التي قدر لها أن تصبح أضخم منظمة يهودية للمرأة في العالم أجمع. إليها أيضاً يرجع فضل خلق نظام مثالي للرعاية الصحية في فلسطين واتخاذ الكثير من الأطفال والشباب في أوروبا أثناء فترة النازي.

لم تقف عادات وممارسات يهود شرق أوروبا وحتى مؤيدي الصهيونية من بينهم عائقاً أمام الاندماج مع المجتمع الأمريكي. في هذا كان اليهود متفقين مع نظرية "البوتقة" كما قدمها الصهيوني الإنجليزي ذي الأصول الشرق أوروبية إسرائيل زانجويل (١٨٦٤ - ١٩٢٦) في مسرحيته الصادرة عام ١٩١٤ التي تحمل الاسم نفسه. تقول هذه النظرية أنه خلال الهجرة تختلط القوميات منتجة صفات جديدة لهذا الخليط. لذا، حاول اليهود خلق عرق أمريكي جديد دون فقدان الكامل لخصوصياتهم الثقافية. ربما كانت الفكرة الأكثر ملاءمة هي التي وافق عليها أيضاً برانديس "التعددية الثقافية" التي سمحت بالاحتفاظ الكامل بالتقاليد وتطويرها بشكل أكبر.

أدت موجة الهجرة التي حفزتها محاولة النازيين إبادة اليهود إلى بعث الثقافة اليهودية شرق الأوروبية في الولايات المتحدة الأمريكية. الآن بعد أن وصل الكثير من الأرثوذكسين المتشدددين والجماعات الحسيدية إلى العالم الجديد، كان يحذوهم الأمل في أن يعيشوا على الأقل حياة دينية وفقاً لمبادئهم الخاصة. بينما كان المعبد اليهودي وغرفة الصلاة أماكن تجمع ذات أهمية بالغة بالفعل في الشتيتل الأمريكي، الآن أضيفت غيره من المؤسسات منها الحيدر واليشيفوت. لازالت هذه الجماعات نشطة للغاية حتى يومنا هذا

ومن أهمها اللوبا فيتشرز الذين تعود أصولهم إلى الحاخام شنوير زلمان وجماعته هاباد حاسيديم وتميزوا بالتقوى الصوفية. مرة أخرى كانت إمكانات التدبر الذاتي والتأمل جزءاً لا يتجزأ من المغالاة في الأرثوذكسية والحسيديّة الصوفية.

كانت هذه هي الحالة لأن الأزمة التي كانت تواجه المجتمع اليهودي الشرق أوروبى في الولايات المتحدة لا تخطئها العين. كان من أكثر الإشارات جلاء الارتفاع الهائل في نسبة الزواج المختلط. لم يعد معظم اليهود يصنفون أنفسهم حسب الديانة. من الواضح أن هذا لم يكن له أي دور في إيقاف عملية إحياء التقاليد والثقافة اليهودية وتحسين التعليم اليهودي وتشجيع اللغة اليديشية - يتضح أثر إسحاق سينجر في هذا الصدد - والبحث في الجذور التاريخية في أوروبا الشرقية وتوصيف الذات بأنها "يهودي غير متدين". في الوقت الحاضر، هذا الوضع قائم في كل مكان بين يهود الدياسبورا وحتى في إسرائيل.

مركز يهود شرق أوروبا:

جاليشيا وبوكوفينيا

في جاليشيا، إحدى أجزاء مملكة هابسبرج منذ تقسيمات بولندا، تشابهت الظروف معها في بولندا أو أوكرانيا مثلاً تشابهت مع الظروف في بوكوفينيا التي في عام ١٨٤٩ كانت بلداً ملكياً منفصلاً تابعاً لأسرة هابسبرج الحاكمة. عاش حوالي مليون يهودي في جاليشيا وعاش ١٠٠.٠٠٠ يهودي في بوكوفينيا قبل الحرب العالمية الأولى: وهو ما يعادل حوالي ١٠% من إجمالي السكان. كان الوضع القانوني هناك أفضل قليلاً منه في الإمبراطورية الروسية غير أن اليهود الشرق أوروبيين كان لازال عليهم تحمل عدد من القيود فيما يتعلق بأسلوب حياتهم التي كانت تهدف - على نهج إصلاحات جوزفين - إلى "جعلهم متحضرين". تبع ذلك منحهم المساواة القانونية عام

١٨٦٧. كانت الظروف الاقتصادية أسوأ منها - على سبيل المثال - في مملكة بولندا. فقد وصل معدل الفقر بين يهود جاليسيا إلى حدود لا يمكن تخيلها. كان من المجحف للغاية أن يحظى من يطلق عليهم اسم "تجار العبيد البيض" هنا بمهمة سهلة. قرابة نهاية القرن صدم العالم حالات مشينة تم استغلالها من قبل الدعاية المعادية للسامية. ارتحلت بيرثا بابنهايم (١٨٥٩ - ١٩٣٦) كثيرا في أرجاء جاليسيا نيابة عن منظمات يهودية من أجل دحض هذه الحملة الدعائية ولتحديد أصول المأساة. لم تر هذه الأصول فقط في الظروف الاجتماعية ولكن أيضا في المكانة المتدنية للمرأة في العالم اليهودي التي تبدى ضررها الآن على وجه الخصوص في ظل وهن سلطة الدين والثقافة التقليدية.

تشكلت بروليتاريا يهودية ذات علاقة باستخلاص الزيوت المعدنية في دروهوبيتش. عملت نسبة كبيرة من اليهود - ١٥ حوالي % عام ١٩٠٠ - في مجال الزراعة. نتيجة لتخفيف القيود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبح هناك المزيد من اليهود أصحاب الحانات ومؤجري ومديري العقارات. بيد أنه إلى جانب هذا التطور، تم إحياء النسق التقليدي للصراع مع عدد من العناصر الإضافية. كوسطاء بين المدينة والريف، وبين أصحاب العقارات والفلاحين، لم يصبح اليهود فقط أكثر انخراطا في الصراعات الاجتماعية والاقتصادية بل أصبحوا أيضا تحت تهديد الصراعات الدينية والقومية المتصاعدة بين البولنديين وأهل روسيا الحمراء والنمساويين الألمان والكاثوليك والارثوذكس الروس والكاثوليك الشرقيين.

حين اندلعت الاضطرابات في الريف عام ١٨٩٨ حاول بعض رجال السياسة الجاليسيين البولنديين تأجيج لهيب الاضطرابات بجملات دعائية معادية للسامية. لقد أقيمت محاكمات لليهود بتهم

القتل الطقسي في الثمانينات من القرن التاسع عشر وقد هيا الكونجرس الكاثوليكي عام ١٨٩٣ المناخ المناسب لهذا . كان من بين الكثير من أنواع التحيز الموعلة في القدم ومن أبرزها الاعتقاد بأن أصحاب الحانات اليهود كانوا يقومون بإغواء الفلاحين لشرب الكحوليات وأن المراهبين اليهود كانوا يدفعون بهم إلى الإفلاس، وأن المسئول عن كل هذا كانت الحكومة في فيينا التي كانت تعطي الأفضلية لليهود . بهذه الطريقة كانت الفكرة هي تشييت الاضطرابات المناهضة لحكومة أسرة هابسبرج الحاكمة - التي لم تكن حتى الآن قد أصبحت هدفا للتنفيث عن حقن الفلاحين مثلما أصبح أصحاب الأراضي البولنديون . كان يجب التضحية باليهود غير المحبوبين واستخدامهم كأدوات للتلاعب السياسي .

كان القسم الأعظم من اليهود في جاليشيا وبوكوفينيا من الحسيدين . جمع الكثير من الطوائف الصديقية أتباعهم حولهم . إلى جانب هذا، احتفظت الحاخامية أيضا بنفوذها . من ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حاولت جماعة إصلاحية الجمع بين هذه الفرق وبذلك وضعت الأساس للنضال المشترك ضد المسكليم . . تشكلت الحياة في الشتيتل في جميع مناحيها بواسطة الدين والتقاليد . بسبب التراث الأدبي الثري، ظل عالم يهود الشتيتل بجاليشيا على قيد الحياة .

على سبيل المثال لا الحصر، ليوبولد فون زاخر مازوخ (١٨٣٦-١٨٥٩) وهو ابن رئيس الشرطة الجاليشي بمدينة ليمبرج وكان من أوائل مكتشفي الطبيعة الجاليشية في الأدب وأول من وصف حياة الشعب اليهودي في جاليشيا في الكثير من الحكايات المثيرة التي ألفها . كارل إيميل فرانزوس (١٨٤٨-١٨٩٥) وهو ابن أحد العاملين الطببيين اليهود بالمنطقة تشورتكوف والذي تأثر به وكتب قصص رحلات عن جاليشيا وفوق كل هذا سعى بروح التنوير

لتصوير التقاليد اليهودية شرق الأوروبية وخاصة الحسيدية على أنها تقاليد "رجعية". في الواقع جاء أحد أعماله تحت اسم "من شبه آسيا". روايته الشهيرة "البوغاز" تناولت محاولة يهودي الهرب من عالم الشتيتل ولجؤه إلى الثقافة الألمانية على طريقة البيلدونجسرومان (الروايات التعليمية) الألمانية كما دافع عنها فرانتزوس. ألكسندر جراناش (١٨٩٠ - ١٩٤٥) الممثل الشهير ألف سيرته الذاتية (هناك سير رجل) على نسق هذه الرواية وأسهم في صناعة أسطورة "أبناء جاليشيا الشرقية". هينده بيرجر (١٨٧٠ - ١٩٤٢ ؟) تنحدر من أسرة مالكة للأراضي الروزنبلاتس في رادينو (رادوم) وأصبحت في عداد المفقودين منذ عام ١٩٤٢. كتبت مذكراتها (في لياي الشتاء الطويلة) كسجل للتاريخ العائلي رغم أنها تحمل سمات الأدب الراقي. شموئيل يوسف أغنون (١٨٨٨ - ١٩٧٠) نشأ ابناً لأحد الحاخامات في بوتشاتش كتب في البداية باللغة اليديشية ثم بالعبرية. إحدى أجمل رواياته (قصة بسيطة) تدور في شتيتل يهودي شرق أوروبي. في وقت لاحق أصبح نشطاً بالأصالة عن الجماعات الصهيونية وأخيراً هاجر إلى فلسطين/إسرائيل. في عام ١٩٦٦ فاز بجائزة نوبل للأدب عن روايته (ضيف لهذه الليلة عام ١٩٣٨) التي تصور زيارة لمسقط رأسه بوتشاتش. كان واحداً من أهم الكتاب العبريين بالقرن العشرين. برونو شولتز (١٨٩٢ - ١٩٤٢) كان ابناً لأحد تجار المنسوجات اليهود في دروهوبيتش (الآن في أوكرانيا). عمل كمدرس للتربية الفنية وعمل بالرسم وكتب قصص العبت الخيالي الصادمة لغويا على سبيل المثال رواية (محال القرفة، ١٩٣٤). قتل في الجيتو على يد النازيين عام ١٩٤٢. ينتمي شولتز لأعظم كتاب القصة في الأدب العالمي وغالباً ما تتم مقارنته بفرانز كافكا جوزيف روث (١٨٩٤ - ١٩٣٩) ولد في برودي وأحيا عالم أسرة هابسبرج الحاكمة وخاصة الحياة في جاليشيا في الكثير من

الروايات والقصص ومؤلفات الرحلات (تم الاستشهاد بعدد من الفقرات من أعماله في هذا الكتاب). صديقه سوما مورجنستيرن (١٨٩٦-١٩٧٦) ولد بالقرب من تارنبول كابن لقهرمان حسيدي (المسؤول عن تدبير القصر أو الاقطاعية) قدم بشكل قوي الحياة اليهودية في الريف إلى جانب اتجاهات سياسية وروحية ودينية متعددة في سيرته الذاتية (في وقت آخر) وفي ثلاثيته (شرارات في الهاوية). مانيس شيربر (١٩٠٥-١٩٨٤) المولود في مدينة زابلوتوف كان عالما نفسيا ونشطا صهيونيا ثم كشيوعي غير أنه خرج من حظيرة الشيوعية بتأثير من السالينية. دون حياته في مذكراته [كل ما قد مضى] الجزء الأول [حاملو مياه الرب] يخبرنا بالكثير عن الحياة في الشتيل- بينما يمكن أيضا إيجاد الكثير في ثلاثيته الروائية [كدمعة في المحيط]. روز أوسليندر المولودة في تشيرنوفيتش ابنة أحد التجار اليهود الذين يدعون الشيرترز نجت من مرحلة النازي تحت ظروف مميزة واشتهرت كشاعرة غنائية. كثيرا ما يشير شعرها المفعم بالحياة إلى المناظر الطبيعية في جاليشيا وإلى أهلها. بهذه الوسيلة، وجدت الكتابات التي تصف التعايش بين مختلف الشعوب طريقها إلى النشر.

تربة جاليشيا الشرقية تربة خصبة ثرية. بها الزيت الثخين والتبغ الأصفر والقمح الثقيل كالرصاص والغابات والأنهار والبحيرات العتيقة الحاملة وفوق كل هذا شعب جميل من الأصحاء: الأوكرانيين والبولنديين واليهود. ثلاثهم يرى بعضهم البعض بالطريقة ذاتها رغم أن لكل منهم عادات وممارسات مختلفة. الجاليشي الشرقي أخرق ودود وميال للكسل قليلا ويتسم كأرضه بالخصوبة. مسقط رأسي قرية تسمى فيرزبوتش بالبولندية وفيربوفيتش باليديشية وفيربفيتزي بالأوكرانية... في قرية فيربفيتزي عاش حوالي ١٥٠ أوكراني بينهم أربع أسر يهودية. جميعهم كانوا يكسبون رزقهم من العمل بالزراعة.

كان اليهود يملكون أيضاً بعض المحال الرثة الصغيرة وقد أجر أحدهم حانة القرية من السيد الإقطاعي . الفارق بين قرية فيربينيتشي وبلدة هورودينكا الصغيرة كان أعظم منه بين بلدة هورودينكا الصغيرة وأية عاصمة أوروبية . كانت هورودينكا تتصف بجميع سمات المدينة غير الآمنة الصاخبة القاسية بينما فيربيفيتشي كانت قرية مسالمة مستقرة... انقسم الجزء اليهودي من البلدة إلى قسمين بالطريق الرئيسية: الشوارع العليا والشوارع السفلى... كانت الشوارع العليا في البلدة يتم كسبها ورشها بالمياه ويقوم خادمو المجتمع على رعايتها بيد أنه لم يأت أحد لأمر الشوارع السفلى.... كانت الشوارع السفلى قذرة وتنبعث منها روائح كريهة وإن لم تقم الأمطار أو الجليد المتساقط بتنظيف القذارة أو تنقية الهواء كان أهل هذه الشوارع يحتنون ببساطة . كانت المنازل الخشبية الصغيرة قائمة مربوطة ببعضها البعض، كل منها ملاصق للآخر لأنه كان من الأرخص البناء ملاصقا لجدار الجار . كان المنزل يتكئ على المنزل المجاور مستمداً منه الدعم ويميل عليه مثل المخلوقات المريضة العاجزة الواهنة المتجمدة والخائفة من أن تترك وحيدة . في تلك المنازل الصغيرة عاش الفقراء والإسكافيون والخياطون والتجارون والسمكريون وصانعو البراميل والبنائون وصانعو الفراء والخبازون وجميع أنواع السائقين والحمالين - جميع العاملين بكد الذين كانوا يسعون طوال اليوم محاولين أن يكسبوا بعض الخبز أو خمسة كروزات كي يجد الأطفال الذين يملئون الغرفة عن آخرها شيئاً يأكلونه . كان الناس ينتظرون يوم الثلاثاء على وجه التحديد حين كان الفلاحون واليهود من ٤٨ قرية في المنطقة يأتون للسوق . كان الناس يكسبون رزقهم أيام الثلاثاء من

هذه الأسواق. ثم سمع صوت ارتطام وهرع الجميع في كل الاتجاهات^{٩٩} يلهثون ويتصبّبون عرقاً كما لو كانت نهاية العالم وشيكة. في الكثير من المعالجات الأدبية والمذكرات، كان هناك تأكيد على أن اليهود وغير اليهود - بالاشتراك مع غيرهم في مناطق استيطان اليهود الشرق أوروبيين - بصفة عامة عاشوا سوياً في سلام تجمعهم روح الجيرة. في الكثير من الحالات شكل اليهود حلقة وصل بين البلدة والريف وكانوا يقومون بالأمر التجارية للفلاحين ويجلبون لهم الأخبار والمستجدات الثقافية. حتى وإن ظل اليهود "غرباء" في كثير من المناحي وكانت لهم طريقتهم الخاصة في القيام بالأمر ولأن منظماتهم المستقلة شكلت مجتمعا منفصلاً، غير أنهم ظلوا جزءاً من القرية أو البلدة التي يعيشون بها، على الأقل بين جزء كبير من السكان. إلى هذا المدى كانوا أيضاً موضع ثقة. كان الناس يعلمون أنهم يمكنهم الاعتماد عليهم. على سبيل المثال، لاحظ شرطي نمساوي في جاليسيا أن الفلاحين من روسيا الحمراء كانوا يظهرون العداء لأي شيء من خارج القرية لا "يرتدي قفطان اليهودي ... فهو يثق به [اليهودي] أكثر من موظفي الإمبراطور وحتى أكثر من ثقته بالزبي الرسمي لرجل الشرطة."

مرة تلو الأخرى حرض هذا العالم - بظروفه المادية الصعبة وأحواله التي غالباً ما تثير الشعور بالتضييق وفرض القيود - على الانتفجار. كان لكل من آمال الخلاص المשיحانية والهسكالاة مراكز

^{٩٩} ألكسندر جراناخ، هاهو رجل يرحل. رواية حياة (ميونيخ، ١٩٩٠)، ص. ١، ١٥، ٦٧، ٧٠-٧١.

^{١٠٠} فريهير فيننير فون فينبرج، النمسا وجيشها (ليبزج، ١٨٤٧)، ص. ٨٢ بالكامل. في رأيي أن هذا الموقف يتسم به أيضاً فترة تلت هذا. أشكر ريتشارد ويدور على المرجع.

هنا واكتسبت الجماعات الإصلاحية اليهودية نفوذاً كبيراً، وبعد عام ١٨٦٧ ازدادت قوة حركة التنوير خاصة لأن نظام التعليم الجيد نسبياً وفر أساساً مؤيداً للتنوير. توحد بعض هؤلاء اليهود، دون التخلي التام عن هويتهم اليهودية، توحدوا مع الثقافة الألمانية وآخرون مع الثقافة البولندية بينما لم تر الجماعة الثالثة أن المستقبل في المناقشة بل في التأمل في "القومية اليهودية".

من أمثلة تغيير التوجه اليهودي الكاتب والنحات أفريد نوسيج (١٨٦٤ - ١٩٤٣) من مدينة ليفف (المبرج في أوكرانيا) إلى جانب مدينة كراكو وبرودي ومدينة تارنبول التي عدت مركز التنوير اليهودي ونقطة انطلاق لحركة نهضة الفن اليهودي. لقد سعى نوسيج في الأساس إلى التآلف مع المجتمع البولندي وفي بداية ثمانينات القرن التاسع عشر تجد بولندا كولادة جديدة لإسرائيل مكنت من استمرارية التعايش بين اليهود والبولنديين الذي يمثله على وجه الخصوص آدم ميكيفيتش تحت شعار المشيحية. مصاباً بحمية الأمل من تزايد الميول المعادية للسامية، تحول نوسيج بعدئذ إلى القومية اليهودية. عندئذ، حدد نوسيج هدفه بأنه تأسيس دولة يهودية في فلسطين وأصبح أحد أهم المنظرين للقومية اليهودية في جاليسيا. في بواكير عام ١٨٨٦، توصل نوسيج إلى الرأي القائل بأن الصراع بين اليهود وغير اليهود يمكن القضاء عليه فقط بإنهاء الدياسبورا وتمكن غالبية اليهود من تشكيل دولة متكاملة في وطنهم الأصلي. أثارت آراء نوسيج الأصولية الجدل حتى بين الجماعات الصهيونية. في عام ١٨٨٣ تم تأسيس أول منظمة يهودية قومية في ليفف وسرعان ما تبعها تأسيس منظمات أخرى. كان الرأي السائد يهدف إلى استقرار اليهود الفقراء و"المعرضون للخطر" كمزارعين مستعمرين في فلسطين وحماية الوجود اليهودي القومي في جاليسيا نفسها. لذا كان من المفترض أن يتطور المفهوم القومي في البلد الذي

يعيش به المرء . كانت هذه السمة تميز الطبيعة الخاصة للصهيونية في أوروبا الشرقية وكانت تتصل بتطور وعي ذاتي جديد وأرض مشتركة بين اليهود الشرق أوروبيين . في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧ ، قدم أبراهام زالتس (١٨٦٤ - ١٩٤١) من مدينة تارنوف والذي تم انتخابه أيضا ككثاني نائب رئيس ، تقريرا حول وضع اليهود في جاليشيا كما قام ماير إينبر (١٨٧٢ - ١٩٥٥) من تشيرنوفيتش بالمثل بالنسبة ليهود بوكوفينا . تحت السطح الهاديء ، كان هناك صراع يضطرم بين الصهيونيين اليهود الغربيين الذين وجه إليهم اللوم لإهمال العمل في الدياسبورا . ظهر هذا الصراع في وقت لاحق حين حاول هيرتزل إعاقاة أنشطة الاستعمار التي قام بها الجاليشيون في فلسطين ، لأن الجاليشيين أرادوا ضمانات سياسية "بمحقوق استيطانية" معينة . كانت هناك أيضا صراعات مع اليهود الأرثوذكس ومع اليهود المؤيدين للاندماج في جاليشيا الذين ساد بينهم التوجه الودي نحو البولنديين بشكل تدريجي . فقد خشوا من أن تشكل الأنشطة السياسية للصهاينة تهديدا لوضعهم - في الجماعات الدينية أيضا - وأن اليهود سيتم استدراجهم لينخرطوا أكثر في الصراع بين القوميات في جاليشيا .

في بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر ، تم تأسيس "الحزب الوطني اليهودي" لخلق إمكانية التصرف المستقل في جاليشيا . اعتبر القوميون اليهود - المتركون بشكل كبير في لفيف - الحركة الصهيونية في جاليشيا الأقوى من نوعها واعتقدوا أن الجماعات الصهيونية في فيينا لا يمثلونهم بشكل كاف . رغم ذلك ، لم يرد الفريق الأخير إحداث انقسام تنظيمي وفي عام ١٨٩٣ انضموا إلى "الحزب الوطني اليهودي العام للنمسا" الذي تشكل في كراكو . حظي هذا التنظيم المشترك بالنجاح طالما كان يدرك طموحات الجاليشيين . في عام ١٨٩٥ شكل هذا الحزب مجلسا في شكل "جمعية سياسية" لتنسيق

السياسة الإقليمية بشكل أفضل. توجهت جهود هذا الحزب إلى تحقيق الاستقلال القومي والحصول على منزلة قانونية متساوية كشعب وأمة في ذات الوقت مع الشعوب الأخرى في جاليسيا وعبر إمبراطورية هابسبرج.

كان للمقترحات الملموسة للتخفيف من وطأة الفقر وتحسين النشاط الاقتصادي وتحسين التعليم والثقافة أتباع كثيرون بين اليهود. كما أيدتها أيضا الطبقة العاملة. كانت جماعة بول زايون أكثر الجماعات نشاطا على الصعيد التنظيمي. في الانتخابات البرلمانية النمساوية لعام ١٩٠٠-١٩٠١ تمكن الصهيونيون من انتخاب ممثل لهم لأول مرة من الدائرة الانتخابية الجاليسية لمدينة برودي. في عام ١٩٠٧، في الانتخابات العامة المباشرة الأولى لمجلس النواب للرايشسرات، تم انتخاب ثلاثة عشر نائبا يهوديا: أربعة منهم كانوا سياسيين صهاينة من جاليسيا وبوكوفينيا قاموا بتشكيل "النادي اليهودي" وهو ظاهرة متفردة في أوروبا في ذلك الوقت. كان لا يمكن التغاضي عن الاعتراف بالقومية اليهودية والاستقلال القومي-واليدشية كلغة قومية- في المناقشات السياسية في إمبراطورية هابسبرج. في النهاية لم يتم التوصل إلى هذا الاعتراف فقد خشت الحكومة النمساوية من أن تضعف "الألمانية" إن تمكن السكان اليهود من تشكيل قومية منفصلة. رغم هذا، تم منح حق إعلان القومية اليهودية لبوكوفينا عام ١٩١٠.

في انتخابات عام ١٩١١ عانى الصهيونيون والقوميون اليهود من مرارة الهزيمة. يناح باللائمة في هذا الصدد على اليهود المندمجين والأرثوذكس الذين حاولوا بشتى الطرق الممكنة إعاقتهم. مع وضع هذا في الاعتبار، شكلوا تحالفات ليس فقط مع بعضهم البعض ولكن أيضا مع الأحزاب البولندية. يبين التحليل لنتائج الانتخابات أن التأييد للصهيونية بين اليهود كان لا يزال تأييدا واسعا. في الشتلات جُوبه

اليهود المندمجين والأرثوذكس بالرفض القوي من قبل السكان المتأثرين بالخامات أو الصدوقيون. حتى وإن كان هناك تأييد لاستعمار فلسطين فلم يتم سوى جماعة مزراحي الصهيونية بالتحرك لتحقيق هذا الهدف. في الوقت ذاته كثيرا ما قام هؤلاء الذين كانوا يبدأون في تحرير أنفسهم من الروابط التقليدية بانتخاب المرشحين الصهيونيين. من الأمور التي توضح قوة الجماعات الصهيونية ما ورد في تقرير من جاليشيا صادر عن المؤتمر الصهيوني العاشر في بازل في عام ١٩١١ من حديث عن ١٠٣ جمعية و١٣ منظمة شبابية بها حوالي ١٠٠.٠٠٠ عضو.

نظمت الحركة العمالية نفسها كقسم يهودي في الحزب الديمقراطي الاشتراكي البولندي. ثم في عام ١٩٠٥ في الحزب الديمقراطي الاشتراكي المستقل اليهودي في جاليشيا الذي عمل عن كثب مع البولند. كانت هناك أيضا تحالفات مع بول تسيون رغم المنافسة الداخلية بين صفوف اليهود. هدفت المطالب السياسية المشتركة إلى عدم نيل اليهود للاستقلالية بأراض بعينها داخل الدولة. لعبت جماعة كراكو "اليهود المستقلين" الذين رفضوا كلاً من الاندماج وأيديولوجيات الحزب وأيدوا الديمقراطية والمساواة في الحقوق دوراً هاماً بين الشعب اليهودي بجاليشيا. في انتخابات الرايشسرات عام ١٩٠٠ فاز مرشح "اليهود المستقلين" في مواجهة رئيس الجماعة اليهودية في كراكو وهو مؤيد للاندماج أيده المحافظون البولنديون.

|| نموذج إيجابي مليء بالتناقضات: الجحر

تقع الأحداث في الجحر في كثير من المناحي خارج إطار هذا الكتاب. المثير للعجب أنه في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن التاسع عشر طالب أقطاب المجتمع منح اليهود مكانة قانونية مساوية لغيرهم غير أن هذا المطلب قوبل بالرفض لمدة طويلة من قبل الحكومة المركزية لها بسبرج. رغم ذلك، كان من الممكن تحقيق بعض

التحسينات. في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، تم النكوص للوراء حين اشتبكت القومية المتصاعدة - التي كللت بثورة عام ١٨٤٨ - في صراع مع مصالح اليهود. في الرابع عشر من مارس من عام ١٨٤٨ جدد مجلس الشعب في بودابست الأمل في منح حقوق مساوية لليهود الذين شاركوا في النضال التحرري بأعداد كبيرة. بعد هذا بأيام قلائل، تعين سحب هذا القرار تحت وطأة ضغوط المظاهرات الشعبية التي قام بها بشكل رئيسي طبقة البرجوازية الصغيرة والحرفيون اليدويون الذين رأوا أن اليهود هم السبب في وضعهم المحفوف بالمخاطر. في أماكن كثيرة تعرض اليهود للسرقة والضرب وتم تدمير المعابد اليهودية. حتى بودابست لم تسلم من الأذى. رغم كل هذا، تقدم الكثير من اليهود للدفاع عن الجري في وجه تقدم النمساويين ونتيجة لذلك اضطروا لدفع جزاءات مالية ضخمة. رغم ذلك، منحهم البرلمان المجري حقوقاً مساوية لغيرهم من المواطنين في ٢٨ يوليو ١٨٤٩ قبل أن يتم حله.

في عام ١٨٦٧ قدم دستور المملكة المزدوجة للنمسا والمجر أخيراً حقوقاً متساوية لليهود. تبع هذا منح المساواة العقائدية لليهود في عام ١٨٩٥. غير أنه كان لا يزال هناك تمييز ضد اليهود في المجر وإن كان أقل وطأة فيها عن غيرها من الأماكن. توقع الناس اندماج اليهود: في هذه الحالة التحول إلى المجرية. أدى هذا إلى نوع من صراع الحضارات. في العموم كان اليهود الأرثوذكس - يهود شرق أوروبا والحاخامات المحافظون - غير راغبين في اتخاذ هذه الخطوة. كان لتعاليم حاتم سوفير وخلفائه، الذين رفضوا أي نوع من البدع ومن وجهة نظر أرثوذكسية مغالية اعتبروا اليهود أمة، تأثير هائل في هذا الصدد. أدى هذا إلى صراعات عنيفة مع الجناح الإصلاح الليبرالي.

بعد مؤتمر نواب المجتمعات اليهودية الذي أقيم في نهاية ١٨٦٨ وبداية ١٨٦٩ التي نال فيها الإصلاحيون غالبية الأصوات، انقسم اليهود إلى

جماعات منفصلة: "النيولوجي" المؤيدة للإصلاح وهي أكبر الجماعات، والأرثوذكس و"حزب ما قبل الوضع الراهن" الذي أراد الحفاظ على أوضاع الأمور كما كانت قبل قيام مملكة بولندا. في المجر من المؤكد أنه كانت هناك نزعات معادية لليهود. على السطح ظهرت هذه النزعات في تشكيل جماعات معادية للسامية منذ أربعينيات القرن التاسع عشر وفي فضيحة "تهمة القتل الطقسي" التي وجهت إلى تيزالينزلار عامي ١٨٨٢-١٨٨٣. في المجل، حتى قيام الحرب العالمية الأولى كانت سياسات حكومة البلاد ودودة إلى حد ما تجاه اليهود. لكن كيف نشأ هذا الوضع الاستثنائي؟

لقد كان السكان اليهود في المجر يتزايدون بشكل سريع للغاية. كانت نسبتهم لإجمالي السكان حوالي ١% (٨٠.٠٠٠ نسمة) في عهد جوزيف الثاني غير أنهم بحلول الحرب العالمية الأولى أصبحوا يمثلون ٥% من إجمالي السكان (٩٠.٠٠٠ نسمة). في أوائل القرن الثامن عشر كان معظم الوافدين من المهاجرين اليهود - ثلثا اليهود الذين يعيشون في المجر في ذلك الوقت - كانوا من مورافيا بشكل أساسي ثم من بولندا. منذ نهاية القرن الثامن عشر، ساد المهاجرون من جالشييا الذين ساندوا أيضا الجماعات اليهودية في جبال الكاربات. قدمت طبقة النبلاء العليا الدعم لاستيطانهم. تمتع الكثيرون منهم بالرخاء خاصة إذا كانوا لديهم بالفعل إمكانات مادية كافية وقد كان هذا غالبا الحال مع اليهود القادمين من مورافيا. كان يقال بشيء من المبالغة:

يهاجر اليهودي إلى مارماروز. هناك لازال يعمل كمتسول وعامل بالأجر ومدير حانة. يتوجه ابنه على بعد مقاطعتين إلى الغرب ويصبح صاحب مصنع وتاجر أو مؤجر على نطاق واسع. وإن توغل مقاطعة أو اثنتين أكثر في البلد، يصبح بالفعل مالكا كبيرا للأراضي ويمتلك قلعة. في بودابست يكون هدفه أن يكون من طبقة

النبلاء ومقعد بالبرلمان وحياسة رتبة البارونيت. وحين يجمع عدة ملايين ينتقل إلى فيينا.

تقدم هذه الفقرة بطرق كثيرة ملخصاً نموذجياً للتطورات التي شهدتها اليهود. اليهود المهاجرون - وليس أقل منهم اليهود الشرق الأوروبيين من جاليسيا - اضطلعوا بمهام كانوا بالفعل يقومون بها في بولندا وجزئياً في بوهيميا ومورافيا. بهذه الطريقة تعايشوا عن كثب مع الطبقة العليا للنبلاء التي ظلت موجودة في المجر بينما اندثرت في بولندا. أرادت طبقة النبلاء المجرية النزاعة الليبرالية بسبب معارضتها للحكم المطلق لأسرة هابسبورج أن تلعب دوراً نشطاً في الاقتصاد المالي وإدخال الزراعة الحديثة إلى البلاد. وكان بوسع اليهود المحنكين مساعدتهم في هذا الصدد. أصبح اليهود مرة أخرى مؤجرين ومديرين وأصحاب حانات. غالباً ما شكّلوا إلى جانب النبلاء جزءاً من النظام الاقتصادي انتمى إليه أيضاً تجار الجملة اليهود والصيارفة اليهود، في مدينة بيست أو حتى في فيينا أو فرانكفورت. كان اليهود الذين يصيهم الثراء يتجهون بعد ذلك إلى المدن - كما ذكرنا آنفاً - وخاصة إلى بودابست. في عام ١٩١٠ شكّل اليهود ٢٥% من السكان (وفي المناطق التجارية بوسط المدينة شكّلوا ما يزيد عن ٣٥%). هنا ظهرت نخبة برجوازية مالية مستقلة عن الطبقة العليا للنبلاء غير أنها لازالت مرتبطة بصلة وثيقة بها اقتصادياً. على النقيض من بولندا، بقي هذا التحالف بشكل أو بآخر في المجر حتى

^{١٠١} كارولي إيوتفيس، محامي الدفاع في محاكمة تيسزاييسلر. كما ورد على لسان والتر بيتش: الهجرة اليهودية من جاليسيا ويهود المجر"، في اليهود في شرق ووسط أوروبا، ص. ٢٧١ - ٢٩٣، هنا ص. ٢٨١ بالكامل. أشكر والتر بيتش أيضاً على مصادر أخرى تقوم على بحثه الجاري.

قيام الحرب العالمية الأولى. يمكن للمرء التحدث عن "عقد اندماج" صحيح (كما قال فيكتور كارادي): كان أغلبية اليهود المجرين مستعدين للتحويل إلى الهنغارية ووضع إمكاناتهم في خدمة تطور المجتمع ككل. في المقابل، تم الاعتراف بحقوقهم المتساوية واندماجهم مع المجتمع الهنغاري ولم يلق أصحاب السلطة حوله بالشكوك. باستحضار يهود الخزر إلى الأذهان، كان من الممكن إعادة كتابة تاريخ يهودي-هنغاري عادي. لاقت الجماعات الصهيونية هذا "العقد" بالقبول غير أنهم طالبوا بالولاء والمساندة لليهود المعرضين للخطر في البلاد الأخرى. من ثم، أثاروا ردود فعل عنيفة من جانب الكثير من اليهود المندمجين الذين رأوا أن وضعهم في المجتمع الهنغاري يكتنفه الخطر.^{١٠٢}

لم يكن "عقد الاندماج" خالياً تماماً من المنازعات. على سبيل المثال، كان النبلاء الفارقون في الديون مناهضين له. كان الخصوم الرئيسيون لليهود هم الألمان من أهالي المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي - الذين لم يكن لهم أية أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع ككل - وعلى رأس خصومهم أيضاً نجده الفلاحين كما هو الحال في بولندا وروسيا. نتيجة لهذه الصراعات الاجتماعية، بدأ الاستياء من اليهود وتبعه في وقت لاحق مشاعر المعاداة للسامية. من العلامات الواضحة على هذا قيام ثورة الفلاحين في المنطقة الشرقية عام ١٨٣١ والتي كانت موجهة بصفة أساسية ضد السادة الإقطاعيين ويهود القرى.

كان كره اليهود المقيمين بالبلاد منذ أمد تجاه اليهود المهاجرين الوافدين إليهم حديثاً عاملاً هاماً في تنامي نزعات معاداة السامية التي ظهرت أخيراً من خلال الانقسام الديني المذكور آنفاً. رفض

^{١٠٢} للمزيد من التفاصيل، ارجع إلى بيتر هابر، بداية الصهيونية في المجر (١٨٧٩-١٩٠٤) (كولونيا-فايمر-فيينا، ٢٠٠١).

اليهود المندمجون الإصلاحيون اليهود الأرثوذكس أو اليهود الشرق أوروبيين من الحسيدين (الأوستيودن) لأنهم أشعلوا لهيب الصراع فيما يتعلق بمكائهم في المجتمع. كلما توافد المزيد من اليهود - خاصة أوست يودن- إلى بودابست، كان يتأكد الانطباع - الخاطيء- بأن حشود من اليهود "الأجانب" كانوا يتوافدون إلى البلاد. من هنا جاء مفهوم "اليهودي الصالح المندمج" و"اليهودي السيء الجاليسي" الذي شكل بعد الحرب العالمية الأولى الأساس الذي قامت عليه المعاداة السافرة للسامية. لم يعد بالإمكان تصحيح هذا الانطباع على يد الطبقة اليهودية العليا لأنهم بأنفسهم ذات مرة أعلنوا هذا التمييز.

مواقف متباينة تجاه تحرير اليهود في رومانيا و صربيا وبلغاريا عاش حوالي ٣٠.٠٠٠ يهودي في رومانيا في بداية القرن العشرين وهو ما يعادل حوالي ٤% من إجمالي تعداد السكان. إبان القرن التاسع عشر شهدت نسبة اليهود الشرق أوروبيين ارتفاعا ملحوظا لأن الكثير من اللاجئين من الامبراطورية الروسية وجاليشيا هاجروا إلى البلاد لرغبتهم في الهرب من الخدمة العسكرية والهروب من الجور المتزايد الذي تعرضوا له. استقر معظمهم في مولدافيا. في بوخارست شكل اليهود حوالي ١٥% من إجمالي السكان قرابة نهاية القرن، وفي إياسبي ما يربو على ٤٠%. اعتبرت الدوائر الحاكمة المهاجرين إلى البلاد "أجانب" ونقلت هذا المفهوم إلى جميع اليهود الذين يعيشون في رومانيا.

اضطرت تركيا- التي كانت رومانيا في البداية تحت سيادتها الرسمية في القرن التاسع عشر- إلى قبول التأثير السياسي للامبراطورية القيصريّة لخمس سنوات أخرى بموجب اتفاقية أدرنة للسلام المبرمة عام ١٨٢٩. بهذه الطريقة خضعت رومانيا لدستور فرض عليها فرضا في ١٨٣٢. أنكرت رومانيا على اليهود حقوقهم

السياسية وحظرت عليهم تأجير أرض الاستيطان وسمحت بالتطبيع فقط مع المسيحيين. ظلت هذه القيود القانونية سارية حتى عند إلغاء الدستور عام ١٨٤٨. في الستينيات من القرن التاسع عشر وصلت المناقشات حول "المسألة اليهودية" إلى ذروتها. في ١٨٦٢ اتحدت مولدافيا وواليشيا كإمارة تحت لواء رومانيا. في ١٨٦٦ كارل فون هوهين تسوليرن سيجمارينجين أصبح خليفة لأول أمير الكندرو كوزا عند تنازله عن الإمارة. أثناء المناقشات الدستورية التي أعقبت هذا قام بعض السياسيين بإثارة الحشود في بوخارست إلى حد وضع البرلمان تحت الحصار. قدم النواب المذعورون وعودا بالآلا يحظى اليهود بالمساواة في الحقوق. رغم ذلك قامت الحشود بتدمير المعبد اليهودي في بوخارست بالكامل وأذاوا اليهود العابرين في الطرق. تدخل عدد من البلاد الأجنبية، بداية من مملكة النمسا-الجر، تدخلوا من أجل "يهودهم الواقعين تحت الحماية" الذين يعيشون في رومانيا. غير أن الأمور تطورت إلى الأسوأ. اتخذت الحكومة الليبرالية الإجراءات اللازمة لإخراج اليهود من القرى - ومرة أخرى بصفة أساسية من التجارة المرخص بها - ومن لم يف بأدنى المؤهلات الملكية المطلوبة يجب أن يرحل عن المدن (ومن ثم عن رومانيا) "كمتشرد". كانت هناك مشاهد مأساوية على الحدود، بعضها انتهى نهايات دامية.

تحول كونجرس برلين في ١٨٧٨ إلى قضية هامة في النقاش الدائر بخصوص منح اليهود حقوقا مساوية. في الحرب الروسية-التركية عام ١٨٧٧ حصلت رومانيا على استقلالها الكامل من الامبراطورية العثمانية. كان من الأسباب الهامة لذلك الانطباع الذي تركه ممثلو التحالف الاسرائيلي - منظمة في باريس كانت تقدم الدعم لإخوانهم في الديانة المعرضين للظلم. أعلنت القوى الأوروبية العظمى أنهم لن يستطيعوا الاعتراف بالاستقلال الروماني إلا إذا منح اليهود حقوقا

مساوية لغيرهم. حتى روسيا بعد قليل من التردد أيدت هذا الموقف. في خلفية كل هذا كان هناك الأمل في أن تستطيع المساواة الدينية العامة محو بقعة الاضطراب هذه من البلقان. دون هذا المطلب في المادة ٤٤ من اتفاقية برلين.

لم يصف خضوع الحكومة الرومانية للضغوط المحيطة إلى اليهود غير المحبوبين بالفعل شعبية أكثر. فيما يتعلق بتطبيق بنود الاتفاقية، استطاعت السلطات الرومانية الحصول على امتيازات وتاجيلات من القوى العظمى إلى أن أصبحت المطالب تنادي بأن يتم التطبيع مع اليهود ولو على أسس فردية. كان يتم التعامل مع كل تطبيق للتطبيع من خلال لجنة برلمانية خاصة. نتيجة لذلك، توصلت حالات قليلة نسبيا إلى نتائج إيجابية. لم تعد القوى العظمى مهتمة أو كانت هي نفسها - على سبيل المثال ألمانيا والاتحاد النمساوي المجري - تسودها الميول المعادية للسامية. كان خط السكة الحديد الذي سيشق رومانيا أكثر أهمية لدى الحكومة الألمانية من مسألة حقوق اليهود.

لذا ظلت رومانيا إلى جانب روسيا، الدولة الأوروبية الوحيدة التي لم تمنح اليهود المساواة في الأوضاع القانونية. نصت قوانين خاصة على منع اليهود من الاشتغال بتجارة التبغ - وهي تجارة تحتكرها الدولة - ومنعهم من إدارة الحانات ومد السكك الحديد القومية أو من الاشتغال بأي تجارة جائلة. لم يسمح لليهود بالالتحاق بالمدارس الثانوية سوى حين لا يكون هناك طلبات التحاق كافية من غير اليهود. لم يسمح لليهود بتملك الأراضي. في عام ١٩٠٢ صدر قرار ينص على أن المواطنين الرومانيين فقط يمكن قبولهم في نقابات العاملين بالحرف اليدوية. بهذه الطريقة انضم الكثير من اليهود إلى صفوف العاطلين. واضطرت أعداد كبيرة منهم إلى الهجرة من البلاد.

بدءاً من عام ١٨٧٦، فرض على اليهود الالتحاق بالخدمة العسكرية رغم أنه لم يسمح لهم بأن يصبحوا ضباط. لم يقدم هذا شيئاً يذكر لتحسين مشاعرهم الوطنية التي كانت موجودة على وجه اليقين. في نهاية عام ١٨٩٥ تم تأسيس تحالف معادي للسامية في بوخارست. انضم الكثير من أصحاب المكنات المرموقة في الحياة العامة إلى هذا التحالف بما فيهم أعضاء في الحكومة. كان هدف هذا التحالف - الذي حاول الحفاظ على السرية القصوى - إجبار اليهود على ترك الحياة الاقتصادية والإسراع بهجرتهم من البلاد. استغل مثيرو الاضطرابات التحيزات الدينية لأقصى حد. كان التحالف مسؤولاً عن عدد من أعمال العنف ضد اليهود.

كان باديا للعيان استحالة اندماج اليهود في مثل هذه الظروف. عاش غالبية اليهود في نفس المناطق وتحدثوا اللغة اليديشية. كمشطاء سياسيين مال معظم اليهود إلى اليسار. من أجل كسب أصوات الناخبين حاول بعض زعماء الحزب الديمقراطي الاشتراكي في البداية بناء منظمات "خالية من اليهود". غير أنهم رغم ذلك منوا بالهزيمة وبعد رحيلهم كانت أبواب الحزب مفتوحة على مصراعيها أمام انضمام اليهود مرة أخرى.

في ١٩٠٧ اندلعت ثورة كبرى للفلاحين والتي قامت الاضطرابات المتعلقة بها في أماكن موجهة ضد اليهود كسبب مزعوم للفقر. تعرض الكثير من اليهود للسرقة وسوء المعاملة. بينما استمرت القلاقل، تحول الفلاحون مباشرة ضد كبار الإقطاعيين. ربما كان من العوامل التي أدت إلى هذا حقيقة أن الاشتراكيين - الذي كان بين ظهرانيهم الكثير من اليهود - حاولوا شجب الفقر الذي يعاني منه الفلاحون وفي الوقت ذاته التخفيف من وطأة العداء التي وجهوها لليهود. نتيجة لذلك وبعد الفشل الدامي لهذه الثورة، أشارت أصابع الاتهام إلى الاشتراكيين اليهود كمسؤولين عن إثارة القلاقل وتم إبعادهم عن

البلاد . مرة أخرى أثبتت المعاداة للسامية أنها أداة سهلة للغاية للتلاعب في أي اتجاه .

تطورت الأمور على نحو مختلف في صربيا وبلغاريا . صربيا التي قطنها حوالي ٥٠.٠٠٠ يهودي في منتصف القرن التاسع عشر التزمت بنود معاهدة برلين ومنحت اليهود حقوقاً مساوية لغيرهم . ثار هناك خلاف شائق في كونجرس برلين بهذا الشأن . أعرب وزير خارجية القيصر جورشاكوف عن رأيه أن "يهود برلين وباريس ولندن وفيينا - الذين لا يمكن حرمانهم من الحقوق المدنية والسياسية - لا يجب مقارنتهم بيهود صربيا ورومانيا وبعض المقاطعات الروسية التي تشكل بلاء حقيقي للسكان الأصليين للبلاد . " رد بيسمارك قائلاً: "إن هذا الوضع الحزن لليهود ربما يمكن إرجاعه إلى تقييد حقوقهم السياسية والمدنية" رداً على هذا أعلن جورشاكوف "إن الحكومة الروسية لتحمي مصالح الشعب ليس بوسعها سوى أن تخضع يهود بعض المقاطعات لقوانين خاصة . " أخيراً تم التصديق على وجهة النظر التي تقدم بها وزير الخارجية الفرنسي - وادينجتون - ومفادها أن "صربيا - التي كانت تسعى للانضمام إلى أسرة الدول الأوروبية يجب أن تقرر قبول المبادئ التي تشكل في كل الدول الأوروبية أساس التنظيم الاجتماعي".^{١٠٣}

كان الوضع في بلغاريا مماثلاً . هنا أيضاً حظى حوالي ١٠٠.٠٠٠ يهودي بالمساواة في الحقوق التي يكفلها القانون الدولي لعام ١٨٧٠ . كان عددهم في ازدياد حتى نهاية القرن ويرجع هذا إلى التوسع في الأراضي الخاضعة للبلاد عام ١٨٨٥ فارتفع عددهم إلى حوالي ٣٠.٠٠٠ نسمة أي حوالي ١% من السكان . أقام حوالي ثلث هذا

^{١٠٣} سيمون ديبينو، قصة العالم عن اليهود . من البدايات المبكرة حتى يومنا هذا (برلين، ١٩٢٨)، الجزء التاسع، ص. ٤٢٥، ٤٩١ .

العدد في العاصمة صوفيا . ربما كان جديراً بالذكر أن في ذلك الوقت استقر اليهود السفاردة بشكل رئيسي هناك وكانوا يتحدثون اللاتينو أو الإسبانية اليهودية . كان التوجه للاندماج ضعيفاً إلى حد ما بينما استطاعت الجماعات الصهيونية بسرعة التوسع في تأثيرها بعد نهاية القرن . رغم قيام بعض أعمال العنف المناهضة لليهود ، لم تكن نبرة المعاداة للسامية سافرة كما هو الحال في أماكن أخرى . ربما كان من أسباب ذلك هو أن شخص "العدو" كان يتجسد بشكل لا يكتفه الغموض في الأتراك .

"القتل الطقسي" : حالة بوهيميا ومورافيا

حدث الاندماج بشكل سريع للغاية في بوهيميا ومورافيا . قرابة نهاية القرن عاش حوالي ١٥٠.٠٠٠ يهودي في بوهيميا ومورافيا وهو ما يوازي حوالي ١.٥% من السكان . في براغ - إضافة إلى الضواحي الداخلية - شكلوا حوالي ٨% من السكان (٢٧.٠٠٠ نسمة) . في القرن الثامن عشر كان اليهود هنا وسطاء بين الريف والمدينة في تعايشٍ سلمي مع طبقة النبلاء . أدى تشريع جوزفين المتسامح ظاهرياً وما ترتب عليه إلى الإضرار بيهود الريف . لم يستطع اليهود - الذين كانوا مقيدون بالفعل بقانون "تحديد الأسرة" - بأية طريقة أن يستقروا حيثما يتخيرون . في براغ ، مركز البلاد ، وفي مدن أخرى اضطروا للعيش في مناطق محددة . لم يسمح سوى لعدد قليل - ممن يتمتعون بالثراء الفاحش - بالانتقال للعيش في الشوارع "المسيحية" . في عام ١٨٤٩ منحت دولة هابسبرج أخيراً لليهود حرية الحركة وألغت قانون الزواج . في عام ١٨٥٢ انهارت حواجز الجيتو في براغ . في عام ١٨٦٧ تم منح اليهود المساواة القانونية الكاملة بحكم القانون . في هذا الوقت انتهى عدد قليل من اليهود خاصة في بوهيميا ولكن أيضاً في بعض المدن بمورافيا خاصة برون إلى الطبقة العليا . كان هذا نتاجاً للتوجه السريع للتصنيع بدءاً من ثلاثينيات القرن التاسع

عشر الذي جرى في بوهيميا بشكل أسرع منه في أي مكان آخر بأوروبا الشرقية. ارتقت بوهيميا لتصبح المركز الصناعي لإمبراطورية هابسبرج. لعب أصحاب الأعمال من اليهود الذين تركزوا في براغ دوراً استثنائياً في هذا التطور. جعل هذا من الاندماج مع الطبقة البرجوازية الألمانية-النمساوية أسراً.

بهذه الطريقة دخلوا منطقة صراع صادفناها من قبل بمظهر مغاير. تشكل هذا الصراع ودار بصفة رئيسية في المدن بينما في الريف- ونتيجة للظروف الاقتصادية الاجتماعية المواتية هناك- لم تتطور بالكاد معاداة السامية السافرة. كان الكثير من التشيك يخلطون بين اليهود والألمان وهم الطبقة الحاكمة التي تقف في طريق التحرر القومي وأيضاً بينهم وبين الرأسماليين المستغلين للبروليتاريا التشيكية. أضيف الآن الصراع الاجتماعي الناجم عن التصنيع إلى قائمة التحيزات المعادية لليهود إلى جانب الصراع القومي. أهم من كل هذا أصبحت المناطق الحضرية تربة خصبة للقومية ومعاداة السامية طالما عاش العمال الريفيون ذوو التعليم المتواضع المفتقرون للأمن إلى جانب أصحاب الحرف اليدوية والتجار الذين شعروا أن هناك خطر يهدد رزقهم.

بشكل مستمر اندلعت الاضطرابات ضد اليهود في براغ وأجزاء أخرى من بوهيميا ومورافيا. استغلت الأحزاب الوطنية هذا المناخ بشكل متزايد كي يجذبوا أتباعاً لهم يمنحونهم أصواتهم في الانتخابات. انطبق هذا أيضاً على حزب الشباب التشيك كما انطبق على الحزب الاشتراكي الوطني الذي (رغم عناصره المعادية للسامية يجب ألا يتم الخلط بينه وبين الحزب الألماني الحالي الذي يحمل الاسم نفسه) وكذلك النوادي والجمعيات الوطنية الألمانية. كما كان الحال في بولندا تم تنظيم مقاطعات اقتصادية لليهود تحت شعار "كل يُترك وشأنه."

وصلت التورات إلى أوجها قبيل نهاية القرن. في ١٨٧٩ اضطرت الإمبراطورية الألمانية إلى تقديم استقالته بعد إخفاق خطة الحكومة لرفع اللغة التشيكية إلى مرتبة اللغة الإدارية في بوهيميا ومورافيا بسبب المقاومة القومية الألمانية. ظهرت خيبة أمل التشيك في نهاية نفس العام في حادث تافه حفز اعتداءات على المؤسسات ومقار الأعمال الألمانية في براغ. تحول هذا بدوره إلى أعمال عنف مناهضة لليهود على نطاق واسع حتى ضد اليهود الفقراء في منطقتهم التقليدية جوزيفوف. كان على الحكومة إعلان حالة الطوارئ لإعادة السلام والنظام للبلاد. حتى بعد أن انتهت القلاقل، استمرت الحملات الدعائية المناهضة لليهود في استئثار الشعب.

في هذه الأوقات المضطربة عُثر على فتاة في التاسعة عشرة من عمرها صريعة في الأول من أبريل عام ١٨٩٩ بالقرب من قرية في بوهيميا الشرقية. كما تبين فيما بعد، كانت هذه الفتاة مذبوحة بجرح غائر في العنق. سريعا ما ألقت الدوائر القومية بالشكوك على اليهود وفي الحقيقة تم العثور على متهم بشكل سريع - صانع الأحذية يهودي متجول يدعى ليوبولد هيلسنر. في حملة منقطعة النظير تم التأكيد على أن هيلسنر ارتكب جريمة القتل الطقسي ضد الفتاة المسيحية كي يحصل على دماغها لأغراض طقسية أثناء عيد الفصح اليهودي. تزايدت هysteria العامة المعادية لليهود وافترض أن القتل الطقسي يرتكب في عدد من الأماكن. حتى المحكمة لم تستطع البقاء بمنأى عن هذا المناخ الملتهب. حكم على هيلسنر بالإعدام. كان بوسع الدفاع دحض تهمة القتل الطقسي من خلال الشهود من الخبراء وتعين تحويل القضية إلى محكمة الاستئناف للنظر فيها. الآن ساد الافتراض بأن هيلسنر قام بفعله هذه بدافع جنسي وهو ما كان بالفعل جزءا من الاتهامات السابقة الموجهة إليه. كما كان هناك افتراض بأنه قام بجريمة أخرى مشابهة، وهي جريمة قتل فتاة لم

تحل حتى ذلك الحين . رغم نقص الأدلة في عام ١٩٠٠ حكمت المحكمة على هيلسنر بالإعدام مرة أخرى . ثم تم تخفيف الحكم بعد ذلك ليصبح السجن مدى الحياة وأخيرا في عام ١٩١٦ تم منحه عفو . في عام ١٩٦١ قام شقيق الفتاة المقتولة بالإدلاء باعتراف على فراش الموت: لقد قتل الفتاة كي لا يضطر إلى دفع مهرها .

القليل عارضوا الرأي السائد في هذه الفترة . من بينهم كان الديموقراطيون الاشتراكيون أهم قوة سياسية حاربت باطراد ضد معاداة السامية . من بينهم أيضا كان بروفيسور علم الاجتماع وفيما بعد رئيس تشيكوسلوفاكيا توماس ج . ماساريك (١٨٥٠ - ١٩٣٧) الذي لقب باسم "فارس اليهود" مما سبب له المتاعب . اضطر ماساريك إلى التوقف عن التدريس بصفة مؤقتة بسبب المظاهرات المناهضة له التي قام بها الطلبة التشيك . في ١٨٧١ عام ذكر أوجست روهلينج - بروفيسور في علم اللاهوت من ويستفاليا وقام بالتدريس في فيينا - في كتابه "يهودي التلمود" برهان علمي زائف على صحة الاتهامات الموجهة إلى اليهود بارتكاب القتل الطقسي . في الامبراطورية النمساوية المجرية جرت اثنتا عشرة محاكمة مماثلة بين عامي ١٨٦٧ و ١٩١٤ غير انه لم تنته سوى واحدة منها بالحكم بإدانة المتهم . تأثر اليهود بشدة بهذه الأحداث . انهارت آمالهم العظمى في الاندماج - ليست فقط آمال الطبقة العليا بل آمال الكثيرين من اليهود المهاجرين . في براغ اشتدت الصعاب من جراء "إعادة التطوير" لمنطقة جوزيفوف بين عامي ١٨٩٣ و ١٩٠٥ حين تم تدمير معظم الجيتو السابق وحل محله المباني الحديثة . أصبح اليهود الذين عاشوا هناك متفرقين في جميع أنحاء المدينة فقد فقدوا المكان الذي كان يمثل مرجعية هامة لهم . في الوقت ذاته شن الفقر هجوما ضاريا على السكان اليهود . تسببت التطورات الاقتصادية في غرق الكثيرين إلى ادنى الطبقات "الشحاذين" التي بعد نهاية القرن تضخمت بشكل

أكبر سبب التدفق المتجدد لليهود الهاربين من المذابح في روسيا .
نظر معظم يهود غرب أوروبا إلى هؤلاء الفارين بشيء من عدم الثقة
والمقت . بينما راي فيهم آخرون- الذين أثناء هذه الصراعات
تدبروا أكثر في أمر يهوديتهم- جذور هويتهم .

كان نطاق ردود الأفعال على الوضع الجديد في اتساع ردود
الأفعال في غيرها من البلاد الأوروبية الشرقية . يمكن رؤية الميول إلى
الاندماج على سبيل المثال في الإحصاءات الرسمية الواردة في
الأحداث اليومية التي كانت تمثل مهنة الانتماء الوطني . في براغ عام
١٨٩٠ أعلن ٧٤% من اليهود أنهم استخدموا اللغة الألمانية كلغة الحياة
اليومية غير أنه في عام ١٩٠٠ انخفضت هذه النسبة لتصل إلى حوالي
٤٥% . يوضح هذا مدى قوة المساعي المبذولة التي بذلها اليهود
ليصبحوا جزءا من المجتمع الألماني . كما ينعكس التعلق العميق لليهود
بالثقافة الألمانية في البيانات الواردة . كتب فرانز كافكا ذات مرة :

أراد الكثيرون [ترك يهوديتهم وراءهم] وبدأوا في الكتابة باللغة
الألمانية؛ هذا هو ما أرادوه بيد أنهم بأرجلهم الخلفية تعلقوا بيهودية
آبائهم وبقوائمهم الأمامية لم يستطيعوا إيجاد موطئ قدم جديد .

بينما غيرت الطبقة العليا بالكاد موقفها ، بدأت الطبقة المتوسطة
بسبب مصالحها الاجتماعية والاقتصادية إعادة التوجه بعد أحداث
الشغب قبل نهاية القرن . أعلنوا أنهم تشيكيون على أمل أن يؤدي
هذا بالتدرج إلى التغلب على العداوة التشيكية . غير أن هؤلاء
اليهود التشيك سرعيا ما أخفقوا بسبب الموقف غير المرحب للكثير

^{١٠٤} هانز كون، بشأن المسألة العربية، في اليهودي الجزء الرابع
(١٩١٩- ١٩٢٠): ص. ٥٦٦- ٥٧١. ودت في اليهود في بوهيميا
ومورافيا. قاريء تاريخي، تحرير فيلما إيجرز (ميونيخ، ١٩٨٦)،
ص. ٢٣٢- ٢٣٧، هنا ص. ٢٣٤، و٢٣٥.

من التشبيك الذين كانوا لا يزالون ينظرون إلى اليهود باعتبارهم منافسين أقوياء فيما يتعلق بالارتقاء الاجتماعي. حاولت أغلبية الطبقة اليهودية الدنيا - في سياقاتهم التقليدية- النضال دون الاندماج. انضم بعض اليهود إلى الديمقراطيين الاشتراكيين وانضم آخرون إلى الجماعات الصهيونية. من الأمور التي تحمل أهمية خاصة في إطار البحث عن وعي يهودي جديد كانت مدرسة براغ للصهيونية التي تأثرت بمارتن بوبر. وضع هذا التجديد الثقافي والروحي في مركز الأشياء وافترض وجود موقف تصالحي يتضمن بذل الجهد للتوصل إلى "اتفاق سلمي وودي مع العرب" في فلسطين. صرح المؤرخ والعالم السياسي هانز كوهن (١٨٩١-١٩٧١) قائلاً: "أن يمكننا أن نسخر من جميع مشاعرنا تجاه ظالمينا إن لم نعد واقعين تحت الجور وإنما تولينا مقاليد السلطة- وحرمنا العرب من حقوقهم أو سعيننا لحرمانهم من أمهم؟".

لم يجد الكثيرون مخرجاً من أزمة الهوية الخاصة بهم. أدى موقف الكثير من اليهود النزاعين للاندماج - الذي غالباً ما وصل إلى درجة امتهان الذات- في كثير من الأحوال إلى فقدان احترام الذات في ظل كراهية كل ما هو "يهودي". في أحد خطابات كيب فرانز كافكا:

أحياناً أرغب في حشرهم في درج خزانة القماش لجرد أنهم يهود (بما فيهم أنا)، ثم انتظر لبرهة، ثم أفتح الدرج قليلاً لأرى إن كانوا قد اختنقوا جميعاً وإن لم يكونوا قد اختنقوا أدفع بالدرج لينفلق ثانية واستمر في فعل هذا إلى أن تنتهي المهمة.

طور يهود آخرون معاداة خاصة للسامية مناهضة لليهود شرق أوروبا الذين أساء الناس معاملتهم باعتبارهم "ديدان ضارة". هذه الجماعات المعادية للسامية كانت تمول بصراحة بشكل كبير من

^{١٠٥}فرانز كافكا، خطابات إلى ميلانو (فرانكفورت، ١٩٥٢)، ص. ٥٧.

تبرعات اليهود . كانت هذه مرحلة محزنة للغاية . ظهرت مثل هذه الميول أيضا في أماكن أخرى على سبيل المثال في ألمانيا خاصة ضد اليهود شرق الأوربيين الذين كانت تلقى عليهم باللائمة لإثارة معاداة السامية وإخفاق الاندماج . كانوا بطبيعة الحال ذوي أهمية هامة فقط غير أنهم ساعدوا على تأكيد التحيزات عند الدوائر غير اليهودية لأنها كانت يسلم بأنها ذات مصداقية .

عبرت نسبة كبيرة من ردود الفعل هذه عن عجز الكثير من اليهود - النابع من الاقتدار إلى الفهم الجيد للتغيرات الجذرية الاقتصادية والاجتماعية . فقد اليهود وظائفهم التقليدية كما فقدت القيم التقليدية مصداقيتها . من حيث المبدأ ، ماثلت هذه المشاكل المشاكل التي جابهت اليهود الشرق أوروبيين في بولندا وروسيا وغيرها من البلاد (كما نجد هذه المشكلات أيضا ، بمظاهر مغايرة ، خارج الشعب اليهودي) .

الجزء الرابع

محاولات الإبادة وأمل جديد

اليهود إبان الثورة الروسية وفي عهد الاتحاد السوفيتي

أثناء الحرب العالمية الأولى، لعب الكثير من اليهود دوراً هاماً في الحركة الثورية والديموقراطية المتصاعدة. كان الكثير من المنتمين لجناح اليسار من اليهود. كان اليهود أعضاء نشطين في المنظمات التي سعت لتوفير الإغاثة لضحايا الحرب أو كانوا منشغلين بمشكلات فترة ما بعد الحرب- مثل القضايا الاقتصادية. كان اليهود أيضاً منخرطين في الجماعات السياسية من اتحاد العمال اليهودي وبوال تسيون مروراً بالأحزاب الاشتراكية المختلفة إلى البولشيفيك وهو الجناح الاصولي في الديمقراطية الاشتراكية الروسية. وقد قام القليل من اليهود الموسرين الرواد بدعم هذا الموقف. من المؤكد أنهم كانوا منخرطين في العمل الإنساني غير أنهم كما جرت العادة لم يريدوا ان يكون لهم شأن بالسياسة. علاوة على ذلك فقد كانوا بطبيعة الحال يخشون من اندلاع ثورة وبالتالي من فقدان نفوذهم داخل في الجماعات اليهودية التي كانوا يرأسونها كزعماء للجماعة أو في مكانة هامة مشابهة.

أخيراً أنهت ثورة فبراير من عام ١٩١٧ الوضع القانوني الخاص لليهود. عندما فاز البولشيفيك الذين أصبحوا يطلقون على أنفسهم في ذاك الوقت الشيوعيين بالسلطة كنتيجة لما يطلق عليه اسم "ثورة

أكتوبر" بعيد ثورة فبراير بقليل، أكدوا على مساواة اليهود في الحقوق. رغم ذلك، لم تكتب لمعانة اليهود النهاية بعد. كانت أول منطقة ملتهبة أوكرانيا. نالت هذه المنطقة استقلالها نتيجة لاتفاقية سلام بريستليتوفيسك بين ألمانيا الامبراطورية وروسيا السوفيتية. كان هناك صراع عنيف على السلطة بين فصائل مختلفة وبين البولشيفيك الذين ادعوا شرعية حكمهم وناشدوا الجيش الأحمر لنصرتهم. وقد استغلت بعض القوى المناهضة للشيوعية الصراع التقليدي الذي وجد منذ عام ١٦٤٨ والذي أثار الفلاحين والجنود ضد اليهود مساوين بينهم وبين الشيوعيين. تبع هذا مذابح بشعة. انخرط جنود "الجيش الأبيض" بزعامة أنطون إ. دينيكين (١٨٧٢-١٩٤٧) والإيمان سيمون بيتلورا (١٨٧٩-١٩٢٦) في هذه المذابح بشكل كبير. بالنسبة لليهود كان جنود الجيش الأحمر مخلصهم رغم أنه في أثناء هذه الصراعات القاسية لم يامنوا أي جانب.

في عام ١٩٢٠، بعد العديد من المواجهات المسلحة وعروض السلام السوفيتية حين بدأ أن البولشيفيك كانت لهم اليد العليا في أوكرانيا اندلعت الحرب بين بولندا وروسيا السوفيتية. في بولندا أمل الكثيرون في استعادة حدود عام ١٧٧٢. في البداية تقدمت القوات البولندية أقصى الشرق. مرة أخرى قتل الكثير من اليهود في مذابح شاملة. قام الجيش الأحمر بهجوم مضاد وتقدم على طول الطريق إلى وارسو على أمل أن يحمل التطور العالمي إلى الغرب. تم التوصل إلى هدنة بعد هجوم بولندي مضاد. في عام ١٩٢١ تم أخيرا التوصل إلى اتفاق سلام؛ الأمر الذي أذاع شيئا من الهدوء بين الشعب في المناطق المتنازع عليها وبين اليهود أيضا في السنوات القليلة التالية.

من منظور قانوني، كان وضع اليهود في روسيا في هذا الوقت أفضل مما كان عليه في أي وقت مضى. رغم هذا سرعا ما ظهرت مشكلات جديدة. كان أول من عانوا من هذه المشاكل أصحاب

الأعمال اليهود الذين سقطوا ضحية لتأميم الصناعة منذ يونيو عام ١٩١٨. ثم عانى الوسطاء بعد ذلك، الوسطاء التقليديين: أثناء الحرب الأهلية انخفضت معدلات التبادل ما بين الريف والمدن بشكل كبير أو تم تنظيمه من جانب الدولة. بهذا فقد اليهود وظائفهم وأصبحت الشتيتلات مهجورة. تم اتهام الكثير من التجار اليهود بأنهم مضاربون وأحيانا كان يتم إعدامهم رميا بالرصاص.

صحب عودة الرأسمالية الخاصة بعض الازدهار منذ عام ١٩٢١ تحت ما يطلق عليه اسم السياسات الاقتصادية الجديدة. في عام ١٩٢٦-١٩٢٧ شكل اليهود الذين بلغ عددهم ٢.٧ مليون نسمة في الاتحاد السوفييتي ٢% من إجمالي عدد السكان و٨% من عدد من يقطنون الحضر و٢٠% من رجال الأعمال و٤٠% من أصحاب الحرف اليدوية. مع التحول المتسارع إلى الصناعة والجماعية أو الاشتراكية ناهيك عن الستالينية منذ نهاية عشرينيات القرن العشرين، تغير الموقف مرة أخرى. تم حظر المشاريع الخاصة تماما. أعلن أن الكثير من اليهود أعداء الطبقة الأرستقراطية وخسروا حقهم في الانتخاب والالتحاق بالتعليم العالي والحصول على الرعاية الطبية وبطاقات التموين الغذائي.

على الجانب الآخر، كانت الفرصة سانحة الآن للكثير من اليهود الذين كانوا إلى ذلك الحين بلا وظيفة للعثور على عمل في المؤسسات الصناعية الجديدة سريعة الإنشاء أو الاشتراك في مشاريع الإعمار. في البداية كانت تعرض على اليهود أراض للاستيطان في جنوب روسيا أو في شبه جزيرة القرم كي يكونوا على صلة بالمراكز التقليدية لليهود. كان أعضاء البوند السابقون والجماعات الصهيونية المنتمون للجناح اليساري نشطين في هذا الصدد مثل "القطاع اليهودي" داخل الحزب الشيوعي. بعد قيام الاحتجاجات في المناطق التي يهملها الأمر، قررت زعامة الحزب عام ١٩٢٨ إعطاء الأفضلية لمدينة

بيروبيدزان في أقصى شرق روسيا التي تطل على المحيط الهادي. كانت المصلحة الاستراتيجية لتأمين الحدود أيضا وراء صدور هذا القرار إلى جانب حقيقة أن اليهود بهذه الطريقة يمكن دمجهم بصورة أسير في آسيا عنه في بيئتهم المعتادة. بيد أنه بسبب المناخ القاسي كان يتعين تقديم عدد من الحوافز من أجل اجتذاب سكان لتعمير هذه المنطقة. كان من المفترض أنهم قادرون على خلق "المنطقة اليهودية" الخاصة بهم كبديل للدولة اليهودية الغائبة في إسرائيل - وفقا لنظرية الجنسيات السائدة التي تقول أن كل أمة تحتاج إلى أراضيها الخاصة بها. بطبيعة الحال، كان من المتوقع جني فوائد دعائية من وراء هذا. رغم أن هذه الخطة لم تكن ناجحة للغاية - فالمنطقة كانت منفرة بدرجة كبيرة - في عام ١٩٣٤ تم إعلان بيروبيدزان "منطقة يهودية مستقلة" وظلت هكذا حتى يومنا هذا. لا يمثل اليهود سوى أقلية بين سكان هذه المنطقة غير أنه لا تزال هناك صحيفة تصدر باللغة اليديشية ولازال هناك تعليم للغة اليديشية بالمدارس من المفترض أن الثقافة اليديشية بوسعها التطور. بهذا أثرت مسألة العلاقة بين سلطة السوفييت واليهود.

في السنوات الأولى التي أعقبت ثورة أكتوبر كان هناك الكثير من اليهود بين قادة الشيوعيين: تروتسكي وزينوفيف وكامينيف وسفيرد洛夫 ولوف وراك وريازانوف وغيرهم كثيرون. تم تعيين اليهود في مناصب هامة في المكاتب العامة ونظام التعليم لإدارات الشركات وغيرها من الأماكن. كان من شأن هذا إثارة كراهية خصومهم ودعم المقولة بأن اليهود شيوعيون (والعكس صحيح).

كان هؤلاء اليهود مندجين: كانت الأفكار الاشتراكية وثورة العالمية والصراع الطبقي بالنسبة لهم أهم من المسائل القومية والدينية التي تجابه اليهود. لجأ يهود آخرون إلى الاندماج من أجل تحقيق الرقي الاجتماعي. بيد أن معظم اليهود السوفييت ظلوا راغبين عن

الاندماج. في عام ١٩٢٦ تخلى حوالي ٧٥% من اليهود عن اليديشية كلغتهم الأم غير أنه يجب التعامل مع هذه النسبة بالحيطه. فاليهود لم تسر أمورهم بسلاسة على الإطلاق: فنتيجة للإلحاد القائم في النظريات وعلى أرض الواقع العملي، حدث اعتداء صريح على الدين في السنين الأولى التي أعقبت عام ١٩١٧: حيث منع تعليم الدين أو حتى تعليم اللغة اليديشية. منع الحاخامات من تأدية مهامهم. علاوة على ذلك، أجبر تطور الدولة أحادية الحزب واحتكار الشيوعيين للسلطة السياسية الأحزاب السياسية اليهودية، وأيضا بعض الجماعات كالصهيونية، على هجر أنشطتهم. بخلاف ما حدث في بولندا، حل الحزب الشيوعي محل البولند في وقت مبكر عام ١٩٢٠ أثناء فترة "شيوعية الحرب" وهاجر الكثير من أعضاء البولند. تم حل آخر حزب يهودي- وفي الوقت ذاته آخر الأحزاب باستثناء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي بصفة عامة- بوال تسيون في عام ١٩٢٨. إلى ذلك الحين، كان بوسع الحالوتسيم أو "الرواد" في المستوطنات ذات التنظيم الاشتراكي الاستعداد للحياة في دولة صهيون المستقبلية. سعى "القطاع اليهودي" إلى أن يمحو تدريجيا أي شكل من أشكال المنافسة السياسية بنفس القدر الذي أراد به أن يكبح جماح اليهود المتدينين، تى غالبا بصورة أقسى من قادة الحزب أنفسهم.

رغم كل هذا، في البداية تمتع اليهود باستقلالية ثقافية. سمح بإنشاء المدارس والمسارح ونشر المطبوعات اليديشية. أثر الاستقلال الثقافي والمساواة أمام القانون على الكثير من اليهود الذين هاجروا عائدنين إلى روسيا. في الأدب والعلوم والصحافة اليهودية كان هناك ازدهار جديد يمكن الربط بينه وبين إرهاصات ثورة ١٩١٧.

في العشرينيات من القرن العشرين، تأثرت الحكومة السوفيتية للغاية بذلك. لقد تفككت الجماعة اليهودية إلى كيانات دينية، بعد هذا الاعتراف المبدئي عام ١٩١٩، وتم تأميم ممتلكاتهم. الآن تم تأسيس السوفييتات (المجالس) في القرى والمدن والمناطق التي سمح فيها باستخدام اللغة اليديشية كلفة لإدارة وتم منحها عددا من الحقوق للإدارة الذاتية. تم اتخاذ تدابير احتياطية ضد النزعات المعادية للسامية.

رغم الكثير من التحفظات - بسبب على سبيل المثال أن ديانة وتقاليد اليهود الذين تشكل لهم الثقافة والحياة اليومية والدين وحدة واحدة كانت قد انقلبت ظاهريا رأسا على عقب - ففي عام ١٩٢٧ أعلن جوزيف روث:

يبد أنه ينبغي على الجميع احترام كيفية تحرير شعب واحد من الاضطراب لمعاناة الذل، وتحرير شعب آخر من إذلال الآخرين كأداة لسوء معاملتهم، وكيفية انقاذ المظلومين من الألم واتخاذ الظالمين من اللعنة التي هي أسوأ من الألم. كان هذا هو العمل العظيم الذي قامت به الثورة الروسية.^{١٠٦}

تغير كل هذا في عهد ستالين. تم إلغاء القطاعات اليهودية داخل الحزب الشيوعي عام ١٩٣٠. في خضم الصراع على السلطة في قمة الحزب استخدم ستالين وأتباعه شعارات مناهضة لليهود على نحو خاص. حيث أن بعض خصومهم كانوا من اليهود، كما يقال، لابد أنهم كانوا من المفكرين اليهود المنتمين إلى طبقة البرجوازيين الصغار الذين لم يكن لديهم شيء مشترك مع الطبقة العاملة. تم استغلال

^{١٠٦} يعطي والتر كازوفمان وصفاً تفصيلياً لمثال الأوديسة في رسالة الماجيستير غير المنشورة الخاصة به. سياسة الأقسام اليهودية في الحزب الشيوعي متخذاً الأوديسا مثلاً، ١٩٢٠ - ١٩٢٥. مقابل التاريخ والمسار (برلين، ١٩٩٤).

فقدان الثقة العام غير المعلن تجاه الكثير من اليهود المتولين لمناصب عليا أو حتى بين المضاربين أو المترجمين من السياسة الاقتصادية الجديدة. سقط عدد لا حصر له من اليهود ضحايا للإرهاب الستاليني، ولعمليات التطهير في الثلاثينيات من القرن العشرين ولم تنج من هذا الفنانون والعلماء. لم تنج من هذا أيضا يروبيدزان. تم إلغاء الاستقلالية الثقافية باعتبارها "قومية برجوازية" تؤيد المركية والترويس المتزايدين - بيد أنه رسميا كان لازال مسموحا باستخدام اليدشية في يروبيدزان. بعد اتفاق هتلر-ستالين عام ١٩٣٩، تم تسليم الشيوعيين اليهود الألمان الذين كانوا قد فروا إلى الاتحاد السوفيت إلى الجيستابو. لكن حتى بعد بداية الحرب مع ألمانيا عام ١٩٤١ لم يتوقف تسليم الشيوعيين من اليهود الألمان للجيستابو. على سبيل المثال لم يسلم عضوا البوند فيكتور ألتر وهنريك إيرليش الذين كانا قد فرا من بولندا من هذا الاضطهاد.

أدت الأعمال المناهضة لهم إلى ظهور رد فعل قومي جديد من جانب اليهود. زاد من قوة اليهود ضم أجزاء جديدة من بولندا ورومانيا ومناطق البلطيق إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ حيث أضيف مليوناً يهودي إلى عدد اليهود الموجودين البالغ ٣ مليون نسمة. أصبحت الحياة داخل الجماعة اليهودية أنشط. زاد من قوة نزعاتهم القومية معرفتهم أن ضمن شركاء النازيين في المناطق التي غزوها كان يوجد الكثير من الأوكرانيين والليتوانيين والرومانيين الذين لم يتخلوا بأي حال من الأحوال عن معاداتهم التقليدية لليهودية. أحيى الأمل في الحكومة السوفيتية بسبب تشكيل "لجنة يهودية مناهضة للفاشية" عام ١٩٤٢ (بصفة رئيسية بغرض حشد التأييد للاتحاد السوفيتي في البلدان الأنجلوساكسونية) التي في البداية دعت إلى إقامة دولة إسرائيل بعد الحرب.

بيد أنه سرعان ما تحطمت هذه الآمال. في روسيا لم يعد تطور الحياة اليهودية ممكنا. على النقيض منذ خريف عام ١٩٤٨، تم استئناف الموقف المعادي لليهود. ترجع بداية هذا إلى يناير ١٩٤٨ إلى جريمة القتل التي أعلن أنها حادث سيارة الممثل الشهير ورئيس اللجنة المناهضة للفاشية سولومون م. مايكولس (١٨٩٠ - ١٩٤٨). في أعقاب هذا تم إلغاء اللجنة بوصفها "مناهضة للسوفييت"، أعيد تأهيلها رسميا فقط في بداية عام ١٩٨٩ بتوصية من المكتب السياسي. تلا هذا مقتل الكثير من الموظفين اليهود واتهامهم بالضلوع في أنشطة مناهضة للسوفييت والاتصال بالغرب. كان يفترض بهم أن يكونوا جزءا من خطة "إمبريالية" اشتركت فيها أيضا المنظمات "الصهيونية" في إسرائيل. هؤلاء "الكوزموبوليتانيون عديمو الجذور" كانوا متأمرين وجواسيس. مرة أخرى حدثت أعداد لا حصر لها من حالات الإعدام والإبعاد إلى معتقلات التعذيب. انتشرت هذه الموجة المعادية لليهود إلى بلدان أخرى في الكتلة الشيوعية وهناك أيضا تبعها الاضطهاد لهم. كانت من أكثر الأحداث المؤثرة المحاكمات العلنية وأحكام الإعدام للقادة الشيوعيين في تشيكوسلوفاكيا والمجر. في بداية عام ١٩٥٣ أعلنت مخبرات الاتحاد السوفيتي أنها قد "كشفت" عن مؤامرة ضلع بها العديد من الأطباء البارزين تهدف إلى قتل قادة الاتحاد السوفيتي وعلى رأسهم ستالين. "بمحض الصدفة" كان معظم أعضاء هذه المؤامرة المزعومة من اليهود. يعتقد أن هذه المؤامرة كانت بتمويل من جهاز المخابرات الأمريكي والمنظمات اليهودية الدولية. واجه الأطباء المعتقلون خطر الإعدام. علاوة على ذلك، سرت الشائعات بأن ستالين أراد طرد جميع اليهود من القسم الأوروبي بالاتحاد السوفيتي. لحسن الحظ توفي ستالين في مارس عام ١٩٥٣. ثم إعادة تأهيل الأطباء المعتقلين وإطلاق سراحهم. بعد هذا اختفت المعاداة للسامية من جانب الدولة رغم أنها ظلت

دفيئة. عاش حوالي ١.٨ مليون يهودي في الاتحاد السوفييتي رغم أن تقديرات أخرى تشير إلى أن العدد كان أكبر من هذا. ظل التمييز ضد اليهود قائما فيما يتعلق بممارسة الشعائر الدينية وكذلك إدخال القومية اليهودية في جوازات السفر؛ الأمر الذي كان من شأنه أن يعرضهم للمضايقات دون تعويضهم بالذكر الصريح للقومية. خلقت الصلة بإسرائيل جوا من عدم الثقة كما كان من العسير مغادرة البلاد. فيما بعد، بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، ازداد عدد المهاجرين زيادة ضخمة خاصة وأن الكثيرين شعروا بالتهديد من قبل معاداة السامية السافرة التي كان يعرب عنها الآن بلا مدارة. على الجانب الآخر، أصبح بإمكان الجماعة اليهودية الآن عيش حياة فكرية ودينية طبيعية مرة أخرى. بدأ التفكير في الهوية اليهودية بحماسة شديدة وبدأ المزيد من الناس يهتمون بالتاريخ اليهودي والثقافة اليهودية.

القومية اليهودية الشرق أوروبية وموجات جديدة من معاداة السامية: اليهود في بولندا ما بين الحربين العالميتين
إبان الحرب العالمية الأولى عانى اليهود في بولندا معاناة شديدة في ظل الحكم الروسي الذي تشكك في تأمرهم مع الألمان. قامت الحكومة بإلغاء منطقة الاستيطان كنتيجة للتقدم الألماني، وتم ترحيل الكثير من اليهود إلى وسط روسيا.

واصل الديموقراطيون الوطنيون البولنديون كماداتهم إثارة الاضطرابات المناهضة لليهود غير أنهم الآن لم يوجهوا انتقاداتهم اللاذعة لحب "اللاتفيين" لروسيا وإنما لحب جميع اليهود لألمانيا. مرة أخرى وجد اليهود أنفسهم هدفا للهجوم من جميع الأطراف. في هذا الجو الممتب، تمنى البولنديون إقامة دولة مستقلة كتاج للحرب. حتى الاتهامات التي ماثلت ما أشيع عنهم في العصور الوسطى، بأن اليهود كانوا يسممون المجاري المائية أو الحليب، كانت تجد أذانا

مصغية. كثرت الأحداث المناهضة لليهود. ما بين صفوف الجماعات السياسية البولندية قامت صراعات عنيفة تتعلق بمكانة اليهود في الدولة البولندية المستقبلية. أثناء هذه الصراعات ظهرت مرة أخرى أنماط جدلية تقليدية في هذا الشأن. على سبيل المثال، تم التمييز بين اليهود المندمجين والذي كان من الممكن التعاون معهم وبين اليهود الأرثوذكس أو الحسيديين الذي لم يكن التعاون ممكناً معهم. بنهاية ديسمبر ١٩١٦، ذهبت السلطات المحلية لمدينة وارسو إلى حد حظر هؤلاء الأشخاص الذين لا يرتدون "ملابس نظيفة أو مهندمة أو أوروبية" من ارتياد المنتزهات الجذابة على وجه الخصوص؛ ويعنى بذلك هؤلاء الذين يرتدون الرداء اليهودي التقليدي. كان الاعتقاد السائد أن المرء يعبر عن موقفه من الاندماج من خلال اختياره لما يرتديه وآليت السلطة على نفسها أن تأخذ إجراء بهذا الشأن. لم يتم تخفيف مثل هذه الإجراءات سوى بعد احتجاجات صارخة. جرت صراعات مماثلة في مناطق أخرى. مرارا وتكرارا كانت القلاقل التي تثار نتيجة لأمر لا صلة له باليهود من قريب أو بعيد تستفحل إلى حد نهب المشاريع التجارية الخاصة باليهود. ساءت العلاقات بين اليهود والبولنديين أشد السوء. إبان الاضطراب الذي نجم عن إقامة دولة قومية منذ نوفمبر من عام ١٩١٨، تفجرت التوترات المتراكمة. أدان التجار البولنديون والجماعات الطلابية اليهود، ناعتين إياهم بأصدقاء الألمان والديمقراطيين الاشتراكيين أو البلاشفة. في عام ١٩٢٠ نشرت في بولندا أيضا "بروتوكولات حكماء صهيون" الزائفة التي كان من المفترض أن تثبت وجود خطة وضعها اليهود ليحكموا العالم. سريعا ما تصاعدت الهجمات ضد اليهود لتتضمن القيام بأعمال عنف وجرائم قتل وتنفيذ الإعدام وارتكاب المذابح. حتى الجيش البولندي ساهم في هذا، خاصة الوحدات التي كانت تحت إمرة

الجنرال جوزيف هالر (١٨٧٣ - ١٩٦٠) الذي أصاب شهرة واسعة أثناء النضال من أجل نيل استقلال بولندا. أدان الكثير من البولنديين هذه التجاوزات حتى في البيانات العامة. بيد أنه في ذلك الوقت حين كان البولنديون يناضلون من أجل نيل الاستقلال وكان عليهم الكفاح لترسيم حدودهم، كان من الصعب على الكثيرين تفهم وقبول حقيقة أن اليهود أصبحوا في ذات الوقت على وعي بقوميتهم الخاصة، و فقط في حدود هذا الإطار أرادوا المطالبة بمكانة في المجتمع ومطالب مماثلة لتلك التي تقدم بها البولنديون قبل عام ١٩١٤ ضد روسيا والمملكة النمساوية المجرية وألمانيا. طالب مجلس قومي يهودي في ذلك الوقت الاعتراف باليهود كإقلية قومية تتمتع باستقلالية ثقافية وقومية رغم أن هذا المطلب لم تدعمه جميع المنظمات اليهودية. بدا أنه لا يخرج من الدائرة المفرغة التي ظهرت إلى حيز الوجود. في البداية تعامل اليهود بحذر شديد مع الدولة الجديدة بسبب الأحداث العديدة الناشئة عن معاداة السامية والافتقار للتقليدي الشائع بين اليهود للاهتمام بالشؤون السياسية. اعتبر الكثير من البولنديين هذا الأمر تأكيداً على اتهامهم بأن اليهود يفتقرون للوطنية. كانت عاقبة هذا تدهور المناخ العام للبلاد بشكل أكبر.

في ظل القلاقل المثارة في هذه الفترة، تم توجيه الحق الناجم عن الفقر وارتفاع الأسعار إلى اليهود بما يتفق مع الأفكار القديمة المسبقة: أنهم مرايون وكانزون للأموال ومفسدون للأمة. عوضاً عن هذا، اعتبر اليهود خصوماً سياسيين شكلوا خطراً على النظام الجديد. في جاليشيا في عام ١٩١٨ - ١٩١٩ تمرد الفلاحون على التجمع التقليدي لليهود وطبقة الإقطاعيين البولنديين. يعزى هذا الموقف الآن إلى الجدل "المعاصر" حول "المؤامرة البولشفية".

لكن حتى تحت مستوى العنف المحض، ازداد التمييز ضد اليهود. أثر هذا على سبيل المثال على التعيين في الوظائف العامة

وفي النظام التعليمي وانطوى حتى على محاولة لإدخال قيد يحدد النسبة المئوية لليهود الذين يمكنهم الالتحاق بالتعليم الثانوي. بوجود قانون يفرض إغلاق المحال يوم الأحد، تلاشت المنافسة اليهودية لأن اليهود اضطروا للتوقف عن التجارة ليومين كل أسبوع. مما يعبر عن موصلة معاداة السامية من قبل الكنيسة.

فيما يتصل بمفاوضات فرساي للسلام، تبنت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة قضية حقوق اليهود في بولندا. كان لظهور الديمقراطي الوطني رومان دموفيسكي (١٨٦٤-١٩٣٩)، الذي أراد تحجيم مثل هذه الحقوق والتعقيم على أعمال العنف الموجهة ضد اليهود، تأثير كبير. في ١٨ يونيو ١٩١٩ اضطرت بولندا للتوقيع على اتفاقية تضمنت حماية اليهود كأقلية. في بولندا نفسها لم يزد هذا تماما من التعاطف العام مع اليهود. على النقيض، أدى هذا إلى اندلاع موجة جديدة من مشاعر الكراهية لليهود.

فيما يتصل بالحقوق السياسية، اشتدت المشاعر الدينية المعادية للسامية. احتل الديمقراطيون الوطنيون- أي دموفيسكي وجنرال هالر- الصدارة في هذا الصدد. لم تكن دوافع الكراهية لليهود عرقية فقط بأي وجه من الوجوه، بل في مناحي كثيرة جاءت الكراهية نتيجة لاعتبارات "براجماتية"- على سبيل المثال كوسيلة لجذب أصوات المزيد من الناخبين في ظل القلاقل السائدة بالبلاد. كان يسمح "لليهود الصالحين" بالانضمام إلى الحزب. تحمل هؤلاء اليهود في أكثر من مناسبة مسؤولية أشد الهجمات المريرة على اليهود- وهو ما يعد تعبيراً آخر عن "كراهية الذات" عند اليهود. مثل الديمقراطيون المسيحيون عداءً لليهود ذوي دوافع دينية. ذاعت أيضاً المعاداة للسامية بين أحزاب الفلاحين وفي بعض الجماعات الأصغر. على الجانب الآخر، حاول ممثلو الفلاحين التخفيف من حدة هذه المشاعر من خلال إدانتهم لأعمال العنف،

واتخاذ إجراءات ضد توجيه الاتهامات غير المبررة لليهود. دافع الاشتراكيون عن منح اليهود حقوقا متساوية. بالنسبة لهم، كانت المعاداة للسامية أداة يستخدمها اليمينيون في الصراع الطبقي. بيد أن عالم اليهود ظل غريبا عليهم لأنه لم يتسق مع خطتهم النظرية. من الناحية السياسية كان الاشتراكيون يحاربون ضد القومية اليهودية التي كانت قاتلة إيديولوجيا حيث مثلت تشيئا للانبعاث بعيدا عن الصراعات الاجتماعية وكانت سببا لإثارة مشاعر المعاداة للسامية. كانت هناك أيضا صراعات بين الاشتراكيين البولنديين وبوند (اتحاد العمال اليهود).

في الجمهورية الجديدة، نظم اليهود أيضا أحزاب سياسية في جميع الاتجاهات. بالنسبة لبوند، ظل الصراع الطبقي يحتل الصدارة، غير أنه طالب أيضا بالاعتراف باللغة اليديشية وحق الإدارة الذاتية. بصورة ما تقبل البوند أيضا القومية اليهودية الشرق أوروبية. بيد أنه لم يكن بوسعهم - يرجع هذا بشكل كبير إلى خصائص قانون الانتخاب التي لم تكن مواتية لذلك - الفوز بمقعد في البرلمان البولندي. لاقى التحالف بين جميع منظمات الجناح اليساري الذي طالما سعى إليه البوند نجاحا كبيرا. كان يمثل مبدأ الدويكييت أو "أن تكون هنا" الذي أيدته جميع الأحزاب اليهودية بوضوح في حزب الشعب اليهودي ("الشعبيون") الذي تم تأسيسه عام ١٩١٦ بشكل منفصل من أجل بولندا إلى جانب المنظمة الروسية القائمة بالفعل. تم الاعتراف بسيمون دينوف كمرجعية فكرية هنا أيضا. إضافة على اليديشية كلفة إدارة، طالب هذا الحزب بكامل حق التمثيل النسبي في الوظائف الحكومية والتمثيل اليهودي المستقل. غير أن موقف الحزب الذي اتسم بالعداء الشديد أثار ردة فعل مناهضة لليهود وظل مؤيدوهم اليهود قلة. في البداية شكلت الجماعات الصهيونية أقوى القوى السياسية الحزبية. في الانتخابات الأولى حصدوا غالبية أصوات

الناخبين اليهود . بيد أنهم كانوا لا يزالوا يعانون من الانقسامات الداخلية من الجماعات المختلفة لجماعة بوال تسيون الاشتراكية إلى الجماعة الدينية مزراحي . وحتى أكثر الجماعات المؤثرة سياسيا حزب الصهيونيين العموميين تعرضت للانشقاقات الداخلية بين جناحي "الجاليشيين" و"الروسيين" في المقام الأول . تعزى الأسباب إلى كل من الصراعات الشخصية والتقاليد التاريخية والعلاقات الإقليمية المتباينة بين كل من جاليشيا ومملكة بولندا، بما فيها تاريخ الجماعات الصهيونية هناك . اجتمع حزب الصهيونيين العموميين - بخلاف تأييدهم لإقامة "وطن" في فلسطين - على "عمل الحاضر" ألا وهو تحقيق الاستقلالية القومية في بولندا نفسها وتحسين وضع اليهود المقيمين هناك . لكن اختلفت الآراء حول الطريقة الصحيحة لفعل هذا . انتهجت الجماعة التي أحاطت ببيتسك جروبنوم (١٨٧٩-١٩٧٠)، الذي كان لفترة ما المتحدث الرسمي باسم جميع اليهود البولنديين، سياسة تنأى عن التنازلات . هدفت هذه السياسة إلى بناء مكانة قوية في الدولة خاصة من خلال التعاون الفعال على جبهة الأقليات القومية . على الجانب الآخر، كان "الجاليشيون" بزعامة ليون رايش (١٨٧٩-١٩٢٩) وأبراهام أوزياس ثون (١٨٧٠-١٩٣٦) يميلون إلى إظهار قدر أكبر من المرونة وتسوية الخلافات مع الحكومة والأحزاب السياسية البولندية لتحقيق مآربهم . تبني الجاليشيون وجهة النظر التي مفادها أنه سبب إرثهم التاريخي - أي فترة التسامح الطويلة في المملكة البائدة - كان البولنديون أقل معاداة للسامية من أهالي أوكرانيا وروسيا البيضاء . بالتالي لن يكون من الحكمة استثارة رد فعل معاد لليهود من جانب الجماعات البولندية بالانخراط في تكتلات الأقليات القومية .

في هذا الصدد، ("اتحاد إسرائيل") الذي تجمعت فيه الأحزاب الأرثوذكسية الدينية والذي كان على يقين بأنه يمكنه التعويل على

أعداد كبيرة من المؤيدين - انتهج موقفاً سياسياً مشابهاً لهذا . حيث أنه كان من الممكن لوضع اليهود أن يتحسن بشكل جذري - من وجهة نظرهم - من خلال الخلاص المשיحي فقد تعلقت آمالهم بتحقيق أفضل النتائج عبر التزام الحيادية السياسية ودعموا الحكومة البولندية . بيد أنهم بهذه الطريقة لم يتمكنوا من تشكيل قوة سياسية موازنة للجناح اليميني .

أضحى الصراع اليهودي - البولندي ومعاداة السامية أداة سياسية واضحة خصوصاً أثناء انتخابات ١٩٢٢ وما تلاها من أحداث . بعد الجهات المؤقتة السابقة - حين لم يكن الأمر قد استقر على ترسيم الحدود بعد - كان البولنديون آنذاك ولأول مرة ينتخبون أعلى هيئاتهم الدستورية : الرلمان أو السيم ومجلس الشيوخ ورئيس مجلس الشيوخ . في الحملة الانتخابية لعبت المناصب السياسية المعارضة دوراً محورياً كما كان الحال ١٩١٨ - ١٩١٩ . مثل الديموقراطيون الوطنيون "الفكرة البياسية للدولة" : فبدلاً من التوسع نحو الشرق أرادوا التوسع نحو الغرب كما يجب منح الحقوق السياسية فقط لهؤلاء ذوي الجنسية البولندية . انضم إلى الجبهة المعارضة لهم عدد من الجماعات : الاشتراكيون ، وبعض المنظمات المعتدلة وأيضاً كتلة الأقليات القومية بعددها الكبير من السياسيين اليهود . لقد مثلوا سياسة نشطة وإن لم تكن عدائية على نحو خاص نحو الشرق - "الفكرة الجاجيلونية للدولة" - اتحاد لجميع دول شرق أوروبا ومنح حقوق سياسية للأقليات . لذا اتم رفض هذه الأفكار باعتبارها "غير قومية" رغم أنه كانت تدب بينهم الخلافات فقد اعتبرهم اليمين وحدة واحدة . نتيجة لذلك ، استقطبت الحملة الانتخابية دموفسكي وجوزيف بيلسودسكي (١٨٦٧ - ١٩٣٥) . لعبت عملية تشويه السمعة المنبثقة عن العداء للسامية دوراً هاماً في الصراعات .

لقد حصل الجناح اليميني على أصوات أقل مما تمنوا في الانتخابات. جاءت الهجمات الضارية والحملات الحقودة العاتية على اليهود نتيجة لذلك. كان يقال أنه يتعين حرمان اليهود من نفوذهم السياسي وإن أمكن حرمانهم من الحق في الانتخاب مرة أخرى. حين أقام السيمم أو البرلمان ومجلس الشيوخ انتخابات رئيس البلاد، اتهم الوطنيون مرشح المعارضة بأنه "رئيس لليهود"، لأن أصوات اليهود لعبت دورا حاسما في فوزه بالانتخابات. استقال بيسوديسكي لأسباب غير واضحة وترشح بدلا منه جابريل ناروتوفيتش (١٨٦٥-١٩٢٢) وعن حزب اليمين ترشح الإقطاعي الكبير موريسي زامويسكي (١٨٧١-١٩٣٩) الذي لم يلق قبولا لدى أحزاب الفلاحين. نتيجة لذلك، تم انتخاب ناروتوفيتش رئيسا للبلاد في ٩ ديسمبر ١٩٢٢. جاءت ردة فعل جناح اليمين على هذه الهزيمة الانتخابية بشن أعنف الهجمات ضد اليهود رغم أن موقف أحزاب الفلاحين في الانتخابات كان هو العامل الحاسم. ذكر هذا بما حدث في انتخابات الدوما التي أقيمت عام ١٩١٢. أدت الخطب الحماسية - على سبيل المثال خطبة جنرال هالر - إلى إثارة القلاقل في وارسو. عندما تعرض الاشتراكيون للهجمات العنيفة، أدى تبادل إطلاق النار إلى إراقة الدماء. في السيمم كانت هناك مشاهد عنيفة. وصلت الكراهية إلى أوجها في ١٦ ديسمبر باغتيال ناروتوفيتش على يد الفنان نيفيادومسكي الذي أعلن أنه كان ليقول أي شخص يتولى مقاليد الحكم من خلال اليهود. مثل الاغتيال حالة نموذجية لشخص ساذج مثالي تم تحريضه على العنف. بعد الصدمة الأولى، قام جناح اليمين بالمأثرة العظيمة وهي قلب الأحداث الواقعية رأسا على عقب. وفقا لهم، ينحى باللائمة على اليهود والاشتراكيين - خاصة "اليهود البلاشفة" - في حادث الاغتيال هذا. لأنهم

حرضوا عليها بسلوكهم. فيما بعد تم تجريد القاتل المدان كبطل قومي ومنقذ للوطن.

رغم هذا، شهدت السنوات التالية تراجعاً لمشاعر المعاداة للسامية الصريحة. بعد الانقلاب الذي تلا الفوز الكاسح لبيلسوديسكي عام ١٩٢٦، انتهت الصراعات القومية. رغم النظام الفاشستي، في البداية أصبحت العناصر الديمقراطية أقوى من ذي قبل. أثناء هذه الفترة تم منح عدد من الامتيازات لليهود. على سبيل المثال، أقرت الدولة الحيدر- المدرسة اليهودية الابتدائية. دعمت الدولة تأثير المذهب الأرثوذكسي في الجماعات اليهودية، وبدورهم قام أتباع المذهب الأرثوذكسي بتأييد الحكومة. تم التوصل إلى اتفاق مع نظام جرابسكي الحاكم عام ١٩٢٥ غير أنه لم يتسنى تنفيذه بسبب الانشقاق التام بين الجماعات اليهودية المختلفة. تدريجياً، ساد شعور عام بأنه رغم إحراز بعض النجاحات لن تتمكن الأحزاب السياسية اليهودية من تحقيق الكثير من خلال العمل البرلماني. نتيجة لذلك، تنبه المزيد من اليهود إلى الدعوة الصهيونية لبناء مجتمع يهودي في فلسطين. لو كان مؤيدو الأفكار الصهيونية الاشتراكية قد شكلوا القسم الأكبر من أصحاب العودة الثانية إلى فلسطين ما بين عامي ١٩٠٤ و ١٩١٤ والعودة الثالثة ما بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٣ فلأول مرة في العودة الرابعة، كان أغلب المهاجرين من الطبقة الوسطى البولندية. ساد الإحباط بشأن النشاط البرلماني في انتخابات عام ١٩٢٨ التي منيت فيها الأحزاب اليهودية بالهزيمة. بعد هذا بعام انقسم الحزب اليهودي أخيراً بشأن منازعات تتعلق بالاتجاه الذي يجب اتباعه الآن. في الانتخابات التالية لأعوام ١٩٣٠ و ١٩٣٥ خسرت الأحزاب اليهودية أصوات الناخبين مرة أخرى. في السنين لم يعد لليهود دور هام رغم أنه ظلوا يتمتعون بالتمثيل النيابي حتى الغزو الألماني عام ١٩٣٩.

تعكس هذه التطورات عجزاً معيناً فيما يتعلق بالطريقة المثلى التي يجب اتباعها لتحسين وضع اليهود بطرق برلمانية في ظل الظروف السياسية الراهنة. غير أنه لا يجب فهم هذا ببساطة كإشارة إلى ضعف ويأس الرغبة اليهودية في الحصول على حقوق مساوية ونيل الاستقلال. في الكثير من المدن والمجتمعات كان التمثيل السياسي لليهود قويا للغاية وإضافة إلى هذا، تجسّد التنوع الثقافي لليهود في بولندا في شكل انتهاج اتجاهات مختلفة.

شكل اليهود الذين بلغ عددهم حوالي ٣ مليون نسمة ما يقرب من ١٠% من إجمالي عدد سكان جمهورية بولندا. في المدن كانوا يشكلون في المتوسط حوالي ثلث عدد السكان، بينما شكلوا في الشرق الغالبية في الكثير من المدن الصغيرة. فيما يتصل بالعمل - تعود هذه البيانات إلى ١٩٣١ - شكل اليهود غالبية العاملين في مجال الصناعة والحرف اليدوية وهو ما يمثل حوالي ٤٢% وفي التجارة شكلوا حوالي ٣٧% وعمل ٥% من اليهود في مجال النقل والاتصالات و٦% في المهن الحرة والأعمال الإدارية كما عمل ٦% من اليهود كخدم و٤% امتهنوا الزراعة (وهو ما لا يتوازى مع نسبتهم إلى إجمالي عدد السكان). يمكن التعرف على اهتمامات اليهود في مجالات العمل من خلال حقيقة أن ٦٢% من العاملين بالتجارة كانوا من اليهود و٢٦% من العاملين بالصناعة والحرف اليدوية كما شكل اليهود ٢٧% من العاملين بالطب و٢٠% من العاملين بالتعليم. غير أن الغالبية الساحقة كانت لانزال تعمل في المشاريع التجارية الصغيرة. تزايدت أعداد الفقراء بين عامة اليهود.

رغم ذلك مرت الثقافة اليهودية بفترة ازدهار أخرى. خاصة اليديشية شهدت انتعاشاً يتضح من خلال الأعمال الأدبية الكثيرة المكتوبة بهذه اللغة والإنتاج المسرحي والصحف الصادرة بها. من بين المؤلفين على سبيل المثال لا الحصر نذكر الشاعر التعبيري يوري

تسيفي جرينبورج (١٨٩٦-١٩٨١) الذي عاش لفترة في مدينة لفوف (اليمبرج) ثم ارتحل بعد هذا إلى فلسطين/ إسرائيل. نذكر أيضا بيريتز ماركيش (١٨٩٥-١٩٥٢) الذي وقع ضحية للإرهاب الستاليني عام ١٩٥٢ وميلخ رافيتش (اسم مستعار لزاكريا بيرچنر المولود ١٨٩٣) وإسرائيل جوشوا سينجر (١٨٩٣-١٩٤٤) وأخوه إسحاق باشيفيس سينجر (١٩٠٤-١٩٩١) الذي حاز جائزة نوبل عام ١٩٧٨. عاش كلاهما في الولايات المتحدة منذ الثلاثينيات من القرن العشرين، يمكن العثور على بعض الاستشهادات من مؤلفاتهما في طيات هذا الكتاب. أبراهام زوتسكيوير (المولود ١٩١٣) ألف عددا من قصائد النثر مع جماعة "شباب فيلنيوس". كما ناضل كعضو حزبي ضد النازيين إبان الحرب العالمية الثانية ورحل فيما بعد إلى إسرائيل. كانت هناك عناصر من الموسيقى الشعبية اليهودية في شعر موردخاي جييرتيش (١٨٧٧-١٩٤٢). كما لعب معهد الييفو للأبحاث اليهودية الذي تأسس في برلين عام ١٩٢٥ دورا محوريا. فقد عمل الكثير من العلماء البارزين في ييفو مثل ماير بالابان (١٨٧٧-١٩٤٢)- في عام ١٩٣٦ تم تعيينه أيضا بروفيسور في جامعة وارسو. من العلماء أيضا يتسحاق شنير (١٨٨٤-١٩٤٣) ، موازيس شور (١٨٧٤-١٩٤١) وأري تارتاكوفر (١٨٩٧-١٩٨٢). ظل عملهم متوقفا لا تضاهيه أعمال الآخرين. إيمانويل رينجليلوم (١٩٠٠-١٩٤٤) الذي أصبح فيما بعد المؤرخ لجيتو وارسو وأرتور أيزنباخ الذي أصبحت دراساته بعد الحرب العالمية الثانية أفكارا تأسيسية لما تلاها من أبحاث حول التاريخ اليهودي في بولندا كان يعمل بهذا المعهد أيضا.

في مجال الرسم والفنون البصرية، سار الفنانون على نهج موريسي جوتليب (١٨٥٦-١٨٧٩) مؤسس الفن اليهودي المعاصر في بولندا إلى جانب بعض الأعمال المتأثرة بالأفكار الصهيونية مثل أعمال

ليوبولد بيليتشوفسكي (١٨٦٩ - ١٩٣٣) وهنريك جليسنشتاين (١٨٧٠ - ١٩٤٢) أو فيلهيلم فاشتيل (١٨٧٥ - ١٩٤٢). في ذات الوقت، أصبحت قضية طبيعة الفن اليهودي مثار التفكير. ربطت جماعة "الشباب اليديشي" بزعامة يانكيل أدلر (١٨٩٥ - ١٩٤٩) وفيما بعد بزعامة هنريك بيرليوي (١٨٩٤ - ١٩٦٧) هذه القضية بالاتجاهات الحديثة فيما بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢١.

كانت هناك أيضا إشارات بالتحول إلى العلمانية والتخلي عن اليهودية. بينما في بولندا الخاضعة لحكم الروسي في عام ١٩٠٠ كان يحضر حوالي ٨٥% من الأطفال اليهود الحيدر، بحلول عام ١٩٣٠ انخفضت النسبة لتصل إلى ٢٣% فقط. فيما يتصل باللغة والزي والملابس والسلوكيات، تشبه المزيد من اليهود خاصة في المدن الكبيرة بالقواعد البولندية. زادت مطالب اليهود بالتركيز على الحصول على حقوق يكفلها لهم القانون بدلا من مواصلة الحلم بنيل الاستقلالية. على الجانب الآخر وفي نفس الوقت انتهى الكثير من البولنديين إلى قبول قومية يهود شرق أوروبا وحتى "الطبيعة اليديشية" للشعب اليهودي. في الكثير من المذكرات المدونة نجد الكثير من الأمثلة على حسن الجيرة بينهما. غير أنه لا يجب التقليل من شأن نوبات انفجار مشاعر المعاداة للسامية التي كانت تحدث بشتى الطرق، غير أن هذا الانفجار لا يقدم الصورة الكاملة. توضح تعددية الجماعات السياسية في بولندا إمكانات التطور التي كانت متاحة أمام اليهود رغم كل الصعوبات. من الصعب التكهّن كيف كان من الممكن لمثل هذه الأمور أن تتطور لو لم يظهر النازيون.

أدت الأزمة الاقتصادية الشديدة التي بدأت بنهاية عشرينيات القرن العشرين وازدياد قوة الأحزاب والحركات المعادية لليهود في جميع أنحاء أوروبا حتى في بولندا إلى إعادة إشعال فتيل المعاداة للسامية التي وصل بها الأمر في النهاية إلى انتهاك السياسات الرسمية.

الديمقراطيون القوميون المشهورون باسم "الإنديك" المأخوذ من الحروف الأولى لاسم الحزب تم تهميشهم في ظل سياسات ("الانعاش القومي"). فأصبحوا حينئذ أكثر أصولية وإلى حد ما روجوا علانية لشعارات فاشستية. كما دعا معسكر بولندا العظمى (OWP) الذي كان مقرباً من الديمقراطيين القوميين إلى القيام بأعمال عنف ضد اليهود. نتيجة لذلك تم وقف هذا المعسكر مرة أخرى.

وجدت المعاداة للسامية تأييداً بين أفراد الطبقة الوسطى والأكاديميين الذين شعروا أن أكثر ما يهددهم هو الأزمة الاقتصادية التي وقعت حجر عثرة أمام جهود ارتقاء السلم الاجتماعي وتعرضوا بسببها لخطر التحول إلى "البروليتاريا". احتدمت المنافسة مع اليهود. بدأ الاتجاه إلى عدم استعمال اليهود حتى كعمال أو مهندسين. فرضت المقاطعات الاقتصادية على التجار ورجال الأعمال اليهود. في هذا الصدد كان "اتحاد الشريطة الخضراء" المقرب للحزب الديمقراطي القومي ناشطاً بشكل كبير.

فقد نظام الحكم قائده الكاريزمي حين توفي بيلسودسكي عام ١٩٣٥. كي يضمن البقاء، سعى النظام الحاكم لعقد تحالف مع الحزب الديمقراطي القومي ومع جماعات أكثر ميلاً للجناح اليميني. لقد كانت المعاداة للسامية وسيلة فعالة في دعوة الجماعات المختلفة للاتحاد. لم يقبل معسكر الوحدة الوطنية (OZN) الذي تأسس عام ١٩٣٧ كتقاعدة شعبية للنظام الحاكم التحاق اليهود كأعضاء به. في العام ذاته ونتيجة للقلق المعادية للسامية التي تضمنت الطلبة تم نصب ما يطلق عليه اسم "مقاعد الجيتو" في قاعات المحاضرات بالجامعات وكان على الطلبة اليهود الجلوس عليها. هذا الاستخدام المكثف للتحديد الرقعي الذي كان يستخدم فعلياً من قبل بشكل غير رسمي في العشرينيات من القرن العشرين كان له النتائج التالية:

في عام ١٩٢١-١٩٢٢ شكل اليهود حوالي ٢٥% من إجمالي الطلبة. غير أنه في عام الدراسي ١٩٣٨-١٩٣٩ انخفضت هذا النسبة لتصل إلى ٨% فقط. أدخلت الكثير من المنظمات المهنية قواعد معلنة أو غير معلنة حالت في الواقع دون انضمام اليهود أعضاء بها. في عام ١٩٣٧ وافقت الحكومة أيضا على "إحلال البولنديين محل غيرهم" في الاقتصاد من خلال مقاطعة اليهود من جانب السلطات والكنيسة الكاثوليكية. في عام ١٩٣٦ كان الذبح وفقا لطقوس اليهود والمسلمين والقرائن محدودا في مناطق معينة، غير أن اقتراحا بحظر القيام بهذا النوع من الذبح لم يمكن تنفيذه. في السنوات التالية أدت إثارة العامة إلى حدوث هجمات أسفرت عن سقوط الكثير من القتلى والجرحى. أدت كل هذه الإجراءات وإحياء المناخ المعادي لليهود إلى انغماس السكان اليهود في الفقر بشكل أكبر. أصبح عدد المعوزين أكبر بكثير عن ذي قبل. بما أن اليهود لم يعودوا محكرين لدور الوساطة الاقتصادية، كان من الممكن الزج باليهود إلى الهامش.

جاءت ردود الفعل على الوضع الجديد في شكل استقالات وارتفاع حوادث الانتحار وبين اليهود ولكن أيضا في شكل نشاط سياسي متزايد. في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، اكتسب المراجعون الصهيونيون الأصوليون الذين طالبوا بصرامة بإقامة دولة في فلسطين - ولو بقوة السلاح- شعبية كبيرة. شارك الكثير من اليهود البولنديين في العودة الخامسة ما بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٩. بيد أنه في عام ١٩٣٦ قامت الانتداب البريطاني بإغلاق الحدود ولم يكن من الممكن دخول البلاد بالطرق الشرعية. بدأ اعتبار سياسة البولند الطريقة الوحيدة لمواجهة معاداة السامية. من الهام في هذا الصدد أن نذكر أن البولند كان قد نظم وحدات للدفاع عن النفس وكان له حلفاء في الأحزاب البولندية اليسارية. أصبح البولند في ذلك الوقت

أقوى حزب يهودي وكان بوسعه أن يحتل المرتبة الأولى بين الأحزاب في المدن الكبرى في الانتخابات المحلية في عام ١٩٣٨ و١٩٣٩. كانت الشكوى العامة خلال هذه السنوات هي ظهور الميل إلى الانحلال الأخلاقي بين اليهود. على الجانب الآخر، هناك الكثير من الأدلة على عودة ازدياد الوعي بالتقاليد والثقافة اليهودية الشرق أوروبية المشتركة حتى بين الكثيرين الذين ابتعدوا عن الديانة اليهودية. قامت الكنيسة الكاثوليكية بشكل فعال بتشجيع هذا المناخ المعادي لليهود ومثلها مثل الحزب القومي الديمقراطي والحكومة تحدث عن اليهود بوصفهم عناصر من "المغتربين" المثيرين للمشاكل اقتصاديا والأدنى أخلاقيا. في هذا كانت الكنيسة ببساطة تكرر الأفكار المقولبة التقليدية حول اليهود. على الجانب الآخر، لم يكن سلوك الحكومة خاليا من التناقضات. على سبيل المثال، كانت الحكومة لاتزال تتعاون مع الجماعة الأرثوذكسية أجوداس سرائيل. تمتعت هذه الجماعة بتأييد الحكومة، وخشية من قيام اليساريين باستيلاء ثوري على السلطة لم تتورع عن التلاعب بنتائج الانتخابات في الجماعات اليهودية. علاوة على ذلك، أقامت الحكومة أيضا صلات مع الجماعات الصهيونية. رغم أن الحكومة كانت لا تزال تدين الهجمات على اليهود والقيام بأعمال العنف ضدهم، فقد فكرت بشكل فعال في كيفية دعم عملية هجرة اليهود. حتى في وزارة الخارجية كانت توضع الخطط لإعادة توطين اليهود لا فقط في فلسطين ولكن في مدغشقر أيضا - وهي الخطة التي فكر فيها النازيون أيضا لفترة. تركت بعض الجماعات السياسية نفسها تتجرف في سلسلة من الأفكار مماثلة لتلك التي جاءت "بقوانين العرق" بمدينة نورنبرج إلى حيز الوجود عام ١٩٣٥. لكن على العكس من الوضع في ألمانيا، لم يتبع ظهور هذه الأفكار في بولندا اتخاذ إجراءات ملموسة أو سن قوانين تمييزية.

كما حاولت الحكومة البولندية أيضاً منع اليهود البولنديين الذين استقروا خارج البلاد - في ألمانيا مثلاً - من العودة للبلاد . من وجهة نظرها كان يجب ألا يسمح بزيادة أعداد اليهود في بولندا . في الوقت ذاته أوجد هذا توازناً مع تصرفات الحكومة الألمانية التي تدخلت استجابة للتمييز ضد المواطنين الألمان في بولندا . أصبح اليهود في ذلك الحين هدفاً سياسياً دولياً . أدى هذا إلى نشوب صراعات مع النظام الاشتراكي القومي الحاكم الذي أراد طرد يهود شرق أوروبا . كان يجب إزاحتهم عن الطريق بصفة أساسية بسبب وضعهم كأجانب من خلال فرض المقاطعات وما شابهها من إجراءات .

في عام ١٩٣٨ وصلت هذه السياسة إلى أولى ذراها . في يناير قامت الحكومة الألمانية بطرد جميع اليهود السوفييت رداً على طرد ١٥٠ مواطناً ألمانياً من الاتحاد السوفييتي . غير أن الحكومة السوفييتية رفضت استعادة مواطنيها اليهود . نتيجة لذلك اختفى هؤلاء المواطنون ببساطة في معتقلات التعذيب النازية . في خريف عام ١٩٣٨ ، بعد قيام الوحدة قامت الحكومة البولندية بسحب المواطنة البولندية من ٢٠٠.٠٠٠ يهودي بولندي يعيشون في النمسا لمنعهم من العودة للبلاد . لعبت الأصول المملوكة هؤلاء اليهود دوراً محورياً في صدور هذا القرار . حينئذ غيرت الحكومة الألمانية القانون ليكون من الأسر طرد المواطنين البولنديين . سريعاً ما وصلت العلاقات بين البلدين إلى أسوأ ما يمكن . في أكتوبر "في بهيم الليل" قام النازيون بنقل ما بين ١٧.٠٠٠ و ٢٠.٠٠٠ يهودي بولندي إلى الحدود لترحيلهم إلى بلدتهم الأصلي . كان هذا نموذجاً وتمريناً على سلسلة لاحقة من الترحيلات . حظرت الحكومة البولندية دخول اليهود إلى البلاد وبعد أن تمكنت أعداد قليلة من دخول البلاد قامت الحكومة بإغلاق الحدود . وكرد على ما فعله النازيون قامت الحكومة البولندية بطرد اليهود الألمان . غاضباً من ترحيل أبويه عن البلاد الذين عاشوا

في هانوفر وتم التحفظ عليهم في ظروف غير إنسانية على الحدود، قام طالب يهودي بولندي يدعى هيرشيل جرينسبان بإطلاق الرصاص على الدبلوماسي الألماني إرنست فوم راث في باريس. اتخذ حادث الاغتيال هذا ذريعة للمذبحة المعروفة باسم "ليلة الزجاج المهشم" التي بدأت في التاسع من نوفمبر ١٩٣٨ واستمرت على مدار الأيام التالية. استأنفت المفاوضات بين الحكومتين البولندية والألمانية وفي عام ١٩٣٩ قبلت بولندا مواطنيها اليهود الذين تم إبعادهم من ألمانيا.

بعد هذا بوقت قصير حين تقدمت القوات الألمانية بجحاة بولندا في الأول من سبتمبر ١٩٣٩، وقف اليهود جنباً إلى جنب مع بقية السكان البولنديين للدفاع عن البلاد. كتب المؤرخ اليهودي إيمانويل رينجلبلوم في وصف هذا قائلاً: "لقد سيطر على يهود وارسو حماسة استدعت إلى الأذهان بقوة أحداث عام ١٨٦١، عهد "الصداقة الأبدية". إلى جانب التبرعات الكثيرة التي ساعدت على بناء دفاع مدني وساعدت على معالجة الجرحى شارك اليهود في عمليات إقامة الحصون حتى في أيام السبت. يتذكر برنارد مارك، مؤرخ يهودي آخر، مجموعة من الأفراد في وارسو: "في الصف الأول كان هناك خمسة حاخامات معروفين يرتدون قفطان طويل من الحرير الثقيل وقبعات من فرو السمور... تبعهم شباب من المجمع الحاخامي بمجاريف على منابكهم".^{١٠٧}

لم تكن الحرب في حقيقة الأمر مفاجأة لأي شخص - فباكراً في شهر يوليو تم حفر الخنادق ونصبت الثكنات في شوارع وارسو.

^{١٠٧} كلا الاستشهاديين في ماريان فوكس، وسيجموند هوفمان، وموريسي هورن وجيرسي توماس تسيفيسكي، اليهود البولنديون. تاريخ وثقافة (وارسو، غير مؤرخ [حوالي ١٩٨٣])، ص. ٤٤.٤

حتى المحاكمات أخذوا المجاريف وحفروا الخنادق. الآن حين كان هتلر علي وشك التقدم داخل بولندا، نسي البولنديون أحقادهم ضد اليهود وأصبحنا - فليساعدنا الله! - أمة واحدة.^{١٠٨}

بعد إحراز فيرماخت الألماني للنصر، فر الكثير من اليهود إلى جانب الكثير من المواطنين البولنديين من غير اليهود إلى الاتحاد السوفيتي. هناك انتظروا مصيرا غير معلوم. إن كان القليل منهم قد نجح في الارتحال إلى فلسطين فإن الكثير ممن بقوا في الاتحاد السوفيتي وقعوا ضحايا للإرهاب الستاليني والإبعاد والعمل في ظروف رهيبة. وضع خطير في دول شرق أوروبا

كانت "المسألة اليهودية" على علاقة مباشرة بالتصنيع والرأسمالية والتحرر والقومية. لقد أدت الصراعات الاجتماعية والقومية إلى استفحال بعضها البعض وكانوا بدورهم يندلعون بسبب الصراعات الدينية. لقد تم تعميم العداوة تجاه الطبقة العليا اليهودية التي شعرت بها الطبقات الصاعدة في خضم الصراع التنافسي القاسي مع زعماء الرأسماليين ليشمل جميع اليهود إلى جانب التمييز فيما يتعلق "بغربة" يهود شرق أوروبا. لقد راجت الفكرة المقولبة عن اليهود الماكربين والمؤذنين والمفسدين - الذين إلى جانب هذا انضموا إلى أعداء الأمة. في الاضطرابات التي حدثت بعد الحرب العالمية الأولى وأثناء إنشاء الدول التي ستخلف إمبراطورية أسرة هابسبرج والإمبراطورية الروسية والألمانية، ظهر هذا الصراع إلى العلن في كل مكان تقريبا وانفجر في عنف. نحى الناس باللائمة على اليهود في الهزائم وجميع المشكلات التي جابهتهم. حاولت الجماعات الشعبية كسب اتباع من خلال إثارة القلاقل المعادية للسامية.

^{١٠٨} أيزاك باشيفيس سينجر، حب قديم، قصص حب (ميونيخ - فيينا، ١٩٨٥)، ص. ٢٢٦ ("المخطوطة").

في هذا السياق، كانت هناك اضطرابات معادية لليهود في المجر وتشيكوسلوفاكيا. أثار "اليهود التشيكيون" العداء ضدهم أثناء الحرب. بسبب تجربة اليهود في روسيا، لم يستطع اليهود التشيكي أن يحملوا أنفسهم على اعتبار الروس محررين ومن ثم اصطدموا بتعاطف الجماهير مع السلافيين. بيد أن أول رئيس للجمهورية الجديدة، مزاريك، نجح في نزع فتيل الموقف المتفجر إلى حد ما مستخدماً كل قوة شخصيته لحل هذا الموقف. تم التوصل إلى هدنة محتملة بين اليهود والتشيكي التي لم يلق عليها بظلال الشك سوى الأقلية الألمانية كما جرت العادة الذين كانوا قلقين بشأن وضعهم. من المؤكد أن تضمن الدستور التشيكوسلوفاكي لبند يمكن من التصريح بالقومية اليهودية أسهم في خلق وضع متقائل. في إحصاءات عام ١٩٢١ و ١٩٣٠ شكل اليهود الذين استغلوا هذا الحكم في الدستور أكثر من ١% من سكان الجمهورية أما الذين أعلنوا أنهم يهود على أسس دينية فشكّلوا حوالي ٢.٥% (٣٥٠.٠٠٠ نسمة). ولدت النجاحات الاقتصادية والاجتماعية-السياسية الأولية مناخاً مواتياً وأدت إلى تقوية النزعات الاندماج التشيكية-اليهودية. وقبل الحزب اليهودي بالرفض من جانب كل من اليهود المندمجين والأرثوذكس لأنه أكد على مفهوم القومية وانخرط في الشؤون السياسية محققاً بذلك نتائج هامة. بينما اجتمعت كل هذه التيارات مع بعضها البعض، أصبحت براغ مرة أخرى مركزاً ثقافياً وفكرياً يهودياً. غير أن الوضع كان محفوفاً بالخطر على الدوام. أصبحت سلوفاكيا منطقة سيادة تحت حكم القس الكاثوليكي جوزيف تيسو (١٨٨٧-١٩٤٧) في عام ١٩٣٨ وأصبحت لعبة في أيدي الرايخ الثالث. لم يحدث فقط زيادة في سن القوانين المعادية للسامية بل حدث ترحيل لليهود عن البلاد وتأمّر حرس هيلينكا السلوفاك على قتل اليهود.

في الجحيم منذ بدايات عشرينيات القرن العشرين بدأت مرحلة من الاتحاد بعد أعمال العنف والهجمات الدامية في أعقاب الثورة والثورة المضادة. كان قانون التقييد الرقمي الصادر عام ١٩٢٠ الذي يقيد التحاق اليهود بالجامعة أحد نتائج الاضطهاد، بيد أنه ظل لوقت طويل المظهر الوحيد من مظاهر التمييز الرسمي. بسبب خسارة الجحيم لبعض أراضيها نتيجة أثناء الحرب العالمية الأولى، انخفض عدد اليهود من حوالي مليون نسمة عام ١٩١٠ إلى ما يزيد على ٤٧٠.٠٠٠ بقليل في ١٩٢٠ وهو ما يوازي ٦% من إجمالي عدد السكان. بحلول عام ١٩٣٠، انخفضت هذه النسبة لتصل إلى ٥% نتيجة لتنصر بعض اليهود وبشكل رئيس بسبب انخفاض معدلات المواليد بين اليهود. عاش حوالي نصف اليهود الجحيميين في بودابست. كما تركز اليهود الإصلاحيون هناك أيضا مشكلين حوالي ٦٥% من إجمالي السكان عام ١٩٣٠. عانى اليهود الأرثوذكس - بصفة رئيسية يهود أوروبا الشرقية - من مرحلة تدهور مقارنة بفترة ما قبل الحرب، لأن الكثير منهم استقروا في مناطق كانت تنتمي في ذلك الوقت إما إلى تشيكوسلوفاكيا أو رومانيا. كانوا يشكلون في ذلك الوقت حوالي ٣٠% من السكان اليهود. أما الخمسة بالمائة المتبقية فكانت ما يطلق عليه جماعات "الوضع الراهن" التي وقفت في منتصف المسافة بين النقيضين. لقد تسببت الأفعال المناهضة لليهود في الفترة الأولى للدولة الهنغارية الجديدة في تفكير الكثير من اليهود - بغض النظر عن اختلاف آرائهم الدينية أو السياسية - مليا في طبيعة اليهودية. مما لا يدع مجالا للشك مكنهم هذا من الاعتراف الاجتماعي بهم. في الثلاثينيات من القرن العشرين، بدأت معاداة السامية تنمو مرة أخرى وسنت التشريعات بشكل متزايد - في ظل التأثير الألماني. في البداية قاومت الحكومة تسليم اليهود الهنغاريين للنازيين. بيد أنه في عام ١٩٤٤ تحت وطأة الضغوط الألمانية

وبمساعدة المنظمة الفاشيستية أروكروس "الصليب السهمي" تم إدراج اليهود في "الحل النهائي". غير أنه تم إنقاذ بعض اليهود بطرق مختلفة.

في رومانيا تعرض الكثير من اليهود للاضطهاد أثناء الحرب العالمية الأولى بزعم أنهم حلفاء أو حتى جواسيس لمملكة هابسبرج. بالاستيلاء على بيسارابيا من روسيا، وبوكوفينيا من النمسا وترانسيلفانيا من هنغاريا بنهاية الحرب العالمية الأولى، ازداد عدد السكان اليهود الرومانيين إلى حوالي ٨٠٠.٠٠٠ يهودي أو ٤.٥% من إجمالي عدد السكان في عام ١٩٢٠. بنهاية العشرينيات من القرن العشرين وصل العدد إلى حوالي مليون يهودي وبذلك يكون أكبر عدد لليهود في أوروبا الشرقية بعد بولندا (ثلاثة ملايين يهودي) وروسيا (تقريبا ثلاثة ملايين). طالب اليهود بالحصول على المساواة في الحقوق بموجب القانون وهو الأمر الذي كانوا يتمتعون به في بوكوفينيا على سبيل المثال. تحت وطأة الضغط من قبل الحلف، وافقت الحكومة الرومانية في النهاية على التطبيع الكامل مع اليهود. تم إدخال حقوق مساوية لليهود في دستور عام ١٩٢٣. بيد أنه بعد عام واحد فقط من ذلك، تم فرض القيود فيما يتصل بهذه الحقوق التي كان اليهود قد حصلوا عليها مؤخرا. لم يعترض سوى الاشتراكيين غير أنهم كانوا في غاية الضعف. وجدت الخطب الحماسية المعادية للسامية التي تلمح إلى أن اليهود خطفوا أفضل الوظائف من الرومانيين صدى كبير. وجدت هذه الأفكار أذانا مصغية بين الدوائر الأكاديمية بين الطلاب والأساتذة الجامعيين. في الوقت ذاته خيم شبح اندلاع ثورة اجتماعية - بزعامة "البلاشفة اليهود".

من بين الطلبة تجمع الأعضاء الأوائل في "فيلق كبير الملائكة ميكائيل". تأسست هذه المنظمة عام ١٩٢٧ وانبثق عنها عام ١٩٣٠ الحرس الحديديون [الاسم الذي يشيع استخدامه بين غير

الأعضاء]. لم يتورع الحرس الحديديون عن قتل القضاة و- في عامي ١٩٣٣ و١٩٣٨- لم يتورعوا عن اغتيال الرؤساء الذين اتخذوا إجراءات مناهضة للمنظمة. بسبب الأزمة الاقتصادية التي حدثت في نهاية العشرينيات من القرن العشرين، اكتسبت هذه المنظمة جماهيرية كبيرة. في ذلك الوقت كانت المنظمة تتلقى دعما ماليا من جماعات ألمانية. قام الحزب الاشتراكي القومي الحاكم برفع معوته للحرس الحديديون وللأحزاب الأخرى المعادية للسامية حتى بعد وقوع الاغتيال عام ١٩٣٨ حين فقد الحرس الحديديون التأييد. تولى الجنرال أتونيسكو (١٨٨٢-١٩٤٦) مقاليد السلطة بعد توقيع ميثاق هتلر وستالين الذي عقد عام ١٩٤٠ وانطوي علي إجحاف لرومانيا. لفترة وجيزة ضمت حكومة أتونيسكو أيضا أعضاء من منظمة الحرس الحديديون. حاول الحرس الحديديون القيام بعصيان مسلح ضد أتونيسكو في يناير عام ١٩٤١ إملين في الإمساك بزمام السلطة. أعقب هذا مباشرة هجوما عنيفا على اليهود أسفر عن مقتل ٦٠٠ يهودي في بوخارست وحدها. في نهاية يونيو ١٩٤١، مباشرة بعد اندلاع الحرب ضد الاتحاد السوفيتي، قام الرومانيون والألمان بأعمال عنف ضد يهودي إياسي متهمين إياهم بالتواطؤ مع الروس. سقط على الأقل ١٢.٠٠٠ ضحية لأعمال العنف هذه. استمر أعمال القتل في اليهود فيما بعد في المناطق التي تم غزوها في بيسارابيا وبوكوفينيا وأوكرانيا. بيد أنه في السنوات التي تلت ذلك كان من الممكن - سبب التمثيل الشجاع لكبير الحاخامات برومانيا ألكسندر سافران أمام المطران الأرثوذكسي والسفير البابوي في رومانيا- إنقاذ الكثير من اليهود منهم الكثير من اللاجئين من بولندا والجر من التعرض للإبعاد.

في بلغاريا عام ١٩٤٣ بينما ارتفع عدد اليهود في الوقت نفسه إلى حوالي ٥٠.٠٠٠ نسمة، فإن احتجاجات الكثير من المواطنين -

إلى حد القيام بمظاهرة عامة- حالت دون نقل ٨٠.٠٠٠ يهودي إلى معتقلات الإبادة رغم تقديم الحكومة وعودا للنازيين بذلك. في يوغوسلافيا قبل الحرب العالمية الثانية، كان للآراء المعادية للسامية أثر طفيف نسبيا على الشؤون السياسية. في عام ١٩٣٠ عاش حوالي ٧٠.٠٠٠ يهودي هناك أغلبهم في كرواتيا حيث هاجروا إلى هناك من الجرب بصفة رئيسية. بيد أن حركة أوستاسا الكرواتية أدانتهم باعتبارهم أعداء القومية الكرواتية ورعاة للدولة اليوغوسلافية الموحدة التي يحكمها الصرب. تحت حكم الحكومات المعتمدة على الاشتراكيين القوميين وحلفائهم، وقع اليهود هنا أيضا ضحايا "للحل النهائي". من جهة أخرى، رفضت ألبانيا التي احتلتها إيطاليا في البداية ثم وقعت تحت الاحتلال الألماني تسليم مواطنيها من اليهود.

بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، انسحبت دول البلطيق من الإمبراطورية الروسية. لعبت قضية الأقليات القومية التي تعرضت للقلقل السياسية والاقتصادية دورا هاما في تلك الدول. في ليتوانيا كان حوالي ٨% من إجمالي السكان من اليهود. مثل اليهود في لاتفيا حوالي ٦% من إجمالي السكان وفي إستونيا اقل من ١%. وضعت دساتير هذه البلاد رؤى لحقوق موسعة للأقليات تنطوي على استقلالية ثقافية ومنحهم فرص للتمثيل النيابي. في ليتوانيا فيما يتصل بالحقوق التاريخية للإدارة الذاتية، كان يوجد مجلس قومي لليهود ووزير يضطلع بمسئولية محددة للشؤون اليهودية. حين وصل الوضع الداخلي إلى الذروة، زادت الاضطرابات الوطنية وبعد التحول إلى نظام الحكم الفاشي بنهاية عام ١٩٢٦، فقد اليهود حقهم في التمثيل السياسي. كما اتبعت لاتفيا أيضا هذا النسق. فقط في إستونيا استطاع اليهود الاستمرار في العمل سويا مع وجود مجلس ثقافي للأقليات رغم وجود

نظام حكم فاشي. بعد غزو الجيش الألماني لهذه المنطقة في الحرب العالمية الثانية، خضع اليهود لسياسة إبادة منهجية. محاولة إبادة اليهود

لم يكن واضحاً منذ البداية معنى "إبادة" اليهود. باكراً في عام ١٩١٩ تحدث هتلر عن "إزالة اليهود من بين شعبنا" وفي كتابه "كفاحي" عام ١٩٢٤ تحدث عن "القتل بالغاز" وأيضاً عن التخلص من "الطفيليات" و"الديدان". كما تحدث الأيديولوجي الرئيسي للحزب روزينبيرج مستخدماً نفس الألفاظ: كان يرى اليهود مصاصي دماء ومفسدين للجنس الألماني ومتآمرين سياسيين وبلاشفة بطبيعة الحال ويجب بالتالي إبادتهم.

بعد تولي النازيين للسلطة، في البداية تم حرمان اليهود في ألمانيا من حقوقهم الواحد تلو الآخر. من بين أهم الإجراءات التي اتخذت ضدهم مقاطعة الأول من أبريل ١٩٣٣، قانون السابع من أبريل ١٩٣٣ الذي أدى إلى فصل العمالة اليهودية من الحكومات المحلية والمحاكم والجامعات إلى جانب "قوانين نورمبرج العرقية" التي سنت في

^{١٠٩} ورد على لسان بيرند مارتن، اضطهاد اليهود وإبادتهم في عهد الدكتاتورية الاشتراكية القومية، في كتاب اليهود كأقلية في التاريخ، تحرير برند مارتن وإرنست شولين (ميونيخ، ١٩٨١)، ص. ٢٩٠-٣١٥، هنا ص. ٢٩٥-٢٩٨؛ فولفجانج شيفلر، الطريق إلى الحل النهائي، معاداة السامية من كراهية اليهود حتى الهولوكوست، تحرير هربرت أ. شتراوس ونوربرت كامبي (بون، ١٩٨٥)، ص. ١٨٦-٢١٤، هنا ص. ١٩١. ينبغي أن توضح هذه نوع الأفكار التي أثرت على مسار فكر لقادة النازية ودعاية النازي. لا أقصد أن ألمح إلى أنه كان هناك خط مباشر من الاستمرارية منذ المظاهر الأولى وحتى العمليات الأخيرة لقتل اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية.

١٥ سبتمبر ١٩٣٥ والقانون الذي يخرج اليهود من الاقتصاد الألماني في ١٢ نوفمبر ١٩٣٨ بعد "ليلة الزجاج المهشم". كانت الإجراءات الجذرية ضد اليهود، خاصة إجراءات عامي ١٩٣٣ و مرة أخرى عام ١٩٣٨، بصفة عامة مدبرة لإيجاد مخرج للمتممرين المعادين للسامية ومن جهة أخرى لإعداد قيود تشريعية ووصفهم "كتهبير عن المشاعر الشعبية" وبالتالي إضفاء صبغة شرعية على هذه الأعمال. قبلت القواعد والقوانين التمييزية بالترحاب الشديد من قبل المعادين للتقليدين للسامية في البيروقراطية وأيضاً من جانب المشغولين بالدوائر التجارية الذين استولوا بحماسة على الشركات اليهودية. في عام ١٩٨٨، تمكن عدد ضخم من الشركات من الاحتفال بمرور خمسين عاماً على إنشائها - إحدى نتائج "التوجه إلى الجنس الآري" بالاقتصاد الألماني عام ١٩٣٨.

في عام ١٩٣٧ رأى جوزيف روث الأمور بوضوح إذ قال: يمكن لليهود الحصول على المساواة التامة في الحقوق والقيمة التي تمنحها الحرية الخارجية فقط حين يحصل الشعب المضيف على الحرية الداخلية والقيمة التي يمنحها إياهم إدراك معنى المعاناة. وبالكاد لا يمكن تصديق أن الشعب المضيف سيحصل - دون معجزة من السماء - على مثل هذه الحرية والقيمة. بالنسبة لليهود المتدينين، يبقى لهم عزاء السماء أما بالنسبة للبقية "فويل للمنهزمين".

سعت فرقة الحماية المعروفة باسم (SS) - التي كانت منذ بداية عام ١٩٣٩ بناءً على أوامر جورينج مسئولة عن السياسات تجاه اليهود - إلى حل المشاكل من خلال الفصل "العنصري" الواضح

^{١١٠} جوزيف روث، يهود التيه، مقدمة للطبعة الجديدة، ص. ٣٦٨ -

أي من خلال طرد اليهود. بداية اختار عدد قليل من اليهود الهجرة خارج البلاد. لكن أغلب اليهود أرادوا البقاء في ألمانيا لأنهم لم يتمكنوا حتى من البدء في تصور ما تحبّه لهم الأقدار واعتقدوا أنه رغم حرمانهم من حقوقهم فبوسعهم العيش داخل إطار ثقافتهم الخاصة. في ذلك الوقت كان هناك دعم واسع للثقافة اليهودية. فقد شهد المسرح والتعليم والدين اليهودي ازدياداً كبيراً في شعبيتهم لأن النازيون عمدوا إلى الإمعان في فصل اليهود عن بقية الشعب بهذه الطريقة. بينما ازدادت وطأة التمييز ضد اليهود، هاجر اليهود خاصة الميسورين منهم عن البلاد. قرابة نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين، سلك في المتوسط حوالي ٢٣.٠٠٠ يهودي هذا النهج سنوياً. في بولندا في نفس هذا الوقت بلغ عدد المهاجرين سنوياً ١٠٠.٠٠٠. على الجانب الآخر، لم تجعل نتائج المؤتمرات الدولية للاجئين أو رفض البلدان الغربية دعم الهجرة اليهودية من قرار الهجرة قراراً سهلاً.

بعد أن خسر اليهود جميع حقوقهم وتقريباً جميع ممتلكاتهم - لم يعد حوالي ٧٠% من اليهود المستخدمين قادرين على العمل لكسب رزقهم - قررت فرقة الحماية (SS) أن الوقت أصبح مناسباً لإبعادهم. كان ثلث اليهود الألمان قد هاجروا بالفعل. حتى أكتوبر ١٩٤١، قامت فرقة الحماية - ضد رغبة الحزب ووزارة الخارجية - بإجراء ترتيبات لهجرة الثلث الثاني من اليهود. كان أدولف أشمان - الذي كان يتزعم حينذاك القطاع اليهودي لمكتب الرايخ الرئيسي للأمن (RSHA) - على اتصال بالمنظمات اليهودية منذ عام ١٩٣٥ لهذا السبب. بقي الثلث الأخير من السكان اليهود - حوالي ١٦٠.٠٠٠ نسمة - في ألمانيا.

بهزيمة بولندا عام ١٩٣٩، ازدادت صعوبة انتهاج سياسة ممارسة الضغوط على اليهود لدفعهم للهجرة. لم يكن من الممكن إرسال

حوالي الثلاثة مليون يهودي الموجودين في بولندا خارج البلاد بغض النظر عن أي أسباب أخرى لأنه ببساطة لم يقبل أي مكان آخر أن يرحلوا إليه. منذ البداية تعاملت فرقة الحماية والوحدات الخاصة المنشئة لهذا الغرض مع هؤلاء اليهود بلا هوادة. إلى حد ما كانت هذه الفترة تدريباً على إبادة اليهود التي تمت في وقت لاحق. ظهرت خطة لتوطين جميع اليهود الموجودين في "محمية" جنوب مدينة لوبلين. في بداية عام ١٩٤٠ بدأت عملية الترحيل الأولى لليهود. غير أن أقساماً من الحزب أحبطت هذه الخطة لأنهم لم يريدوا لأي يهودي أن يتواجد في "الفضاء المعيشي" الألماني.

نتيجة لذلك، تم إحياء مشروع قديم: إنشاء دولة يهودية في مدغشقر إن أمكن تحت مظلة حكم ألماني. انحاز هيملر لهذه الخطة لأنه في البداية اعتبر عمليات القتل الجماعي لليهود عمليات "غير ألمانية". كان هتلر يحاول استكشاف آراء موسوليني بهذا الصدد. كان من المزمع أن يكون يهود بادن ومنطقة زار بفالتس "في الطليعة". بنهاية أكتوبر ١٩٤٠، تم ترحيلهم إلى جورس ومعسكرات أخرى بفرنسا لانتظار ترحيلهم إلى أفريقيا. غير أن مسار الحرب أحبط هذه الخطط: لم يكن السلام خياراً بريطانيا ومع غزو الاتحاد السوفييتي في ٢٢ يونيو عام ١٩٤١ تم نقل اليهود إلى هناك ليتم قتلهم على يد ما يطلق عليه اسم القوات الخاصة ووحدات فرقة الحماية واشتركت في هذا أيضاً وحدات من قوات الدفاع الألمانية في عصر النازي. غالباً ما شاركت في عمليات القتل هذه القوات المحلية. لم تعد فكرة ترحيل اليهود المتبقين إلى مناطق غير مأهولة في الاتحاد السوفييتي عند غزوه قابلة للتنفيذ. من ثم بدأ القرار يتشكل منذ صيف ١٩٤١ بالقيام بإبادة شاملة منهجية لليهود؛ القرار الذي رفعه هتلر في ديسمبر ١٩٤١ - في نفس توقيت إعلان الحرب على الولايات

المتحدة- إلى مرتبة المبدأ العام. ناقش "مؤتمر فانيشا" المنعقد^{١١١} يناير ١٩٤٢ تنظيم عملية الإبادة التي كانت تتم الآن بشكل منهجي في جميع الأراضي التي امتد إليها نفوذ النازي. بدأت غرف الغاز في أوسشفيتز عملها في ربيع عام ١٩٤٢ وتبعها الكثير من معسكرات الإبادة الأخرى. سقط حوالي ٦ مليون يهودي ضحية "للحل النهائي".

لا يمكن وصف حياة اليهود في الشرق تحت نير الاستعمار الألماني- في مناطق الجيتو والمعسكرات. كان عليهم تشكيل "مجالس يهودية" لتنظيم الإدارة- بما فيها ترتيبات نقل اليهود إلى غرف الغاز. حاولت الكثير من المجالس اليهودية إنقاذ حياة من يعيشون في الجيتو بإقناع النازيين بأن المهارات التي يتمتع بها بعض هؤلاء اليهود ضرورية للغاية أو كانوا يضحون ببعض أملا في نجاة الباقين. ربما كان رئيس المجلس اليهودي في مدينة لودز موردخاي تشايم رومكوفيسكي أوضح الأمثلة على هذا. رغم إجراء عدد من عمليات الترحيل استمر الجيتو موجودا حتى عام ١٩٤٤. حينها تمت "تصفية" أيضا. سار رومكوفيسكي ليلقى حقه مع الآخرين. اختار رئيس المجلس اليهودي بوارسو- آدم تشيرنياكوف (١٨٨٠-١٩٤٢) الانتحار حين أجبر على ترتيب عمليات ترحيل أطفال من اليهود. لم تكن هذه الحالة الوحيدة، فقد رفض آخرون تنفيذ أوامر الألمان مفضلين أن يلقوا حتفهم رميا بالرصاص. يمكن العثور على سجلات المجلس اليهودي في وارسو من عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٢ في الأرشيف القومي بمدينة وارسو. إلى جانب البيانات المتنوعة

^{١١١} وردت في ليس هناك طريق للعودة... قصص و للجيتو من فيلنا، تحرير فلوريان فرويند وآخرون (فيينا، ١٩٩٢)، ص. ٥٣. الشبه ينطبق على إيشعيا إصاح ٥٣: ٧.

حول ظروف السكن والغذاء والتعليم، توجد أيضاً وثائق تخص "كثائب العمل" والظروف الرهيبة في معسكرات العمل. في بداية عام ١٩٤٢ كان لايزال هناك ٤٠٠.٠٠٠ يهودي في جيتو وارسو. تم تعيين حوالي ٧٤% من القادرين على العمل بينهم في الحرف اليدوية و٢٤% تم تشغيلهم بالتجارة و٥% بالصناعة و٢٤% في وظائف أخرى. سريعا ما أدت الجوع إلى رفع معدلات الوفيات بين اليهود بدءاً من عام ١٩٤١. تنتهي السجلات بتوجيه اتهامات عقوبتها الإعدام بغرف الغاز في المناطق السكنية لليهود.

حاول بعض اليهود انتهاج المقاومة المسلحة. حدثت ثورات في مناطق مختلفة من الجيتو على سبيل المثال في وارسو في أبريل-مايو ١٩٤٣ وفي لفيف (المبرج) في يونيو من عام ١٩٤٣ وفي بياليستوك في أغسطس وفي فيلينوس في سبتمبر ١٩٤٣. تم قمع جميع هذه الثورات بوحشية ولم ينج سوى عدد قليل من اليهود المشاركين في هذه الثورات. كان من ضمن الناجين ماريك إيديلمان الذي عمل فيما بعد طبيباً في لودز. كان أحد المؤسسين لنقابة التجار في الحرة. من المدهش أنه كان على الدوام رافضاً لتمجيد مناضلي الجيتو. منذ ١٩٤٥، غالباً ما كانت تثار تساؤلات حول سبب عدم استجابة اليهود للدعوة إلى التسليح التي أطلقها من فيلينوس أبا كوفنر (١٩١٨-١٩٨٧) في نهاية عام ١٩٤١ بدلاً من "الذهاب كالحملان إلى الذبح" غالباً ما يغطي هذا التساؤل على وخز الضمير حيث أنه كان من الممكن القيام بأكثر من هذا لمساعدة هؤلاء المضطهدين. حتى الصهيونيين سعوا في خضم نضالهم لإنشاء دولة إسرائيل وفي نظرهم للتاريخ محاكاة الذين شاركوا في الثورات. على الجانب الآخر أعلن ماريك إيديلمان:

يجب ألا يقل احترام الموت في غرف الغاز عن الموت على أرض المعركة إذ يكون الموت غير جدير بالتقدير فقط حين يحاول المرء

إنقاذ حياته على حساب الآخرين. ... إنه لشيء مرعب حين يتوجه المرء لقضاء نخبه بهذه الطريقة. ربما كانت هذه الميثة أصعب من الموت رميا بالرصاص فالموت بهذه الطريقة أسير بكثير.^{١١٢}

طالما ذاع وصف اليهود - خاصة يهود شرق أوروبا - كأذلاء جبنا. غير أن تاريخهم يبين أنهم تحت ظروف معينة يمكنهم على وجه اليقين النضال والمقاومة. لكن العمل المسلح لم يكن يعتبر عملاً جيداً. كقاعدة عامة، استجاب الناس للعنف بالتذرع بالصبر. من وراء هذا كان هناك الإيمان بمشيئة الرب والخلاص المنتظر ومجموعة مختلفة من القيم تتسم بمثل أعلى من تلك التي تتسم بها قيم المحاربين - منها التعلم على سبيل المثال - والتبصر في لأجدوي العنف. العنف لا يولد سوى العنف. أثرت هذه الاعتبارات أيضاً على كيفية تصرف اليهود في عهد النازيين خاصة وأن نطاق الإبادة الوشيكة كان في البداية مهولاً بدرجة لا يمكن تصورها بحيث لم يكن من الممكن تنظيم أية حركات مقاومة. كانت هناك أيضاً محاولات في الجيتو وفي معسكرات الإبادة للحصول على ميزات صغيرة أو كبيرة وحتى لإنقاذ حياة المرء ولو على حساب الآخرين. ترى من ممن لم يكونوا هناك يمكن محاكمته؟ في ذات الوقت، في سلوك الحسيدي الذي ذهب للقاء حقه داعياً " «اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيل: الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ» " (سفر تثنية الاشتراع الإصحاح ٦؛ الفقرة ٤) وفي مسلك الزوجة التي لم ترد لزوجها أن يواجه النهاية وحده والمدرس والمربية اللذان اصطحبا أطفالهما إلى غرفة الغاز وواسوهم وحكاية الرجل الذي فقد صوابه من الخوف وفرط المذلة حتى أنه حفر قبره بيديه رغم

^{١١٢} هانا كرال، أن تحبط أعمال الرب (فرانكفورت، ١٩٩٢)، ص.

علمه بما كان ينتظره من مصير. في كل هذه الحكايات نفس القدر من الشرف والكرامة التي يتسم بها الكفاح المباشر ضد القاتل.

هل كان بوسع البولنديين فعل المزيد لمعاونة اليهود؟ ربما كانت هذه القضية موضوع الجدل الدائر في بولندا هذه الأيام مثلما هي موضع الجدل بين اليهود أنفسهم. هناك إجماع علي أن المنظمات البولندية لإغاثة اليهود كانت الوحيدة من نوعها في أوروبا بالكامل وأنه كانت هناك الكثير من الأعمال الفردية لم يد العون لليهود. تقريبا لم تشهد أي بلد آخر هذه النسبة الضخمة من الأفراد الذين مدوا يد المساعدة لليهود وتقف قائمة أسماء المكرمين لهذا السبب في ياد فيشام بأورشليم شاهدا على هذا. بيد أن الكثيرين يرون أن مثل هذه الأفعال كانت هي الاستثناء. لطالما لعبت الميول المعادية للسامية دورا حاسما وظلت العلاقات بين اليهود والبولنديين غير متقاربة. حتي في المخابيء لم تكن هناك صلات كبيرة بين اليهود والبولنديين. باي الأحوال علينا أن نضع في الاعتبار حقيقة أن الكثير من محاولات انقاذ اليهود ظلت خارج دائرة الضوء أو لم تصب النجاح وأن الكثيرين الذين كانوا على استعداد لم يد العون لم يترجموا رغبتهم هذه إلى أفعال خوفا من النازيين. فأي شخص يتم القبض عليه بتهمة مساعدة اليهود بأية وسيلة يدفع حياته ثمنا لهذا. تقريبا كانت كل أسرة يهودية يمزقها القلق على أحد أفرادها الموجود بالمعتقلات أو السجن أو السخرة. أحدثت الهجمات المتواصلة وعمليات الإعدام العلنية وإحراق قرى كاملة عن بكرة أبيها الأثر الذي كان يرجوه مرتكبوها.

اليهود في بولندا ما بعد الحرب
معاناة جديدة وأمل جديد

بنهاية الحرب كانت معاناة اليهود في أوروبا الشرقية أبعد ما تكون عن نهايتها. اضطر الكثير من اليهود للبقاء في ألمانيا في ظل ظروف

سيئة بوصفهم "مرحلين" في المعسكرات. لقد سبق لنا ان ذكرنا شيئاً عن مصير اليهود في الاتحاد السوفييتي وغيره من البلاد الواقعة تحت سيطرته. في بولندا كان اليهود في وضع غريب. فبعد وقت قصير من انتهاء الحرب حين كان النظام السياسي القادم موضع نقاش، جرت هناك هجمات أخرى ضد اليهود في كراكو وبارسيزو وكايلس وأماكن أخرى حصدت حياة مئات اليهود. في كايلس وحدها- في الرابع من يوليو من ١٩٤٦- قتل ٤٢ شخص. بصفة عامة، لعبت الشائعات حول قيام اليهود باستخدام الدماء البشرية في الطقوس الدينية دوراً مساعداً. زاد من لهيب الوضع الصراعات بين الشيوعيين وخصومهم. بعضهم - وهنا مرة أخرى يتعين إلقاء بعض المسؤولية على عاتق الكنيسة الكاثوليكية- استغلوا التحيزات ضد اليهود في صراعاتهم ضد الشيوعيين: الكثير من أعضاء الحزب الشيوعي البولندي كانوا من اليهود التحقوا بالحزب على أمل أن الاشتراكية في بولندا ستمكن في النهاية من خلق المجتمع الذي يمكن لليهود أن يشعروا داخله بأنهم داخل وطنهم. كان بعض اليهود أيضاً نشطين في الشرطة السياسية وتورطوا في ارتكاب جرائم: اعتبر سلوكهم هذا حينئذ خاصية مميزة لليهود بصفة عامة. إضافة إلى هذا كانت هناك مشكلة أن الأملاك اليهودية وقعت الآن في أيدي أشخاص جدد وعادة ما لم يرغب هؤلاء الأشخاص في ردها لأصحابها الأصليين. هناك الكثير الذي لا يزال مجهولاً لنا بشأن أحداث الهجمات ضد اليهود. الخطوات الأولى الآن كانت تتخذ في بولندا لإجراء أبحاث على هذه الأحداث بدافع من التضامن. في ذلك الوقت كانت النتيجة الرئيسية بدء موجة جديدة من الهجرة اليهودية. تبع هذا إبادة الموظفين بالحزب اليهودي على تطبيقاً لسياسات ستالين. غير أن هذه الإبادة لم تكن بمثل وحشية تلك التي جرت في تشيكوسلوفاكيا أو المجر. حتى في السنين اللاحقة

استخدمت الفصائل الحزبية المختلفة المعاداة للسامية للتخلص من خصومهم السياسيين. في عام ١٩٦٨ وصل هذا الشكل من الصراع إلى ذروته. في حكم جومووكا المتحجر اندلعت صراعات جديدة على السلطة داخل الحزب. في وضع متفجر أدت مظاهرات طلابية مطالبة بحرية أكبر في المدارس الثانوية إلى حدوث مصادمات مع قوات الشرطة. انتشرت الاضطرابات في البلاد وأشار أحد فصائل الحزب بأصابع الاتهام نحو اليهود. تمت الإحالة إلى الحرب العربية-الإسرائيلية لعام ١٩٦٧ التي تم تصوير الصهيونيين فيها كمعتدين. من يتحدث علانية عن إسرائيل كان يعد مؤيدا لسياساتها. بهذا "المنطق" تم تصوير اليهود في بولندا باعتبارهم مؤيدين لسياسة العدوان. للحفاظ على نفوذه، قام رئيس الحزب جومووكا بتبني هذا الموقف. الأمر الذي أسفر عن ردة فعل حادة معادية لليهود التي طال تأثيرها في البداية أعضاء الحزب الشيوعي ثم إلى آخرين في أجزاء أخرى من المجتمع- خاصة في العلوم والفنون. خسر الكثيرون وظائفهم وتم استجوابهم وحتى اعتقالهم. مصدومين بهذه الموجة غير المتوقعة من المعاداة للسامية، غادر معظم اليهود المتبقين البلاد. ولم يبق سوى حوالي ٥.٠٠٠ يهودي. مدفوعة بالنقاشات الصريحة نسبيا بين اليهود والبولنديين في سوليدارنوسك والمطبوعات الكاثوليكية وأيضا في الصحافة الرسمية الحكومية والبيانات العامة وفي عام ١٩٨٨ حتى داخل الحزب الشيوعي، تم إجراء مناقشة تتعلق بأحداث ١٩٦٨ التي أدت إلى إدانة معاداة السامية وسلوك قيادة الحزب في ذلك الوقت دون إلقاء الضوء على خلفية هذه الأحداث بشكل كامل. في الجمل، لبرهة من الوقت اتخذت السياسة الرسمية تجاه اليهود منحى مختلف. بدأ التمييز ضد اليهود يختفي وتلقت المعاهد اليهودية مرة أخرى دعما حكوميا أكبر. بعد سقوط النظام الشيوعي الحاكم في عام ١٩٨٩/ ١٩٩٠، استطاعت الحياة

اليهودية أن تتطور في جو من الحرية التامة حتى حين عادت المعاداة للسامية إلى الظهور مرة أخرى. بيد أنه من بين ٣ ملايين يهودي الذين يعيشون في بولندا قبل الحرب العالمية الثانية لم يتبق سوى ٥.٠٠٠ يهودي. ألم يكتب هذا كلمة النهاية لليهود شرق أوروبا؟

في الواقع اليهود الذين يعيشون في بولندا اليوم معظمهم يعيش في ظل ظروف سيئة. فالكثير منهم يعيشون في وحدة ويعانون من المرض. يبلغ متوسط أعمارهم سبعين عاما. غالبا ما يكونون اقل من النصاب الشرعي (المينيان) الضروري لإقامة الطقوس الدينية. حين قام اثنان من الشباب البولندي بتتبع آثار آخر اليهود، أخبرتهم امرأة يهودية بما يلي:

"أنا حاققة على ربنا."

فسألتها مندهشا: "لماذا؟"

طأطأت العجوز رأسها قائلة:

"حسن... على أي حال من المفترض أننا الشعب المختار ولكن ما جلبها لنا؟ الدماء... المزيد من الدماء والكراهية والمذابح البشعة... لقد فكرت في هذا الأمر وأحيانا أعتقد أنه كان سيكون من الأفضل لنا إن لم ينجرتنا نحن. كان يجب أن يتركنا وشأننا لنعيش كالآخرين."^{١١٣} غير أنه لاتزال هناك مؤشرات تدعو للتفاؤل. لا يال بعض اليهود جهدا للحفاظ على التقاليد القديمة وتوريثها لأبنائهم. في عام ١٩٨٥ أقيم احتفال بار ميتسيفاه (بلوغ سن التكليف الديني) في وارسو لأول مرة منذ ثلاثين عاما حيث تم قبول صبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما كعضو في الجماعة اليهودية. كان هذا مصدرا لنخم هائل. الكثيرون ممن كانوا "يخفون" يهوديتهم في بولندا ما بعد

^{١١٣} مالجورزاتا نيتز ابيتوفيسكا وتوماس توماستسييفسكي، آخر اليهود في بولندا (شفاهوسين وآخرون، ١٩٨٧)، ص. ٥٥.

الحرب عادوا الآن إلى حظيرة اليهودية. استمر عدد اليهود في التزايد. هناك تقارير حول بعض الشباب الذين لم يربوا في ظل التقاليد اليهودية والذين يعربون بوحي عن ديانتهم اليهودية غالباً تحت ظروف صعبة.

خلفي يقف تاريخ أسرتي والتاريخ الطويل لشعبي. كان الأمر الأهم بالنسبة لنا نحن اليهود كان على الدوام تربية أبنائنا كيهود. لو كان لي أن أدير ظهري لتقاليد اليهود البولنديين الآن - وأنا على علم تام بهذا - سيكون هذا خيانة لكل شيء قام به شعبنا على مر القرون السابقة. كان هذا يعني أن اليهود في بولندا كان عليهم أن يندمجوا منذ وقت طويل وأن الهولوكوست في النهاية كان نوعاً من العقاب لهم على حمقهم. عندئذ، سيكون الرعب الذي يثيره التفكير في ملايين الموتى من بيننا النتيجة الوحيدة للإبادة.

بعد سيمون داتنر من المؤرخين الثقات. ولد في كراكوف في ١٩٠٢. كمدرس أقام مع أسرته في بياستوك حيث عاش إبان الحرب العالمية الثانية وأثناء الغزو الألماني للبلاد. في الجيتو انضم داتنر إلى منظمة مقاومة لم تستطع الحؤول دون مقتل معظم اليهود. كانت زوجة داتنر وابنتاه بين القتلى. في المعهد اليهودي للتاريخ في وارسو، مر داتنر بالتطورات المتناقضة والمعادية لليهود في بولندا ما بعد الحرب. في عام ١٩٥٣ ترك المعهد وعمل كعامل بناء. في وقت لاحق استطاع أن يعمل كمؤرخ مرة أخرى. في عام ١٩٦٨ تمت "إحالة على المعاش" غير أنه بعدها بوقت قصير أصبح مديراً

^{١١٤} في نفس الموضع. ص. ٥٧-٧٥، هنا ص. ٧٤؛ احتفالات

البارميتسفا، ص. ١٣٧-١٥٠؛ نموذج للتغير الواعي للتقاليد، ص.

للمعهد لفترة وجيزة. فيما بعد عملت ابنته من زواجه الثاني بالمعهد كمؤرخة.

يقول داتنر عن سلوك البولنديين أثناء إبادة اليهود في الحرب العالمية الثانية:

"علي أن أشدد على أن ٩٠% من هذه الأفعال القاتلة كانت من صنع الألمان كان هناك عدد كبير من المواقف المتباينة بين السكان البولنديين. كان معظم البولنديين سلبيين فيما يخص مصير اليهود. يمكن تفسير هذا بسبب الرعب السائد وأن البولنديين كانوا أيضا يتعرضون لعمليات قتل جماعي مخططة على أيدي الألمان. أجد أن سلبيتهم مبررة في ظل وضع يتطلب فيه كل فعل قدرا كبيرا من البطولة. ما أدنيه هو اللامبالاة التي صادفها المرء من جانبهم.

في النهاية كانت هناك جماعتان نشطتان. الأولى مشكلة من أولئك الذين تخلوا عن، سرقوا وقتلوا اليهود. الثانية كانت مؤلفة من هؤلاء الذين خباوا اليهود وعاونوهم. كانت المجموعة الثانية أكبر وأكثر تمثيلاً للشعب البولندي والمقاومة البولندية. أما المجموعة الأولى فلاقت نجاحا أكبر."

"ماذا تقصد بهذا؟"

غالبا ما ننسى أنه كي ننقذ يهودي واحد يحتاج المرء إلى معاونة العديد من الأشخاص الآخرين لفترة زمنية طويلة - عادة بضعة سنين. لحياة يهودي واحد يكفي شخص واحد لحظة وجيزة. علاوة على ذلك لاقت الكثير من محاولات الإنقاذ إخفاقا مما يعني ان كلاً من اليهودي والبولندي الضالعين في المحاولة كانا يلقيان حتفهما - لذا لم يتم تسجيل هذه المحاولات في الإحصاءات الإيجابية. "هل بذل البولنديون في رأيك الشخصي قصارى جهدهم؟"

"لم أكن لأقول هذا ولكن لا يراودني ادنى شك فيما يتصل بمسألة إن كان يتعين الحكم على شعب ما من خلال هؤلاء الذين خاطروا بحياتهم من أجل الآخرين أو من خلال عدد الوشاة به. فيما يتعلق بالمستقبل يعتقد:

يدو وكان اليهود البولنديين سينقرضون، غير أن شعبنا ظل يموت لألّفي عام ولا زال حيا .

الجماعة اليهودية في بولندا صغيرة جداً لكن ربما يكتب لها البقاء . مؤخراً أتى إلينا بعض الشباب الجدد . يبدو أنهم كانوا قد ارتدوا عن نسبهم اليهودي غير أنهم عادوا إليه مرة أخرى . منذ ثلاثة أشهر مررت بتجربة سببت لي سعادة بالغة: احتفال بار ميتسفا . أتمنى أن يبقى شخص ما حين لا نكون هنا... أتطلع إلى المستقبل بكل ثقة . لقد تعرض اليهود البولنديون للإبادة لكن على الجانب الآخر شهد اليهود الأمريكيون زيادة ضخمة في أعدادهم . بلغ عددهم ٦ مليون يهودي وهو ما يوازي عدد هؤلاء الذين تمت إبادتهم في أوروبا . هناك دولة إسرائيل حيث ترعرع بالفعل جيل جديد . رغم أن عدداً من فروع اليهودية قطعت والبعض الآخر ذبلت وسقطت، فإن الشعب اليهودي لازال حيا وسيظل حيا .^{١١٥}

لم تنجح إبادة اليهود في أوروبا الشرقية رغم الأعداد التي لا حصر لها من الضحايا والمعاناة التي يعجز عنها الوصف وكذلك لم تنجح إبادة اليهود الشرق اوروبين . سوف تبقى ثقافة هؤلاء اليهود - بالتأكيد بشكل مختلف عما سبق - وسيستمر تأثيرها أيضا في الأماكن التي نشأت بها . ستعمل الذكرى على التأكد من حدوث هذا .

^{١١٥} في نفس الموضع، ص. ١٥٣ - ١٧٢ . الاستشهاد، ص. ١٦٣ - ١٦٤ ، ١٧٢ ، تم تصحيح جزء منها بالرجوع إلى الأصل البولندي الذي ظهر عام ١٩٩٣ (بفضل كلاوس ب. فريدرش)

خاتمة أهمية الذكرى

تعد الذكرى جزءاً هاماً من إدراك العالم عند اليهود. تنسب الكلمات التالية إلى بعل شيم توف: "الرغبة في النسيان تطيل النفي، إن سر الخلاص يكمن في الذكرى." أن يتذكر المرء الأرض المقدسة والكتاب المقدس إضافة إلى تاريخ الشعب اليهودي قبل وبعد طرده من إسرائيل، أن يتذكر تاريخ ما قبل الخلاص. قد يأتي المسيح في أي وقت. بالمعنى الاستعاري، ينطبق هذا أيضاً على الحياة الدنيوية. من يرفض تاريخ اليهود وثقافتهم يخسر هويته اليهودية، و"يهوديته" ومعها التضامن والقوة التي من خلالها يؤكد نفسه كيهودي في المجتمع. أن يخرج المرء عن التقاليد ويجد طريقه الخاص في سبيل مغاير يتطلب التدبر والحفاظ على الذات في الذكرى.

الذكرى والتذكر والتاريخ أمور تنتمي إلى جوهر اليهود. بهذا السبيل يحدد اليهود أنفسهم بصورة مستمرة. لا تقدم لنا فقط فهما للمعرفة التاريخية ولكن أيضاً للقلق الوجودي. إن الماضي لا يتبع خلفنا بل أمامنا فنحن نخبره من خلال الذكرى. تتبع أهمية الذكرى من تاريخ اليهود ذي الخصائص المميزة. فبعد أن تشتتوا في جميع أرجاء العالم، غالباً ما لم يكن لهم وطن ولم يسمح بأن يكون لهم وطن. من ثم فإن تاريخهم - تاريخهم جميعاً كشعب وتاريخ كل فرد على حدة - هو وطن في الذاكرة. مانيه شبيرير كتب يقول:

حين كانت الشيتلات اليهودية لازالت موجودة بالنسبة لي كانت ترجع فقط إلى تاريخ بعيد حيث أنها كانت قد لحقها الدمار. ... تنتمي زابولوتيف منذ ذلك الحين فصاعدا لحاضري. لكن له وطن في ذاكرتي.

أنشأت الجماعات اليهودية سجلات بأسماء أعضائها، خاصة أسماء من تعرضوا للاضطهاد أو القتل كي لا يضيعوا في غياهب النسيان. لم يستطع أي يهودي تقادي هذا ورغم أنها كانت تجربة حزينة فقد كانت أيضاً تجربة تنطوي على القوة. اليوم تعد القوة التي يمكن أن تمنحنا إياها الذكرى أكثر ضرورة من ذي قبل وربما تنبثق القدرة على معرفة ما ينبغي عمله مباشرة من تذكر الماضي. أن تذكر يعني أيضاً أن تصبح على وعي بالتاريخ وأن تنظر إليه بعين الناقد. لا يمكن وصف التقدير الذي يحظى به التقاليد اليهودية - التي نشأت في الطقوس التي تمتد عمرها لمئات أو حتى آلاف السنين - في الفكر التاريخي اليهودي. في الوقت ذاته، تتم مناقشة الكتابات القديمة باستمرار من جديد كما تتم مناقشة مسار التاريخ. من الأمثلة المميزة في هذا الصدد الحكاية الحسيدية التي سعى فيها الصديق إلى محاكاة معلمه إلى حد أنه هجره كما أدار المعلم ظهره إلى معلمه فيما مضى.^{١١٧} هذا النوع من الذكرى يثير الألم.

^{١١٦} مانيه شيبيربر، وردت وفقاً لكتابه "شعرك الرمادي يا سليمان. قصص يهودية شرق أوروبية، تحرير أولف ديدريش بالاشتراك مع أوتوم. ليليان وجيرمانيا جودايشا (ميونيخ، ١٩٨٨)، طبعة جديدة، ص. ٥٦.

^{١١٧} جيرشوم شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية] (فرانكفورت، ١٩٨٠)، ص. ٣٨٢. إيلي ويزل، ارواح مشتعلة (فيينا، ١٩٧٤)، ص. ١٢٤.

إن كلمات بعل شيم توف منقوشة فوق بوابة الخروج بمكان التذكر
ياد فاشيم في اورشليم. يميل السياسيون ربيعو المستوى إلى
الاستشهاد بهذه الكلمات في المناسبات التي يتم فيها إحياء ذكرى
الجرائم التي ارتكبتها الألمان في حق اليهود. كما تزين هذه العبارة
طابعا بريديا صدر عن مكتب البريد الألماني بمناسبة الذكرى
الخمسين للمذابح المنظمة في التاسع والعاشر من نوفمبر ١٩٣٨
المعروفة عادة باسم "ليلة الزجاج المهشم". لا تحمل الذكرى أهمية
لل يهود فقط دون غيرهم، بل لنا جميعا. فالذكرى تنطوي على
الاعتراف بالخسارة التي لا يمكننا سوى الحزن عليها. بيد أنها تؤدي
إلى أبعد من هذا. فهي تمكّتنا من معرفة تاريخنا الذي نجد به هويتنا
والكشف عن جذور أنماطنا السلوكية وأساليب التفكير ومشاعرنا
بلغة التاريخ. إن التوسع في هذا النوع من التاريخ ومواجهته قد يؤدي
إلى بعض الضجة ولكن فقط بهذه الطريقة يمكن للمواقف
والسلوكيات أن تتغير.

هؤلاء الذين يتجنبون مثل هذه المواجهة، هؤلاء الذين يرغبون في
حماية رأيهم الثابت تجاه العالم من مثل هذا الصخب تزعزع ثقتهم
بالنفس بصورة أسر من غيرهم. إن رغبتنا في النسيان لا تستطيع
أن تمنع التاريخ من اللحاق بنا مرة أخرى. إن الرغبة في النسيان
تطيل عدم يقيننا وعجزنا عن التعامل مع المشكلات والقضايا
الشائكة. على النقيض من هذا الذكرى تحررنا وتمنحنا القوة لنخلق
بوعي حاضرا ومستقبلا.

ستحضر تاريخ اليهود في الفترة الحديثة - أيضا في أوروبا
الشرقية - بشكل ملح "جدل التنوير" أمام أعيننا. أراد مفكرو التنوير
تحرير البشرية وتحريرها من عدم نضجها الفكري الذي تجلبه على
نفسها - وفقا لكانط. الذي لا تتفق صورته مع هذا الشخص

المحرر يجب أن "يتحسن" أو يتعلم. حتى يتحقق هذا الهدف تكون حقوقه أقل منزلة من غيره.

لم تكن فقط الطبقات الاجتماعية الدنيا "بم حاجة إلى التحسن" بهذا المعنى بل أغلبية اليهود وخاصة اليهود الشرق أوروبين. في خضم الخلاف حول مكانهم في المجتمع التي تبعت كارثة عام ١٦٤٨، بدأ يهود شرق أوروبا في تشكيل "شخصية ثقافية متميزة" ولم يكن معظمهم على استعداد للتخلي عن "يهوديته". لم يكن الدين بالنسبة لهم مجرد شأن خاص - لو كان الأمر هكذا لتحمله التقدميون - بل كان جزءا من هويتهم الاجتماعية والتاريخية.

ارتبط التحول من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي يقوم على الرأسمالية بالتنوير. لم يشر الفكر فقط على العادات التي تحبس البشرية في غياهب الجهل، بل أدت التطورات الاقتصادية والاجتماعية أيضا إلى تلاشي المجتمعات التقليدية. كثيرا ما قام التنوير والرأسمالية بتحرير الناس من قيودهم أرسانهم في مجال الفكر. على سبيل المثال فيما يتصل بعقيدة الكنسية وفي الاقتصاد والعبودية وقواعد النقابات العمالية وغيرها من اللوائح. في الوقت ذاته تطلبت هذه الحرية أيضا من المرء أن يسلم نفسه إلى الاعتماد على أشياء جديدة - مثل العمالة بالأجر في المشاريع الصناعية - أو أثارت الصعاب أمام هؤلاء الذين كان عليهم تلمس طريق جديد في العالم بعد فك عرى الأواصر القديمة. تم "استعمار" نمط حياة الكثيرين والتعتم على من جانب تدخل كيان دولة جديدة لها قوى ممتدة ومن جانب العلاقات الاقتصادية الجديدة.

لم يستطع اليهود تنادي بالظهور بمظهر "مستعمري التقدم". كان بوسع الفلاح وضع ثقته التامة في اليهودي "الخاص به"، الشخص الذي يتاجر معه والذي يرفع كل شيء من أجله والذي غالبا ما يمه بالنصح في الشؤون العائلية أو الضرائب أو الشؤون القانونية والذي

يمثله حتى ضد الدولة إن دعت الحاجة لذلك . غير إن مشاعره تجاه اليهود كانت متضاربة . فقليديا كان اليهودي "أداة" في يد السادة الإقطاعيين وكان الفلاح نتيجة لذلك يصب جام الكراهية المتراكمة على "الوسيط" . بغض النظر عن هذا جلب اليهود شكلاً مختلفاً من الاقتصاد إلى القرية: لم يكن المحور - على وجه اليقين "الاقتصاد الأخلاقي" الذي كثيراً ما ينتهك - (ل. ب. طومسون) - بل كسب الرزق من خلال الإدارة الحذرة وفقاً لمفاهيم معينة للشرف ولكن بالتفكير بلغة المعايير "الرأسمالية" حتى حين يكون الريح المجني بهذه الطريقة يكفي للعيش فقط . نتيجة لذلك، كان اليهودي موضع ثقة وغريب في آن واحد .

كان المنهج الأيسر هو اعتبار اليهود والخطر الذي يثيره انهيار الجماعات التقليدية تحت وطأة ضغوط التطورات الاقتصادية الاجتماعية شيئاً واحداً . كلما فقد اليهود مكانتهم بوصفهم وسطاء، بدأوا في خسارة مكانتهم في المجتمعات القديمة . لقد تحملوا مهام اقتصادية واجتماعية جديدة غير أنهم لم يتمكنوا من استعادة الثقة التي كانوا يتمتعون بها من قبل أو على الأقل لم يستعيدوها بنفس القدر . لقد تمزقت الروابط التقليدية . في الوقت ذاته كان من الممكن لمعظم اليهود الحفاظ على مجتمعاتهم وإعطائها حياة جديدة من خلال التفكير الديني الجديد في الحسيديّة والأرثوذكسية وفي الصراع مع الهسكالاة وتوابعها وفي المشاعر المشتركة للقومية اليهودية الشرق أوروبية .

كان من الممكن استغلال غربة وعزلة أغلب اليهود بمنتهى السهولة لجعلهم كبش فداء في أوقات الأزمات والطوارئ خاصة وأن الأسباب الحقيقية كان يتم إخفاؤها في العمليات الاقتصادية والاجتماعية التي أصبحت أكثر تعقيداً . طالما استطاع المرء إلقاء عبء المسؤولية على عاتق اليهود ، كان بإمكانه التظاهر بأن له هوية

واضحة بينما في الواقع لم يكن ممكناً إيجاد طريقه. حقيقة أن أغلب اليهود أرادوا الاعتراف بقوميتهم والحصول على المساواة في الحقوق لم تلق قبولا لدى البولنديين الذين كانوا يناضلون من أجل وعيهم القومي واستقلالهم الوطني. بدلا من هذا كانوا يرو في اليهود خصومهم القوميين الذين في الوقت ذاته انتزعوا منهم أفضل الوظائف والمراتب الاجتماعية- وهو التطور الذي نجم في الحقيقة عن "الاستماتة من أجل المناصب" وهي خاصية تميز الاقتصاد الرأسمالي الجديد. أصبح اليهود "الأخر" كي يتمكن الناس من الاحتفاظ برباطة جأشهم في ظل التحول الاقتصادي الاجتماعي.

لم يتم الاعتراف بالثقافة وخط الحياة والقومية اليهودية الشرق أوروبية على قدم المساواة في شرق أوروبا. في المقابل نجد الموقف التقليدي المعادي لليهود الذي اتجهته الكنائس المسيحية والمصالح المادية القوية وفوق كل هذا حقيقة أن المجتمع في أوروبا الشرقية نفسها بدأ للتو السعى وراء حريته ولم يجد ذاته بعد. لم تستجب لصلاة الخاخام إسرائيل وهاجميد كوسيان الذي عاش في نهايات القرن التاسع عشر.

رب العالم، اعلم أن بني إسرائيل يعانون الكثير. إنهم يستحقون الخلاص. إنهم بحاجة إليه. بيد أنك إن لم ترد منحه، لأسباب غير معلومة لي، فعلى الأقل خلص الشعوب الأخرى، والأمم الأخرى... لكن بسرعة!^٣

غير أن الجهود الحازمة لليهود للحصول على حقوق مساوية بدأت في تغيير فكر المزيد من غير اليهود. أوقف الخطر النازي هذا التطور بشكل وحشي. اليوم حين تذكر عالم اليهود في أوروبا الشرقية في تنوعه وحين تذكر أنماط الحياة والثقافة والتقاليد وطقوس اليهود، تمنى استمرارية القوة الداخلية لليهود. ربما منحنا أنفسنا حرية جعل الغرب صديق واعتبار "الأخر" جزءا منا.

الهوامش

الجزء الثاني: يهود شرق أوروبا "نسق ثقافي للحياة"

١ جورج ك. هونيس، [تاريخ بولندا] (شتوتجارت، ١٩٨٣)، ص. ١٤٨ و ١٥٠ (بعد هنريك زينكيفيتش الذي كان أول من استخدم مصطلح "فيضان" على الحرب ضد السويد عام ١٦٥٦)

٢ هيرمان جرايفي [اليهود، لحات من تاريخهم في أوروبا العصور الوسطى وأوروبا العصر الحديث] (درامشات، ١٩٨٠)، ص. ١٢٧ بالكامل.

٣ شموئيل جوزيف أغنون، [قصة بسيطة] (فرانكفورت، ١٩٨٧)، ص. ١٦٦ بالكامل.

٤ جيرشوم شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية] (فرانكفورت، ١٩٨٠)، ص. ٨٨.

٥ جيرشوم شوليم، [حول القبالة ورمزيتها] (فرانكفورت، ١٩٧٣)، ص. ٢٥٥ - ٢٥٨؛ وإيجون إبروين كيرش، [إحياء الغوليم] في [قصص من سبعة جيتهات] (فرانكفورت، ١٩٨٢) من ص. ١٧٧ - ١٩٤.

٦ شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص . ١٤٢ .

٧ المرجع السابق، ص . ٢٢٤ . بالكامل .

٨ إسحاق باشيفيس سينجر، حب قديم . قصص من الحياة (ميونيخ، فيينا، ١٩٨٥) ص . ٣٨ . [كلاهما]

٩ شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، صفحات ٢٨٧ . ٣٠١ . ٣٠٥ .

١٠ ماريان فوكس وزيجمونت هوفمان وموريسي هورن وجيرزي توماس تسيفيسكي [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة] (وارسو، بلا تاريخ [حوالي ١٩٨٣])، ص . ٢٦ .

١١ استشهاد أورده شوليم في كتابه [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص . ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

١٢ سيمون دينو، [تاريخ العالم للشعب اليهودي منذ البدايات الأولى وحتى يومنا هذا] (برلين، ١٩٢٨) الجزء السابع، ص . ١٩٧ .

١٣ شوليم [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص . ٣٤٩ .

١٤ استشهاد وارد في [كنيسة ومعبد . دليل تاريخ المسيحيين واليهود . عرض بالمصادر] المحرر كارل هاينريش رينجشتورف وسيجفريد فون كورتزفلايش (ميونيخ، ١٩٨٨) الجزء الثاني، ص . ٤٥٩ .

١٥ أوردها كارل جروزينجر في كتابه [الحسيدية والحسيدون] و
مصلون وتمرّدون]، ص. ١٤٨

١٦ إيلي فيزيل [أرواح مشتعلة] ، (فيينا، ١٩٧٤)، ص. ٨٥ .

١٧ جيرشوم شوليم، [الرغبة في المعرفة . اللاهوت اليهودي في
القرن العشرين . قراءة]، تحرير شوليم بن شورين وفيينا لينزين
(ميونيخ- زيورخ، ١٩٨٨) . ص. ٣١١-٣١٧ بالكامل .

١٨ س. أ. هورودوكي، [تيارات دينية في اليهودية . مع إشارة
خاصة للحسيدية] (بيرن-ليبزج، ١٩٢٠)، ص. ١٨٣ .

١٩ إيلي فيزيل، [أرواح مشتعلة]، ص. ١٩٠ .
٢٠ شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]، ص. ٣٨٢ .
٢١ م. أ. [ربما ماثياس أشر، الاسم المستعار لثان بيرناوم]،
"اليهود البولنديون ١" (١٩١٦-١٩١٧) ، ص. ٥٦١ . تصف ثان
بيرناوم يهود شرق أوروبا بوصفهم "جماعة ثقافية منفصلة" فتقول:
"عرفناهم" كـ "كلّة" ثقافية يهودية ضخمة- ربما الأضخم من نوعها
على الإطلاق- تتخللها حركة داخلية ثرية في التاريخ ومتوجهة بقوة
نحو الحاضر وممتلئة بالمستقبل،" [ما كنه يهود شرق أوروبا ؟
معلومات مبدئية]، (فيينا، ١٩١٦)، ص. ١٥ . لقد تحدث بالفعل في
اول مؤتمر صهيوني عام ١٨٩٧ عن يهود شرق أوروبا وأنهم يملكون
ثافت منفصلة كشيء باد للعيان (مؤتمر الصهيوني في بازل أيام ٢٩ .
٣٠ . ٣١ أغسطس ١٨٩٧) [لابد وأن نواصل في الكتابة عن تاريخ
مفهوم أوست يودي . على أي حال يجب التشديد على أن هذا

المفهوم نشأ في الاستخدام اللغوي اليهودي. حقيقة أن "أوست يودي" فيما بعد لعب دورا هاما كـ فكرة مقبولة عن اليهود في الاضطرابات المعادية للسامية لا يجب أن يؤدي إلى عدم استخدام هذا المصطلح.

٢٢ سالشيا لاندمان، [اليديشية. مغامرة لغة] (فرانكفورت ، ١٩٨٦)، ص. ٥٣. ٢٣. في ما يتعلق بالبحث في اللغة والثقافة اليديشية جاء المعهد العلمي اليديشي (YIVO) في الصدرة تأسس في برلين عام ١٩٢٥ ومع أول مقره في فيلينوس بليتوانيا عام ١٩٤٠، نقل على مدينة نيويورك. منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، عاد المعهد للعمل مرة أخرى في فيلينوس. لقد واصل معهد التاريخ اليهودي في وارسو تليد معهد الدراسات اليهودية بالمدينة ففي جامعة كراكو يوجد معهد للتاريخ والثقافة اليهودية. في ذات الوقت تم تأسيس معاهد مماثلة في بلدان أخرى بـ شرق أوروبا.

٢٣ . صامويل، عالم شوليم أليشيم (نيويورك، ١٩٤٣)، ص. ٢٦ بالكامل، تم الاستشهاد بها في [العالم الغارق]، تحرير جواشيم ريدل (فيينا، ١٩٨٤)، ص. ١٦.

٢٤ مينديل مويخز سفوريم *Fischke der Lahme*, Bettlerroman (ليبزج، ١٩٧٨) ص. ١٩ بالكامل.

٢٥ روزي أوسلاندر حول تشيرنوفيتش التي ولدت بها عام ١٩٠٧ أوردت في كتاب [قصص يهودية شرق أوروبا]، تحرير أولف ديداريس بالتعاون مع أوتوم. ليلين وجيرمانيا جودايكا (ميونيخ، ١٩٨٨ ، طبعة جديدة، ص. ٣٣.

- ٢٦ مانيه شيربير، [سقاة الرب. كل ما جرى ...] (فرانكفورت ، ١٩٩٣) الجزء الأول، ص. ٢٣. بالكامل ولد شيربير عام ١٩٠٥ في زابلوتوف في جاليسيا.
- ٢٧ هاينريش هاينه، [عن بولندا] في أعمال هاينريش هاينه الجزء الثاني، تحرير فولفجانج برايزيندانس (فرانكفورت ، ١٩٦٨)، ص. ٦٦. بالكامل.
- ٢٨ جوزيف روث، [الثقل الزائف. قصة مفتش على الموازين والمقاييس] (كولونيا، ١٩٧٧)، ص. ٢٦. بالكامل.
- ٢٩ قصة حياة سولومون ميمون. من تأليفه وتحرير كارل فيليب موريس. حررها حديثا تسيفي باتشا (فرانكفورت ، ١٩٤٨)، ص. ١٣.
- ٣٠ سيمون دينو، تاريخ الحسيديّة (كونيجشتاين، ١٩٨٣-إصدار ثان للطبعة الأولى، ١٩٣١)، الجزء الأول، ص. ٣٢. بالكامل، قارن بينها وبين صفحة ٣٤.
- ٣١ قصة حياة سولومون ميمون، ص. ٢٢٩؛ حول الظروف البائسة الأخرى في الممتلكات من الأراضي، قارن، على سبيل المثال، ص. من ١٤-٢٣، و ٣٧-٣٩، و ٦٦-٧٢.
- ٣٢ هاينريش هاينه، عن بولندا، ص. ٦٧. بالكامل.
- ٣٣ دينو، تاريخ العالم، الجزء الثامن، ص. ٣٤٠. بالكامل.
- ٣٤ حول المناقشات والمقترحات الواردة هنا وفيما بعد يمكن العثور على هذه الاستشهادات في كتاب جيرجن هينسبل "أمة بولندية من النبلاء والوسطاء اليهود من ١٨١٥-١٨٣٠. عن المحاولة الفاشلة لتحرير اليهود في مجتمع غير متحرر"، تاريخ شرق أوروبا المهجور ٣٢ (١٩٨٣)، ص.

- ١٧٩، ١٨٠، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٦؛ دينو، تاريخ عالم، الجزء الثامن، ص. ٣١٧، ٣٦٤.
- ٣٥ سينجر، حب قديم ("جوشنا وشمليكه")، ص. ١٧ بالكامل.
- ٣٦ هينسيل، "أمة بولندية من النبلاء"، ص. ١٧٤ بالكامل (مذكرة ١٨١٥) تختلف التفاصيل حول تواريخ
- ٣٧ شموئيل يوسف أجنون، المنبوذ (فرانكفورت، ١٩٨٨)، ص. ١٠٨ - ١٠٩.
- ٣٨ جون دويل كلير، روسيا تحشد يهودها. أصول "المسألة اليهودية" في روسيا، ١٧٧٢ - ١٨٢٥ (ديكالب، إلينوي، ١٩٨٦)، ص. ٣٤.
- ٣٩ جوزيف روث، "يهود التيه" (١٩٢٧ / ١٩٣٧)، تحرير هيرمان كيستن، الجزء الثالث (كولونيا، ١٩٧٦)، ص. ٢٩٣ - ٣٦٩، هنا ص. ٣٤٥ بالكامل.
- ٤٠ بينيامين ناانز، "الصراع والمجتمع ويهود بطرسبرج في أواخر القرن التاسع عشر"، في
- ٤١ فرانسوا جيزنيت قدم لي بسخاء هذا المصدر. يعكس هذا المصدر نفس نمط التفكير الذي تشتمل عليه "بروتوكولات حكماء صهيون" الزائفة.
- ٤٢ مانفريد هيلدرماير
- ٤٣ هنا أدن لرسالة الماچيسٲير غير المنشورة الخاصة بفرانك مايكل شوسٲر وعنوانها "الحرب على الجبهة "الوطنية" - ألمان ويهود روسيا في منطقة الحرب بغرب روسيا ١٩١٤ - ١٩١٦" (جيسين، ١٩٩٧).
- ٤٤ دينو، تاريخ العالم، الجزء الثامن، ص. ٣٠١ (وفقاً لتقرير روسي صدر عام ١٨١٠). كانت برودي بالقرب من

مدينة لفيف هي مسقط رأس جوزيف روث. كان صاحب الحانة الشخصية المحورية في روايته "تاراباس" (فرانكفورت ، ١٩٨٧) مبنيا على شخصية حقيقية ليهودي موسر عاش بتلك المدينة.

الجزء الثالث: أزمة اليهود في أوروبا الشرقية هوية جديدة

- ١ أرقام من جيرجن هينسيل، "أمة بولندية من النبلاء والوسطاء اليهود من ١٨١٥ - ١٨٣٠. عن المحاولة الفاشلة لتحرير اليهود في مجتمع غير متحرر"،
- ٢ شوليم أليشم، "الفصح اليهودي في القرية"، في حكايات يديشية كتبها مينديل مويخز سفوريم وايزاك لايب بريتز وشوليم أليشم، تحرير ليو نادلمان (زيورخ، ١٩٨٤)، ص. ٣١٠ - ٣٢٥، هنا ص. ٣١٣ بالكامل.
- ٣ شوليم أليشم، تيفي بائع الحليب (ليبزيغ، ١٩٨٤)، ص. ٦٤ و ٦٨ بالكامل.
- ٤ أليشم، تيفي بائع الحليب، ص. ٩ بالكامل.
- ٥ أعرب عن امتناني لديسلانكا شيفارا لهذا المصدر.
- ٦ لعب هذا المصطلح أيضا دورا مهما بالنسبة للصهيانية. في المؤتمر الصهيوني الأول ببازل عام ١٨٩٧، تحدث ديفيد فاربشتاين عن الفقراء الذين "يقتاتون على الهواء" (مؤتمر الجماعات الصهيونية في بازل) [٢٩ و ٣٠ و ٣١ أغسطس ١٨٩٧]، البروتوكول الرسمي [فيينا، ١٨٩٨]، ص. ١٠٤. وفي المؤتمر الخامس في بازل عام ١٩٠١ وصف ماكس ناردو "لوفتمينشين" بأنها "نمط يهودي متفرد". فمعا يشكل

"الكثير من رجال الهواء أمة الهواء". لهذا احتاج اليهود في النهاية إلى وطن خاص بهم (ماكس نوردو، كتابات صهيونية، تحرير لجنة العمل الصهيونية [كولونيا، ليبزيج، ١٩٠٩]، ص. ١١٧-١١٨، قارن مع ص. ١٢٩). على الجانب الآخر، فكر في الاستعمار لفلسطين دون ضمانات سياسية- في عبارة وجهت ضد يهود شرق أوروبا الصهيونيين- باحتقار وصفوا [بعمل من الهواء يقوم به رجال الهواء] (من مقابلة نشرت عام ١٩٠٧ في صحيفة العالم، أوردتها أنجيليكا موتيل، هيرتزل، حول تأسيس العالم. عن التغيرات والمثالب. من "عالم" هيرتزل حتى "توضيح عالم جديد" ١٨٩٧-١٩٩٧، تحرير جوانا نيتنبرج وأنطون بيلينكا وروبرت س. فيستريش [فيينا، ١٩٩٧]، ص. ١٩-٦٦، هنا ص. ٤٣). نعت الصهيوني الماركسي بير بوروخوف العمال اليهود بأنهم "بروليتاريا الهواء" لأنهم كانوا يعثرون بالكاد على وظائف في الصناعة الحديثة (ماتيتياهو مينتز، "بير بوروخوف"، في دراسات حول الصهيونية ٥ [١٩٨٢]، ص. ٣٣-٥٣، هنا ص. ٣٦). لتوضيح نطاق استخدام المصطلح، سأستشد بكلمات هانا أرينديت، التي أشارت إلى أولئك "رجال الهواء" المفكرين "بين اليهود الغربيين" الذين على الرغم من تمتعهم بالأمان الاقتصادي لم يستطيعوا أن يجدوا مكانا لهم في المجتمع اليهودي أو غير اليهودي (هانا أرينديت، أزمة الصهيونية، مقالات وتعليقات)، تحرير أيكه جايزيل وكلاوس بيترمان [برلين، ١٩٨٩]، ص. ٦٤).

٧ سالوو. بارون، اليهود الروس في عهد قيصرين والسوفييت (نيويورك، ١٩٨٧)، الطبعة الثانية، ص. ٩٥.

- ٨ شوليم أليشيم، ميناحيم مينديل المضارب، (ميونيخ، زيزريخ، ١٩٦٤)، ص. ١٢.
- ٩ أيزاك بابل، أعمال، تحرير فريتز ميرو، الجزء الثاني (برلين، ١٩٧٣)، ص. ٩٣.
- ١٠ أنسيلم هيلمان، الأنظمة التعاونية اليهودية في روسيا (برلين، ١٩١١)، ص. ٣٣.
- ١١ بيرنارد د. فاينريب، التاريخ الاقتصادي الحديث لليهود في روسيا وبولندا. منذ التقسيم الأول لبولندا إلى رحيل ألكسندر الثاني (١٧٧٢-١٨٨١) (هيلدشليم-نيويورك، ١٩٧٢)، الطبعة الثانية، ص. ٥٦.
- ١٢ هيلمان، الأنظمة التعاونية اليهودية في روسيا (برلين، ١٩١١)، ص. ١٠١ بالكامل (على نسق ل. روشلن، ١٩٠٩).
- ١٣ ألكسندر كارلباخ، "حاخام ألماني يتجه شرقاً"، في الكتاب السنوي السادس لمعهد ليوبايك (١٩٦١)، ص. ٦٠-١٢١، هنا ص. ١٠٨. تبين الخطابات بقوة الظروف التي أحاطت بيهود وارسو وتجربة مقابلة يهود شرق أوروبا.
- ١٤ إ. م. ديجور، اليهود في الاقتصاد الروسي، في اليهود الروس (١٨٦٠-١٩١٧)، تحرير جيكون فرومكين، جريجور أرونسون وأليكسيس جولدن فايسر (نيويورك-لندن، ١٩٦٦)، ص. ١٢٠-١٤٣، هنا ص. ١٤٣.
- ١٥ بابل، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، ص. ٦٨.
- ١٦ أيزاك باشيفيس سينجر، العقار (ميونيخ، ١٩٨١)، ص. ١١-١٦.
- ١٧ بوليسلاف بروس، الدمى (برلين، ١٩٥٤)، ص. ٨٧، ٦٥٨، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٦، ٨٣٤ بالكامل.

١٨ إرجع إلى أينجه بلانك، الهسكلاه والتحرير. طبقة المفكرين الروسية اليهودية و"المسألة اليهودية" على أعتاب "الإصلاحات العظمى"، في اليهود في وسط وشرق أوروبا. منذ التحرير وحتى الحرب العالمية الأولى، تحرير جوتنهولد رودي (ماربورج، ١٩٨٩)، ص. ١٩٧ - ٢٣١، هنا ص. ٢١٣.

١٩ ارجع إلى الحياة في شتيتل روسي. على خطى أنسكي. المجموعة اليهودية لمتحف الدولة للأعراق في بطرسبرج، كالوج لأحد الشتيتلات (كولونيا، فرانكفورت، ١٩٩٣).

٢٠ ارجع إلى فيرسونيكينا فيلت [العالم الضائع]، تحرير جواشيم ريدل (فيينا، ١٩٨٤)، ص. ٧٧ - ٩٠.

٢١ بانايت استراتي، عائلة بيرلوتر، في قضية العمل، الجزء الثامن، تحرير هاينريش شتيلر (فرانكفورت، ١٩٨٨)، ص. ١٦٥.

٢٢ ميكال ستيرزيمسكي، الحادثة التي لم تكتمل. مذكرات (ليزيچ، ١٩٨٥)، ص. ٨٦.

٢٣ إسرائيل جوشوا سينجر، الأخوة الأشكيناز (ميونيخ-فيينا، ١٩٨٦)، ص. ٥٩ بالكامل.

٢٤ بنهاية القرن التاسع عشر، تأسست مدافن يهودية جديدة في مدينة لودز بمساعدة إسرائيل بوزنانسكي الذي دفن هناك في ١٩٠٢ وتم تشييد ضريح مهيب وضخم لتخليد ذكراه. ارجع إلى المدافن اليهودية في لودز، أقدم مدافن يهودية بأوروبا، تحرير موتسيم ستوكي و. لودزي (لودز، ١٩٨٨).

٢٥ ألفريد دوبلن، رحلة في بولندا (ميونيخ، ١٩٨٧)، ص. ٧٤.

- ٢٦ إستر كرايمان، ديورا- الحمقى يراقصون في الجيتو (فرانكفورت ، ١٩٨٤)، ص. ٦.
- ٢٧ أيزاك باشيفيس سينجر، عائلة موسكات (ميونيخ، ١٩٨٧)، الطبعة الثانية، ص. ٥٧٣.
- ٢٨ قصة حياة سولومون ميمون، من تأليفه وتحرير كارل فيليب موريتس. حررها حديثا تسيفي باتشا (فرانكفورت ، ١٩٨٤)، ص. ٢٣٠. تزوج ميمون نفسه في عمر الحادية عشرة وأنجب أول أبنائه في الرابعة عشر؛ ارجع إلى ص. ٥٢-٦٦.
- ٢٩ إسرائيل جوشوا سينجر، الأخوة الأشكيناز، ص. ١٣٦.
- ٣٠ كرايمان، ديورا، ص. ١١.
- ٣١ أيزاك باشيفيس سينجر، حب قديم. قصص حب (ميونيخ- فيينا، ١٩٨٥)، ص. ١٣ ("جوشنا وشميلة").
- ٣٢ أليشيم، تيفي بائع الحليب، ص. ٣٨.
- ٣٣ شميرا ليفن، ب"شعرك الرماذي يا سليمان. قصص يهودية شرق أوروبية، تحرير أولف ديدريش بالاشتراك مع أوتوم. ليليان وجيرمانيا جودايشا (ميونيخ، ١٩٨٨)، طبعة جديدة، ص. ١٣٥-١٤٢، هنا ص. ١٤.
- ٣٤ أولريش جيرهارد، الحياة اليهودية في الطقوس اليهودية. دراسات وملاحظات ١٤٠٢-١٩٣٣. مراجعة وتعليق تسيفي سوفر. تحرير ديتريش جيرهارد ومالوين ميزر وبيرت ميزر (هايدلبرج، ١٩٨٠)، ص. ١٤٥.
- ٣٥ بيلا شاجال، الأضواء المتوهجة (راينيك، ١٩٦٦)، ص. ٣٠ بالكامل.

- ٣٦ المرجع السابق، ص. ٤٢. بصفة عامة كان يتم إشعال شمعتين ليوم السبت.
- ٣٧ شاموئيل يوسف أجنون، المنبؤ (فرانكفورت ، ١٩٨٨)، ص. ٢٣.
- ٣٨ سينجر، عائلة موسكات، ص. ٣٦٠ - ٣٦٣.
- ٣٩ بيلا شاجال، الأضواء المتوهجة، ص. ٦٦.
- ٤٠ روث، يهود التيه، ص. ٢٩٣ - ٣٦٩، هنا ص. ٣١٥.
- ٤١ سينجر، عائلة موسكات، ص. ٢٥٣ بالكامل.
- ٤٢ سينجر، العقار، ص. ٣٠٧. للمزيد من المعلومات عن الحيدر والتسيت تسيت ارجع للجزء السابق.
- ٤٣ روث، يهود التيه، ص. ٣٠٨ بالكامل.
- ٤٤ روث، يهود التيه، ص. ٢٩٨.
- ٤٥ وردت في كتاب آرثر هيرتزبرج، شالوم أمريكا! تاريخ اليهود في العالم الجديد (ميونخ، ١٩٩٢)، ص. ٨٨ - ٨٩.
- ٤٦ الكسندر جراناخ، هاهورجل يرحل. رواية حياة (ميونخ، ١٩٩٠)، ص. ١، ١٥، ٦٧، ٧٠ - ٧١.
- ٤٧ فرايهر فينير فون فينبرج، النمسا وجيشها (ليبزج، ١٨٤٧؟)، ص. ٨٢ بالكامل. في رأيي أن هذا الموقف يتسم به أيضا فترة تلت هذا. أشكر ريتشارد ويدور على المرجع.
- ٤٨ كارولي إيوتفيس، محامي الدفاع في محاكمة تيسزاسلر. كما ورد على لسان والتر بيتش: الهجرة اليهودية من جاليشيا ويهود المجر"، في اليهود في شرق ووسط أوروبا، ص. ٢٧١ - ٢٩٣، هنا ص. ٢٨١ بالكامل. أشكر والتر بيتش أيضا على مصادر أخرى تقوم على بحثه الجاري.

٤٩ للمزيد من التفاصيل، ارجع إلى بيتر هابر، بداية الصهيونية في الجمر (١٨٧٩-١٩٠٤) (كولونيا- فايمر- فيينا، ٢٠٠١).

٥٠ سيمون دينو، قصة العالم عن اليهود. من البدايات المبكرة حتى يومنا هذا (برلين، ١٩٢٨)، الجزء التاسع، ص. ٤٢٥، ٤٩١.

٥١ فرانز كافكا، خطابات ١٩٠٢-١٩٢٤ (فرانكفورت، ١٩٥٨)، ص. ٣٣٧. قارن مذكراته على سبيل المثال عن لقاءاته بيهود شرق أوروبيين: يوميات ١٩١٠-١٩٢٣ (فرانكفورت، ١٩٥١)، على سبيل المثال في ص. ١٧٨، ٢١٠ بالكامل، ٤٦٥، ٤٧٨ بالكامل.

٥٢ هانز كون، بشأن المسألة العربية، في اليهودي الجزء الرابع (١٩١٩-١٩٢٠): ص. ٥٦٦-٥٧١. ودت في اليهود في بوهيميا ومورافيا. قاريء تاريخي، تحرير فيلما إيجرز (ميونيخ، ١٩٨٦)، ص. ٢٣٢-٢٣٧، هنا ص. ٢٣٤، و٢٣٥.

٥٣ فرانز كافكا، خطابات إلى ميلانو (فرانكفورت، ١٩٥٢)، ص. ٥٧.

الجزء الرابع: محاولات الإبادة وأمل جديد

١ يعطي والتر كازوفمان وصفاً تفصيلياً لمثال الأوديسة في رسالة الماجستير غير المنشورة الخاصة به. سياسة الأقسام اليهودية في الحزب الشيوعي متخذا الأوديسا مثالا، ١٩٢٠-١٩٢٥. ماقبل التاريخ والمسار (برلين، ١٩٩٤).

٢ جوزيف روث، يهود التيه (١٩٢٧/١٩٣٧)، الأعمال الكاملة، تحرير هيرمان كيسنت، الجزء الثالث. (كولونيا، ١٩٧٦)، ص. ٢٩٣-٣٦٩، هنا ص. ٣٥٧.

٣ كلا الاستشهادين في ماريان فوكس، وسيجموند هوفمان، وموريسي هورن وجيرسي توماس تسيفيسكي، اليهود البولنديون. تاريخ وثقافة (وارسو، غير مؤرخ [حوالي ١٩٨٣])، ص. ٤٤. ٤ أيزاك باشيفيس سينجر، حب قديم، قصص حب (ميونيخ-فيينا، ١٩٨٥)، ص. ٢٢٦ ("المخطوطة").

٥ ورد على لسان برند مارتن، اضطهاد اليهود وإبادتهم في عهد الدكتاتورية الاشتراكية القومية، في كتاب اليهود كأقلية في التاريخ، تحرير برند مارتن وإرنست شولين (ميونيخ، ١٩٨١)، ص. ٢٩٠-٣١٥، هنا ص. ٢٩٥-٢٩٨؛ فولفجانج شيفلر، الطريق إلى الحل النهائي، معاداة السامية من كراهية اليهود حتى الهولوكوست، تحرير هيربرت أ. شتراوس ونوربرت كامبي (بون، ١٩٨٥)، ص. ١٨٦-٢١٤، هنا ص. ١٩١. ينبغي أن توضح هذه نوع الأفكار التي أثرت على مسار فكر لقادة النازية ودعاية النازي. لا أقصد أن ألمح إلى أنه كان هناك خط مباشر من الاستمرارية منذ المظاهر الأولى وحتى العمليات الأخيرة لقتل اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية.

٦ جوزيف روث، يهود التيه، مقدمة للطبعة الجديدة، ص. ٣٦٨-٣٦٩.

٧ وردت في ليس هناك طريق للعودة... قصص و للجيتو من فيلنا، تحرير فلوريان فرويند وآخرون (فيينا، ١٩٩٢)، ص. ٥٣. الشبه ينطبق على إشعياء إصحاح ٥٣: ٧.

٨ هانا كرال، أن تحب أعمال الرب (فرانكفورت ، ١٩٩٢)،
ص. ٤٧ - ٤٨.

٩ ماجورزاتا نيتزابيتوفيسكا وتوماس توماستسيفيسكي، آخر
اليهود في بولندا (شافهاوسين وأخرون، ١٩٨٧)، ص.
٥٥.

١٠ في نفس الموضع. ص. ٥٧ - ٧٥، هنا ص. ٧٤؛
احتقالات البارميتسفاه، ص. ١٣٧ - ١٥٠؛ نموذج للتغير
الواعي للتقاليد، ص. ١٠٤.

١١ في نفس الموضع، ص. ١٥٣ - ١٧٢. الاستشهاد، ص.
١٦٣ - ١٦٤، ١٧٢، تم تصحيح جزء منها بالرجوع إلى
الأصل البولندي الذي ظهر عام ١٩٩٣ (بفضل كلاوس ب.
فريدريش)

الخاتمة

١ مانيه شبيربر، وردت وفقاً لكتابه "شعرك الرمادي يا سليمان.
قصص يهودية شرق أوروبية، تحرير أولف ديدريش بالاشتراك مع أوتو
م. ليليان وجيرمانيا جودايشا (ميونيخ، ١٩٨٨)، طبعة جديدة،
ص. ٥٦.

٢ جيرشوم شوليم، [تيارات رئيسية في الصوفية اليهودية]
(فرانكفورت ، ١٩٨٠)، ص. ٣٨٢.
إيلي ويزل، ارواح مشتعلة (فيينا، ١٩٧٤)، ص. ١٢٤.